



مذكرات

ونستون تشرشل

السياسي الداهية

إعداد وتقديم
علاء الخولي

مكتبة ميراث الزود

مذكرات

ونستون تشرشل

السياسي الداهية

إعداد وتقديم

عُلا الخولي



مكتبة جزيرة الورد

تقديم

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وبعد ،

بين يديك عزيزي القارئ مذكرات ونستون تشرشل ذلك السياسي الداهية المتعدد المواهب فهو رسام وأديب وجندي نجح لفترة في حكم العالم .

سمي (الرجل البدين) وولد في قصر بلاينهام للشهير عام ١٨٧٤ وكانت وفاته ١٩٦٥ م عن عمر يقارب التسعين عامًا ، ويقال : إنه هو الذي رفع معنويات شعبه أثناء الحرب ، ولم يخضع لهتلر بل قال له هتلر الجملة الشهيرة : (إننا لا نريد محاربتك نحن نريد استسلامك) ولكن هيهات لم يستسلم تشرشل ، بل حارب حتى النهاية ، وكان النصر حليفًا له ، والغريب فعلاً هو حصول تشرشل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٥٤ م ، لكتاباتة التاريخية ، وكان وقتها يوقع أمراً بالبدء في إنتاج القنبلة الهيدروجينية .

إنها رحلة طويلة تكاد هذه المذكرات تحكي القليل عن ذلك الداهية وكيف كان يفكر وكيف كان يرى الأمور أمامه ، إنه زعيم من طراز خاص ، رجل دولة ، خطيب مفوه ، مخطط إستراتيجي ، عاشق الطراز الرفيع ، أثقن الشعر وكتبه بأسلوب خاص ، تمتع بروح النكتة ، حقاً إنها شخصية تستحق أن تعرف عليها وعلى كيفية رؤيتها للأحداث .

على أمل أن نستفيد من مميزات هذه الشخصية ونستبعد سلبياتها .

والله الموفق والمستعان

المؤلفة / علا الخولي



ونستون تشرشل السياسي والرسام والأديب والجندي الذي حكم العالم بدهائه
(موجز مختصر لقصة حياة تشرشل)



بين المعسكرات والكتب والرسم والسياسة، نشأ شابٌ ينحدر من عائلة مخملية محافظة سياسياً، جده دوق مارلبورو الأولو والده لورد، لم تشأ الظروف أن ينعم هذا الشاب الذي أصبح فيما بعد أسطورة بحياة الرفاه والخيرات، فبعد وفاة والده في ظروف مأساوية تم تجريده من لقبه الذي كان قد اكتسبه منه، فما كان على هذا الفتى إلا أن يشق طريقه بنفسه وأن يكسب رزقه بقلمه ولسانه، إنه رئيس وزراء بريطانيا السير ونستون تشرشل أو ما يعرف بالـ «الرجل البدين»، الذي سميت ثاني قنبلة ذرية أُلقيت على مدينة ناجازاكي اليابانية في ٩ من آب ١٩٤٥ باسمه بسبب بدائه.

في ٣٠ تشرين الآخر ١٨٧٤م ولد ونستون تشرشل في قصر بلاينهام الشهير القريب من أوكسفورد مقر حكام مقاطعة مارلبورو، ونشأ في جو عابق برائحة التاريخ والحروب

والانتصارات، وساعدته في ذلك والدته، على عكس ما ستظهره المعلومات الواردة أدناه لما يمتلكه تشرشل من ذكاء وحنكة سياسية محترفة، إلا أنه لم يظهر أي نجاح في المدرسة الثانوية حتى أنه لم يتمكن من الوصول أبداً إلى الصفوف العليا، وكان يستعمل لغته الخاصة غير مبال باللغة الإنكليزية وأدبها الكلاسيكي.

من المدرسة .. إلى المعسكرات :

بعد فشله خلف مقاعد الدراسة، ترك تشرشل الثانوية والتحق بالمدرسة الحربية الملكية ليتخرج منها عام ١٨٩٤ م، كانت أولى مهامه مع الجيش الإسباني في كوبا الذي كان يقاتل الاستقلاليين الكوبيين، ومن بعدها أرسل إلى الهند حيث قضى مدة طويلة، اعتبرها مدرسة تثقيفية وتربوية ذاتية، حيث كانت ترسل له والدته صناديق من الكتب التي قرأها وتأثر بكتابتها، لاسيما في نظرية داروين في النشوء والارتقاء.



تشرشل شاباً

أرسل تشرشل بعد الهند إلى السودان ومن ثم إلى جنوب إفريقيا، وإلى جانب كونه جندياً، عمل مراسلاً لجريدة «مورنينغ بوست» Morning Post في العام ١٨٩٩، تعرض للاعتقال على أيدي قوات البوير الأفارقة المنحدرين من أصول هندية، إلا أنه تمكن من الفرار فيها بعد وعاد إلى جبهة القتال في النताल.

من المعسكرات .. إلى العمل الحزبي :

بدأ حياته السياسية في حزب المحافظين ، وانتُخب عضواً في مجلس العموم ، وفي سنة ١٩٠٤ ، انضم إلى حزب الأحرار بعد خلافات بينه وبين المحافظين ، وكان تشرشل قد دخل البرلمان بعد أن جمع مبلغاً من المال كان قد حصل عليه مقابل المحاضرات التي ألقاها في الولايات المتحدة الأميركية ، والتي روى من خلالها تجربته العسكرية في جنوب إفريقيا وقصة هروبه من المعتقل عام ١٩٠٨ م ، عين تشرشل وزيراً للتجارة ثم وزيراً للمداخيل في العام ١٩١٠ م ، ووزيراً للبحرية في العام ١٩١١ م ، في مطلع الحرب العالمية الأولى ، كان تشرشل وراء حملة الحلفاء إلى اللورنيل لعزل تركيا عن أوروبا ، والتي أخفقت أخفاقاً ذريعاً ، ويعد تشرشل مسؤولاً عن هذا الإخفاق ، مما اضطره إلى الاستقالة ، في العام ١٩١٥ م بدأ تشرشل أن حياته السياسية قد انتهت خصوصاً بعدما اشترط المحافظون للدخول في تحالف حكومة الائتلاف بتجريدته من منصبه كقائد للقوات البحرية ، فتعلم الرسم لتمضية وقته ، واستمر يمارس الرسم حتى آخر لحظات حياته .

تشرشل لم يستسلم ، وقرر العودة إلى المعسكرات ، وفي العام ١٩١٦ ولاءه رئيس الوزراء لويد جورج منصب وزير الإمدادات العسكرية ، وبنهاية الحرب صار وزير الدولة لشؤون الحرب والقوات الجوية ، حيث عمل على تحديث القوات الجوية البريطانية .

بين الحربين العالميتين الأولى والثانية :

في أيار ١٩٤٥ م قاد تشرشل مواكب المحتفلين بالنصر في شوارع لندن ، إلا أنه . كما ورد في أحد كتبه . كان يشعر بغصة في القلب لعدم قدرته على الحد من النفوذ الشيوعي داخل أوروبا ، وبعد شهرين من ذلك سقطت حكومته في الانتخابات ، ويعد توليه حزب العمال للسلطة انصرف تشرشل إلى الكتابة والرسم مرة أخرى .

أهم مرحلة في حياة تشرشل السياسية برزت في الحرب العالمية الثانية ، فقد عُين عند اندلاع الحرب سنة ١٩٣٩ م ، وزيراً للبحرية ، وفي ١٠ أيار ١٩٤٠ أصبح تشرشل رئيساً للوزارة البريطانية ، وأعلن في ٧ حزيران أن بريطانيا ستتابع الحرب وحدها ، وتعرض بعد ذلك للوم شديد ، بعد أن عجزت بريطانيا عن صد الجيش الألماني في اليونان ، وخاصة في جزيرة كريت ، وله أثر في نشوب الحرب بين ألمانيا وروسيا ، وبذلك تجنب بريطانيا أي غزو محتمل لأراضيها .

بعيداً عن السياسة والحروب :

هو الذي رفع معنويات شعبه أثناء الحرب ولم يخضع لأدولف هتلر ، وقال له هتلر حينها: «إننا لا نريد محاربتك نحن نريد استسلامك » ، ولكن تشرشل لم يتصع وقاوم حتى النهاية وكان النصر حليفاً له ، وهو أول من أشار بعلامة النصر بواسطة الإصبعين السبابة والوسطى ، وقال حينها : « إن غزا هتلر الجحيم ، سأمتدح الشيطان - ستالين - على الأقل في مجلس العموم » .

ولعل من غرائب القرن العشرين التي تكاد ألا تحصى أنه في الوقت الذي كان تشرشل يوقع على أمر بالبدء بإنتاج القنبلة الهيدروجينية كان يفوز بجائزة نوبل للآداب سنة ١٩٥٤ لكتاباتة التاريخية .

كان رجل دولة بارزاً ، خطيب مفوهاً ، مخططاً إستراتيجياً وعاشقاً من الطراز الرفيع ، أقرن الشعر وكتبه بأسلوبه الخاص ، تمتع تشرشل بروح النكتة وبإطلاقة حركات وشعارات ميزته عن غيره ، تعرف في حياته على كليتاين هوزيه وصارا خطيين وعندما كتب حياة وأيام جون تشرشل دوق مارلبورو ، شكلت قاعات ذلك القصر وحدثقه النبع الذي استقى منه تشرشل مصادر كتابه ، وقد عرف عنه نزعة الأرستقراطية البعيدة عن الشعب في الداخل ، والاستعمارية المتطرفة في الخارج .

وفاته :



في ٢٤ كانون الآخر ١٩٦٥ غادرت روح تشرشل الحياة ، ودفن في حديقة الكنيسة الصغيرة التابعة لقصر بلاينهايم حيث ولد قبل تسعين سنة ، ليطوي بموته صفحة أهم رئيس وزراء مَرَّ في تاريخ الحكم الملكي البريطاني .

من أقواله :

- في السياسة ليس هناك عدو دائم أو صديق دائم هناك مصالح دائمة .
- الشخص المتواضع هو الذي يمتلك الكثير ليتواضع به .
- المسؤولية ثمن العظمة .
- إذا كنت ترغب بحق في اكتشاف بحار جديدة ، يجب عليك أن تتحلى بالشجاعة اللازمة لمغادرة الشاطئ .
- المتشائم يرى منحة في كل منحة ، والمفائل يرى منحة في كل منحة .
- لا تستسلم أبدًا أبدًا أبدًا أبدًا .
- إمبراطوريات المستقبل هي إمبراطوريات العقل .
- إن الحقيقة محسومة ، الرعب قد يستاء منها ، والجهل قد يسخر منها ، والحق قد يجرفها ، ولكنها تبقى موجودة .
- أمضى قدمًا ولو كنت ماشيًا على الجحيم .
- لا أستطيع أن أعدكم إلا بالدموع والبكاء والألم .



مذكرات الداهية ونستون تشرشل
السياسي الذي أذهل العالم بدهائه



الفصل الأول

يقول ونستون تشرشل في بداية مذكراته
وتحت عنوان: جهل المنتصرين
عن الفترة الزمنية من (١٩١٩ - ١٩٢٩)



يبدأ تشرشل مذكراته التي كتبها بأسلوب بسيط يقول :
 بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، كان هناك اعتقاد شامل ، في العالم كله ، بأن السلام
 سيسود العالم ، وكان ممكناً تحقيق هذه الأمنية القلبية لدى الشعوب ، وذلك بواسطة التزام
 الثبات على المعتقدات العقائدية الصحيحة ، والمنطق السليم ، وبعد النظر ، وكان شعار
 «حرب من أجل إنهاء الحرب» يتردد على كل لسان وقد اتخذت الإجراءات اللازمة لتحويل
 هذا الشعار إلى حقيقة واقعة ، وقد تمكن الرئيس ولسن ، عن طريق نفوذ الولايات المتحدة
 من جعل مفهوم عصبة الأمم ، يطنى ويدخل جميع العقول ، وشكلت الوكالة البريطانية في
 فرنسا هذه الفكرة وكونتها وحولتها إلى آلة ستبقى حثماً معاً لطريق تقدم الإنسان ،
 وكانت جيوش الحلفاء ، المتصرة ، بالنسبة لهزيمة الأعداء مضطرة إلى مجابهة مصاعب
 داخلية ، لا تعرف كيف تقضي عليها ، لكن القوة التوتونية المكتنزة في أوروبا الوسطى قد
 أضحت مطروحة أمامهم الآن ، كما أن روسيا التي هشمته المطارق الألمانية كانت هي
 الأخرى مضطرة نتيجة للحرب الأهلية التي أوقعتها في قبضة الأحزاب البلشفية أو
 الشيوعية .



الحرب العالمية الأولى

أحداث ١٩١٩ كما يراها تشرشل:

يقول تشرشل: في صيف عام ١٩١٩ وقفت الجيوش الحليفة على ضفاف الراين ورؤوس جسورهم امتدت داخل ألمانيا المهزومة، المنزوعة السلاح، والجائعة واجتمع قادة الدول المنتصرة في باريس لبحثوا في أمر المستقبل ويخططوا له، وأمامهم كانت خريطة أوروبا كي يعيدوا رسمها حسبما يرونه ويتفقون عليه، لقد أصبح التكتل التوتوني تحت رحمتهم بعد اثنين وخمسين شهراً من الألم والمخاطر، ولم يكن في إمكان أية دولة من دوله الأربع، أن تعارض مشيئة المنتصرين، وألمانية المعتبرة الرأس المدبر للأذية وواجهتها والسبب الأول للكارثة التي أحاقت بالعالم، أصبحت الآن تحت رحمة المنتصرين الذين كانوا يترنحون من العذاب الذي قاسوه أثناء الحرب، لقد كانت الحرب حرب شعوب لا حكومات، فقد امتزجت جميع طاقات الحياة داخل أنونها المتهب، وفي اجتماع قادة الحرب في باريس، كانت التيارات العنيفة تتجاذبهم من كل صوب، فقد ولت أيام معاهدات أو تراخت وفينا، عندما كان السياسة والدبلوماسيون والأرستقراطيون، سواء أكانوا من الفريق المنتصر أم المهزوم، يجتمعون ليدخلوا في نقاش لطيف مهذب، بعيداً عن هتافات الديمقراطية وصخبها، كي يصلوا بالنتيجة لوضع الأنظمة التي لا خلاف حولها في الأساس، وكانت الشعوب التي تشربت بالتعاليم والدعاوات تطالب بإنزال أقصى العقوبات بالمنهزمين، ثأراً للملايين الضحايا من البشر، والويل للذين يفرطون بمكاسب الجنود ويضيعونها على طاولة المؤتمر.

كان زمام القيادة في يد فرنسا التي أسكتت به بفضل جهودها وخسائرها الفادحة، وبفضل المليون والنصف من الضحايا من الجنود الذين لا قوا حتفهم دفاعاً عن الأرض الفرنسية، فقد شاهدت كنيسة نوتردام، خلال قرن من الزمن، خمس مرات وميض المدافع الألمانية، وسمعت ضجيجها الرهيب خلال أعوام ١٨١٤ و ١٨١٥ و ١٨٧٠ و ١٩١٤ و ١٩١٨، وخلال السنوات الأربع الرهيبة، وقعت تحت نير الاحتلال العسكري الروسي ثلاث عشرة مقاطعة فرنسية، وقد دمر العدو مساحات كبيرة من الأراضي الفرنسية، ولم تخل مزرعة واحدة أو عائلة واحدة من العائلات الفرنسية التي تعيش بين فردان وطولون من مأساة لفقدان عزيز، أوردجوعه مشوهاً من الحرب لقد كان الفرنسيون يعيشون في

رهبة مستديمة من الإمبراطورية الألمانية الجبارة، وكانت ذكرى الحرب الوقائية التي أراد بسمارك شنها عام ١٨٧٥ لا تزال عالقة في أذهانهم بالإضافة إلى التهديد الذي أدى إلى سقوط حكم دكلاسيه عام ١٩٠٥ م، وكانت خطب غليوم، النارية، وتهديداته التي كانت تقابل بالسخرية في إنكلترا وأميركا، كانت تدخل الهلع في قلوب الفرنسيين الذين عاشوا خمسين عامًا تحت ظل الإرهاب الألماني وتهديداته، والآن لقد جنوا ثمرة الدماء والتضحيات، فزال الخطر والظلم، وحل محله السلم والأمن، وكنت تسمع الشعب الفرنسي يردد عبارة واحدة لا غير هي «أبداً، مرة أخرى».

لكن الخوف من المستقبل لا يزال قائماً، فالشعب الفرنسي لا يبلغ بعدده ثلثي الشعب الألماني، الذي يزداد نموه سريعاً، ولن يمضي وقت طويل حتى يتضاعف عدد القادرين على حمل السلاح في ألمانيا، وقد جابهت ألمانيا العالم كله وحاربه متفردة تقريباً، وكادت أن تبلغ النصر، وكان المراقبون يعلمون أن نتيجة الحرب كانت، أكثر من مرة، تميل بفضل بعض الحوادث العرضية وحسن الحظ، نحو الحلفاء.

وعندما عادت الجيوش الألمانية، يوم الهدنة، إلى وطنها قال الجنرال فوش، القائد الأعلى للقوات الحليفة: «لقد حاربوا بشجاعة، لذلك يجب أن تركوهم يحتفظوا بسلاحهم»، وفي نفس الوقت طلب أن تصبح حدود فرنسا على نهر الراين، منذ الآن، وربما ستجرد ألمانيا من السلاح، وقد يتلاشي جهازها العسكري وتجرد قلاعها من سبل الدفاع، وربما سيفرض الفقر على ألمانيا بعد أن تفرض عليها أعباء ضخمة من التعويضات، لكن هذه بأكملها ستبقى ظروفاً طارئة وسترول بعد عشر سنوات أو بعد عشرين سنة، وستطلق من جديد صيحة القبائل الألمانية بمجموعها وترتفع نيران بروسيا المحاربة مرة من أخرى، لكن الراين ذلك النهر الكبير الشديد العمق، سيكون بمثابة الدرع الواقعي الذي تركز وراءه فرنسا وتشعر بالأطمئنان لأجيال قادمة طويلة، لكن آراء العالم الآخر الناطق باللغة الإنكليزية، ومشاعره كانت تختلف عن ذلك، وهذا العالم له قيمته وأهميته الكبرى، فلو لا معاونته لها لما استطاعت النجاة، وهكذا جاءت الاتفاقات في معاهدة فرساي منسجمة مع وضع ألمانيا، إذ تركها بلداً سليماً غير مجزأ، فبقيت ألمانيا أكبر مجموعة عنصرية في قارة أوروبا، وعندما استمع المارشال فوش إلى نص اتفاقية الصلح في فرساي، علق عليها بقوله: «إنها ليست سلاماً، بل هدنة لمدة عشرين سنة».

رأي تشرشل في اتفاقية فرساي: يقول تشرشل :

كانت البنود الاقتصادية في تلك المعاهدة سخيفة إلى حد جعلت منها بنوداً غير صالحة، فقد وجب على ألمانيا أن تدفع مبالغ هائلة كتعويضات، وكان هذا المطلب ليس إلا تعبيراً عما يشعر به المنتصرون من غضب ومن فشل لدى الشعوب في تفهم الحقيقة الواقعة وهي أن ليس في وسع أي شعب أن يقرم بدفع هذه الجزية التي تنفق مع متطلبات الحرب العصرية، وكانت الشعوب غارقة في الجهل لأبسط القواعد الاقتصادية، وكان قادة الشعوب، بدافع من حرصهم على الأصوات الانتخابية، لا يتجرؤون على توضيح هذه الحقيقة، ولكن بعض الأصوات الضعيفة ارتفعت لتوضح أن دفع تلك التعويضات لن يتم إلا عن طريق الخدمات أو عن طريق شحن البضائع بواسطة القطارات أو البواخر، وعند وصول تلك البضائع إلى البلاد التي فرضتها فستطغى على الصناعة المحلية، وكانت الطريقة الوحيدة لسلب شعب مهزوم، هي في نقل كل ما هو قابل للحركة، ثم في سوق قسم كبير من رجاله إلى العبودية الدائمة أو المؤقتة، لكن الأرباح الناجمة عن عمليات كهذه لا تتناسب مع نفقات الحرب، ولم يكن في وسع أي زعيم أن يجرؤ على الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة للجماهير الناجبة، لذلك استمر الحلفاء بتجريحهم بأنهم سيستمررون في عصر ألمانيا حتى «يسمع صرير أنابيبها» وبالتالي تختنق، وكان لهذا أثر كبير في ازدهار العالم، وفي أوضاع العنصر الألماني.

لكن هذه البنود من المعاهدة لم تنفذ، فقد حصل العكس تمامًا، فبعد أن صادر الحلفاء موجودات ألمانيا بمبلغ ألف مليون جنيه، قاموا هم أنفسهم فيما بعد وعلى رأسهم بريطانيا وأميركا بإعطاء ألمانيا قرضاً بمبلغ ألف وخمسمائة مليون جنيه، وذلك لترميم ما دمرته الحرب في بلادها وبأسرع وقت ممكن، كل هذا ولم يزل ساسة الشعوب المنتصرة يذكرون أن ألمانيا ستدفع لآخر بنس كل التعويضات رغماً عنها.

إن التاريخ سيصف هذه العمليات بالجنون، لقد ساعدوا على تنمية اللعنة العسكرية و«الزوبعة الاقتصادية»، وبدأت ألمانيا بالاستدانة من جميع الجهات وتبتلع بسهولة جميع

المساعدات الممنوحة إليها بسخاء ، إن هذه هي قصة مخزنة من الغباء المعقد الذي استترف فيها الكثير من الجهد والفضائل .



تشرشل يغازل الفرنسيين:

يقول تشرشل :

لقد استنزفت الحرب دماء فرنسا ، وانتصر الشعب الفرنسي بعد أن ظل منذ عام ١٨٧٠م يحلم بالنار ، لكن هذا الانتصار كلفه غاليتاً ، ولكن الخوف من ألمانيا ظل يعكر صفو احتفالات الشعب الفرنسي بالنصر ، ولا شك كان هذا الخوف المتأصل هو الذي دفع المارشال فوش إلى المطالبة بجعل نهر الراين حداً فاصلاً لفرنسا ، وذلك كي يضمن سلامة فرنسا من جارتها القوية ، لكن الساسة البريطانيين والأمريكيين أصروا على تمسكهم بالنقاط الأربع عشرة ، التي تتعارض مع مطالبة فرنسا بضم جزء من الأراضي الألمانية إلى ممتلكاتها ، بالإضافة إلى أن هذه المطالبة تتعارض مع مبادئ القومية وحق تقرير المصير التي قامت معاهدة الصلح هذه على أسسها ، وقد تمكن هؤلاء من كسب كليمنصو إلى صفوفهم حين تمكنوا من إقناعه بأنهم سيقومون بضمان حدود فرنسا ، وإقامة منطقة غير عسكرية ثم تجريد ألمانيا من السلاح بصورة كلية ودائمة ، وسرعان ما وافق كليمنصو على هذه الضمانات بالرغم من معارضة المارشال فوش لها ، ولم يلبث أن وقع ريلسون ولويد جورج وكليمنصو على معاهدة الضمان تلك ، إلا أن مجلس الشيوخ الأمريكي رفض أن يصدق على توقيع الرئيس ويلسون ، وقد قبل لنا نحن بأنه يترتب علينا أن نكون على علم ومعرفة بنصوص الدستور الأمريكي ، نحن الذين كنا نرضخ لآراء الرئيس ويلسون ورغباته بما يتعلق بقضايا السلام .

لكن الشعب الفرنسي أسقط الرجل الصلب كليمنصو ، في إحدى نزواته الخائفة الغضبية ، وكما قال بلوتارك : « إن الجمود نحو الرجال العظام ، هو من ميزات الشعوب القوية » ، وكانت ضرباً من الحماقة أن تلجأ فرنسا إلى هذا الأسلوب ، سيما في الوقت الذي أصبحت فيه شديدة الضعف ، وجاء بوانكاريه إلى سدة الحكم ، الرجل ذو الشخصية القوية

خليقاً لكليمنصو ، فحاول أن يجعل من المنطقة المحيطة بالراين ، أرضاً مستقلة تحت حماية فرنسا وإشرافها ، إلا أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح ، وكانت محاولته في غزو منطقة الروهر كمحاولة لفرض التعويضات على ألمانيا ، لكن هذا الغزو أثار النقمة لدى الرأي العام البريطاني والأميركي ، بالرغم من اتفاقه مع نصوص معاهدة فرساي ، وكانت النتيجة أن تدهورت أوضاع ألمانيا الاقتصادية والمالية ، وأدى ذلك إلى تدهور المارك الألماني بسبب التعويضات الباهظة التي دفعتها خلال عامي ١٩١٩م و ١٩٣٧م ، كما أن موجة الغضب والكراهية التي اجتاحت ألمانيا ، نتيجة لغزو منطقة الروهر ، دفعت بالمسؤولين إلى طبع كميات هائلة من الأوراق النقدية ، بقصد القضاء على النظام الاقتصادي برمته ، وأصبح الجنيه الإسترليني يعادل ثلاثة وأربعين مليون مليون مارك ألماني ، وقد أدى هذا التضخم الفظيع إلى تلاشي المبالغ التي وفرتها الطبقات الوسطى ومالت بطبيعتها نحو الحركة الاشتراكية الوطنية ، وتشوه النظام الصناعي الألماني بأكمله نتيجة لنمو الاحتكارات ، واختفى الرأسمال العامل من البلاد ، وبالتالي ألغيت القروض الداخلية والديون الصناعية القائمة على الرهونات والفوائد ، لكن هذه لم تعوض عن خسارة رأس المال العامل ، وأسفرت النتيجة عن قروض خارجية تعط لأمة مفلسة ، وهي الصورة التي تبلور عنها الموقف في السنوات التالية .

أما بالنسبة لبريطانيا فقد تحول موقفها تجاه ألمانيا ، تحول من العنف إلى العطف ، ونشبت الخلافات بين لويد جورج وبوانكاريه واتسعت حدة الشقاق بين الشيعين قلباً وقالباً ، ووجد العطف الإنكليزي على ألمانيا ، أو الإعجاب بها ، صدى حسناً قوياً .

وما إن ظهرت عصبة الأمم إلى الوجود حتى تلقت ضربة قوية ، إذ تخلت عنها الولايات المتحدة ، وأصيب الرئيس ويلسون بالشلل ، بعد أن كان مستعداً للكفاح من أجل مثله العليا وعقائده ، وأصبح بعد ذلك كتلة من الحطام وأصبحت سياسته وسياسة حزبه بهزيمة ساحقة في معركة الرئاسة ، وفاز الديمقراطيون في عام ١٩٢٠ ، وفي عشية فوز الديمقراطيين ، سيطرت المفاهيم الانعزالية على الناحية الأخرى من المحيط الأطلسي ، وكان على أوروبا أن تنجي مازرعته وتدفع ثمن ديونها ، وفي نفس الوقت ازدادت التعريفة

الجمركية وذلك للحيلولة دون دخول البضائع التي يمكن لوارداتها أن تسدد بعض الديون، وراحت بعد ذلك الحكومتان البريطانية والأمريكية تحطم وتغرق بواخرها ومنشآتها العسكرية، وذلك لأنه من غير اللائق أن يتزع السلاح من يد المغلوب ويبقى في يد الغالب، كما اعترضت أميركا لدى بريطانيا عن أن الاستمرار في علاقاتها الودية مع اليابان سيشكل بعض الخطر على مجرى العلاقات البريطانية، الأمريكية، مع أن اليابان كانت تحترم هذه العلاقات وتحفظ عليها بكل صدق، وبناء لهذا التحذير، اضطرت بريطانيا إلى قطع تلك العلاقات مع اليابان مما أدى إلى استياء الحكومة اليابانية، واعتبرت أن هذا التصرف يعتبر امتهانا من بلد آسيوي أوروبي نحو شعب آسيوي صديق.

لقد كن باستطاعة اليابان أن تعتبر نفسها ثالث دولة بحرية بعد هزيمة ألمانيا وروسيا فتتمتع بمركز مرموق، ورغما عن أن الاتفاق البحري يقضي بأن يخصص لليابان نسبة خمسة إلى ثلاثة من السفن المخصصة إلى الدولتين الكبيرتين، إلا أن هذه النسبة كانت مناسبة لإمكانات اليابان المالية للسنوات التالية، وبالتالي راحت تراقب الانخفاض الكبير في الإنتاج الأمريكي والبريطاني بالنسبة لإمكاناتهما المالية ومسؤولياتهما الجسيمة، وبذلك يكون الحلفاء قد مهدوا لتجدد الحرب في أوروبا وآسيا، وباعتقادهم أن هذا قد يؤدي إلى السلام الدائم.

وفي أوروبا أخذ الخلاف الجديد الأكثر فظاعة يبرز إلى حيز الوجود، هذا الخلاف الرهيب الذي خلفته الحرب الأهلية الروسية وانتصار الثورة البلشفية الساحق، فبالرغم من أن الجيوش السوفييتية المتقدمة نحو بولندا، قد صدت في معركة وارسو، إلا أن ألمانيا وإيطاليا قد بدأتا تدعنان للدعوي الشيوعية ومشاريعها، كذلك هنغاريا التي سقطت في قبضة الدكتاتور الشيوعي بيبلاكون، وبالرغم من أن المارشال فوش لاحظ بحكمة بأن «البلشفية لم تتخط حدود النصر»، إلا أن أسس الحضارة الأوروبية اهتزت في السنوات الأولى بعد الحرب، فالقاشية كانت ظل الشيوعية أو وليدها البشع، وبينما كان العريف هتلر يحاول تقديم خدماته على الضباط الألمان في ميونيخ، ويحرض الجنود والعمال ويغذي في صدورهم الحقد على الشيوعية واليهود الذين ألقى بمسؤولية الهزيمة عليهم، كان هناك

مغامر آخر ، بينيتو موسوليني الذي قدم لإيطاليا نموذجاً جديداً من الحكومة التي صرحت بأنها ستقذ الشعب الإيطالي من الشيوعية ، ورفع نفسه إلى قمة الدكتاتورية ، وكما اتبقت الفاشية عن الشيوعية ، كذلك النازية تطورت من الفاشية ، وهكذا تمكنت هذه الحركات من الوقوف على قدميها وتمكنت بعد ذلك من جر العالم إلى صراع عنيف لا يمكن للمرء أن يقول أنه انتهى بانتهائها ...



(تشرشل يحكي المأساة):

يقول تشرشل :

في هذه الصفحات ، سأحاول أن أقص قصة أسوأ مأساة تعرض لها الجنس البشري في تاريخه المضطرب ، إن المأساة المخيفة لم تقتصر على الضحايا وعلى الدمار الذي لا بد منه في الحروب ، ففي الحرب العالمية الأولى وقعت مجازر رهية ، كما فقدت كنوز كثيرة من الثروات التي جمعتها الشعوب ... وإذا ما استثنينا الأعمال العنيفة التي حصلت أثناء الثورة الروسية ، فإن الحضارة الأوروبية ، بقيت ولم تزل حال انتهاء الحرب العالمية ، كما أن الشعوب المتحاربة عادت لتعترف ببعضها البعض ، وبقي الجميع يحترمون القوانين والأعراف الحربية ، كما أن معاهدة الصلح كانت منسجمة مع المبادئ المتبعة في القرن التاسع عشر بين الشعوب المتحضرة ، كذلك يمكن القول أن الجهاز الدولي الذي أنشئ لحمايتنا كلنا ، وخاصة حماية أوروبا نفسها ضد أخطار جديدة .

إلا أن الحرب العالمية الثانية ، لم تكن كذلك ، لقد زالت الروابط التي كانت تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان ، لقد قام الألمان ، تحت الحكم الهتلري باقتراح جرائم متكررة وحشية لا مثيل لها ، ولا شك أن المجازر التي أودت بحياة ستة أو سبعة ملايين رجل وامرأة وطفل في معسكرات الاعتقال الألمانية قد تغطي على جرائم جنكيز خان الهائلة ، وتفوقها وحشية ، وقد رسمت المخططات أثناء الحرب في الجبهة الشرقية لإفناء شعوب بأسرها على أيدي الجنود الألمان والروس ، أما من ناحية الحلفاء أنفسهم فقد قاموا بغارات وحشية تفوق الغارات الألمانية عشرين مرة ، بل كانت تزداد حدة يوماً بعد يوم ، إلى أن بلغت ذروتها في إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكي وإزالتها من الوجود .

والآن بعد أن خرجنا من جو الخراب المادي والمعنوي ، نجد أننا لا نزال نواجه نفس المشاكل والأخطار التي تخلصنا منها بأعجوبة ، هذا إذا لم تقل أنها أشد وأدهى .

سأحاول أن أكشف للقارئ كيف كان بإمكاننا تجنب وقوع حرب عالمية ثانية ، نظراً لكوني عشت هذه الأيام وعملت فيها ، سأحاول أن أبين كيف أن ضعف الفضلاء قد أدى بالنتيجة إلى تقوية الأشرار ، كما سأبين أن أجهزة الدول الديمقراطيةية تفتقر إلى مقومات الإيمان ما لم تندمج مع أجهزة أقوى وأكبر منها ، إن مقومات الإيمان والثبات هي التي تتمكن من إحلال الأمن والسلام والطمأنينة في نفوس الجماهير ، كما أفي سأبين كيف ألا يمكن لأي سياسة أن تستمر لعشر أو خمس عشرة سنة في آن واحد ، وذلك في قضية الدفاع عن النفس والمحافظة عليها ، وسنرى كيف أن اتباع سياسة التردد قد تصبح عاملاً أساسياً للخطر ، وكيف أن الحل المحقول الذي ينبع من الرغبة في السلامة والحياة الهادئة قد يؤدي بنتيجته إلى مواجهة الكارثة ، كما أننا سنرى أنه من الضرورة القيام بعمل دولي مشترك بين دول يرجع تأكفها إلى سنين سابقة ، دون الالتفات إلى التيارات المتهاوجة في السياسة القومية .

لقد كانت سياسة إبقاء ألمانيا مجردة من السلاح ، سهلة الحفاظ عليها ، وإبقاء المنتصرين بسلاحهم الكامل لمدة ثلاثين سنة على الأقل ، وبنفس الوقت بذل المحاولات لجعل مسألة التفاهم مع ألمانيا حقيقة واقعة ، وإنشاء عصبة للأمم قوية قادرة على الحفاظ على المعاهدات وتطبيقها ، ولا تغير أو تبدل دون اللجوء إلى المفاوضات والاتفاقات ، وعندما تعاون ثلاث أو أربع دول قوية ، وتطلب من شعوبها تقديم أقصى ما يمكنها من تضحيات ، وتقوم هذه الشعوب بتضحياتها في سبيل الهدف المشترك ، عند ذلك تصبح النتائج المطلوبة معقولة جداً ، إلا أن قوة المنتصرين وعلمهم وثقافتهم كانت عاجزة عن الوصول إلى هذه النتيجة المتواضعة ، فقد ظلوا يعيشون ليومهم دون التفكير بالغد ، وعندما دقت طبول الحرب العالمية الثانية ، كان من الواجب أن نكتب عن أبناء الذين حاربوا وقتلوا بكل إخلاص :

كفّاً إلى كف ، وجنباً إلى جنب .

اجتازوا نور الحياة المشرقة .



الفصل الثاني

ظهور هتلر

ورؤية تشرشل لشخصية هتلر



يقول تشرشل :

في شهر تشرين الأول عام ١٩١٨ كان العريف الألماني أدولف هتلر طريح الفراش في إحدى المستشفيات بعد أن أصيب بالعمى للوقت من قنبلة الغاز ، في إحدى المعارك التي شنتها القوات البريطانية بالقرب من كوفر ، وهنا كان طريح الفراش في المستشفى حلت الهزيمة بألمانيا وعمت الثورة البلاد .

كان هذا العريف ابناً لموظف من موظفي الجمر كنمساوي الأصل ، وكانت الأحلام تراوده بأن يصبح فناناً عظيماً ، لكنه بعد أن فشل في الالتحاق بأكاديمية الفنون في فيينا ، اضطر إلى البقاء في العاصمة فقيراً سعي الحال ، وما لبث أن غادرها إلى ميونيخ وعمل هناك كدهان ، وكعامل مؤقت ، وعاش حياة شقية يغذيها الحقد على العالم كله ، والقمّة عليه لأنه حرّمه من نعمة النجاح ، إلا أن الشقاء والفقر لم يدفعاه إلى أحضان الشيوعية ، بل ظل يقدس الولاء العنصري الذي كان يملكه بالإضافة إلى إعجابه الشديد بألمانيا وبالشعب الألماني ، وقد التحق بالجيش الألماني عند نشوب الحرب العالمية الأولى ، وبقي لمدة أربع سنوات في الجبهة الغربية ملتحقاً مع أحد الأفواج البافارية .

وعندما كان في مستشفى في شتاء عام ١٩١٨ ، بدا له فشله السابق وكأنه اختلط مع الكارثة التي حلت بالشعب الألماني كله ، فسادته نزعة عارمة من الحزن على نفسه وعلى شعبه ، خاصة بعد أن حلت الثورة وعمت الفوضى جميع البلاد .

لم يتمكن أدولف هتلر من فهم أو من تفسير الأسباب التي أدت إلى هزيمة ألمانيا ، إلا أنه كان متيقناً من ضرور الخيانة الشديدة التي طعنت الجيش الألماني من الخلف ، وراح يفكر في تلك الأسباب العديدة التي أدت إلى الهزيمة من خلال تجاربه الشخصية ، فهو قد احتلط بفتات عديدة متطرفة في فيينا واستمع إلى قصص الغدر والخيانة الذي قام به عرق غريب آخر هو عدو للدود للشعب الألماني العريق ، ألا وهم اليهود ، وهكذا تطورت نغمته الأولى المنصبة على الأغنياء والناجحين وتحولت إلى كراهية عارمة .

وعندما خرج من المستشفى ، رأى بعينه التي أبصرت النور من جديد نتائج ما خلفته الهزيمة وما يدور في المدينة من ملامح ثورة حمراء مرعبة ، وشاهد السيارات تطوف بالمدينة ،

تلقي بالمنشورات وتطلق العيارات النارية على المتشردين من أبناء العشب، ورأى زملاءه في الجيش يضعون الأشرطة الحمراء على أذرعهم، فوق بزاتهم العسكرية، ويهتفون بغضب شعارات غريبة تتنافى مع كل ما يعتقده ويؤمن به، وهكذا صدمته الحقيقة المرة، ورأى أن ألمانيا قد أصبحت بطعنة غادرة من الخلف، كان أبطالها من اليهود الذين أمعنوا تقطيعاً بها ليرغموها على الاستسلام بدساتهم ومؤامراتهم ويؤيدهم في ذلك حلفاء لهم من البلاشفة ليتمموا تنفيذ مخططات ومؤامرات دولية يقوم بها المتفقون اليهود، وشعر بالواجب يحتم عليه بأن يخلص ألمانيا من هذا المرض الجثث، والأخذ بالثأر من الذين أخفوا بها الإساءات العديدة، ثم التهوض بالشعب المتفوق إلى مستقبل أفضل.

وانطلق أدولف هتلر يصعد بخطا سريعة نحو القيادة والزعامة، بناصره في ذلك ضباط فوجه، وفي مساء أحد الأيام من شهر أيلول عام ١٩١٩ م، ذهب لحضور إحدى اجتماعات حزب العمال الألمان في أحد المصانع. وسمع لأول مرة في حياته أناساً يتحدثون بما كان هو يؤمن به من خيانات اليهود ومجرمي شهر تشرين الآخر، الذين دفعوا بألمانيا إلى الهزيمة، فانضم إلى هذا الحزب وخلال فترة بسيطة أصبح أدولف هتلر زعيم الحزب الأول، وغدا يحمل لقب الزعيم أو «الفوهرر» وأصدر جريدة تنطق باسم حزبه هي جريدة «الفولكشاير ميونختر».

إلا أن الشيوعيين لم يبقوا مكتوفي الأيدي، فحاولوا تحطيم حزبه وتفريق اجتماعاته الناجحة، واضطر هتلر إلى إنشاء حرس خاص لصعد الهجمات الشيوعية، ونشأت بذلك الوحدات الأولى لقوات العاصفة، وكان نشاطه محصوراً في تلك اللحظة على بافاريا فقط، وكان الجميع في كافة أنحاء الرايخ الألماني كانوا يستمعون بشغف لتعاليم هذا الإنجيل الجديد، فقد كانت النعمة على الأوضاع الحالية تعم ألمانيا كلها، وأدت موجة الغضب التي عصفت بالشعب كله من احتلال فرنسا للروهر عام ١٩٢٣ إلى انضمام الألوف من أبناء الشعب إلى الحزب الجديد الذي أصبح الآن «الحزب الاشتراكي الوطني».

ومنذ البداية وضع هتلر، أن السبيل الوحيد للوصول إلى الحكم هو في الثورة والعنف ضد حكم وبار وجمهوريته التي خلقت في عار الهزيمة، وانضم إلى دعوة الفوهرر فئة ضمت بين صفوفها، غورنغ وهيس وروزنبرغ وروهم، الذين من ثم اتفقوا على وجوب

استلام السلطة في بافاريا، وانضم إليهم الجنرال فون لوندورف الذي كان رئيس أركان الجيش الألماني أثناء الحرب الأولى، وسار على رأس قوة مجهزة لاحتلال بافاريا، إلا أن رجال الأمن من شدة احترامهم للجنرال لم يطلقوا عليه النار، بل اكتفوا بالتصويب على المتظاهرين، وتمكنوا من اعتقال فئة كبيرة منهم ومن بينهم هتلر نفسه الذي حوكم وحكم عليه بالسجن لمدة أربع سنوات، خفضت إلى ثلاثة عشر شهراً، وفي سجنه هذا تمكن من تأليف القسم الأكبر من كتابه «كفاحي» الذي أصبح فيما بعد من أهم الكتب التي أقبل على قراءتها قادة الدول الحليفة وزعماءها العسكريون.

وفي عام ١٩٢٤ خرج هتلر من السجن وصرح أنه لن يتمكن من إعادة تنظيم حزبه قبل خمس سنوات، وفي عام ١٩٢٨ لم يكن لحزبه في البرلمان الألماني «الرايشتاغ» سوى اثني عشر مقعداً، ومن ثم ابتدأ الرقم بالارتفاع إلى أن أصبح البرلمان في عام ١٩٣٢ يضم ٢٣٠ عضواً من الحزب، كما أصبحت الدولة الألمانية كلها خاضعة لفوز الحزب الاشتراكي الألماني، وبدأت حركة الاضطهاد بمختلف أنواعها وانصبت النعمة كلها على رؤوس اليهود انتقاماً لما اقترفه في السابق من جرائم وخيانات ودسائس.

وما إن أطل عام ١٩٣٣ حتى وصل هتلر إلى سيدة الحكم، أولاً كمستشار لألمانيا، وكانت أولى أعماله أن أصدر أمراً يمنع فيه الحزب الشيوعي من العمل في البلاد، وبدأت حملة قوية عمّت البلاد كلها لمصادرة الأسلحة من أيدي الشيوعيين، ونشبت الاضطرابات وبلغت ذروتها حين هب حريق في دار الرايشتاغ، فاستدعيت فرق رجال القمصان السوداء للعمل وللمحافظة على الأمن، وفي نفس الليلة تم اعتقال أربعة آلاف زعيم شيوعي ومن بينهم أعضاء اللجنة المركزية التابعة للحزب للشيوعي، وكان غورنغ الأمر لهذه الإجراءات كلها بعد أن أصبح وزيراً للداخلية، وبذلك يكون قد أمن هزيمة الشيوعيين خصوم الحزب الاشتراكي الأشداء لكي تكون مقدمة للفوز بالانتخابات الجديدة المقبلة.

وفي الانتخابات فاز النازيون بـ ٢٨٨ مقعداً في البرلمان واقترع إلى جانبهم ١٧,٣٠٠,٠٠٠ ناخب، وبذلك تمكن هتلر من السيطرة نهائياً، وفي الحادي والعشرين من شهر آذار عام ١٩٣٣ افتتح هتلر أول مجلس للرايشتاغ في الرايخ الثالث، وجلس حوله كبار القادة، وضباط جيش العاصفة والحرس النازي الخاص الذين يمثلون ألمانيا الجديدة،

وفي الرابع والعشرين من الشهر ذاته وافق الرايشتاغ على منح هتلر سلطات استثنائية لمدة أربع سنوات .



هتلر يتحدى:

يقول تشرشل :

بينما كان هذا التغيير المخيف يجري في ألمانيا ، كانت حكومتنا مضطرة إلى التخفيض والتقنين انسجاما مع الأوضاع والأزمات المالية الراهنة التي حدثت من تسليحنا ، وبقيت حكومة مكدونالد بالدوين مصمة أذنانها عن سماع أو رؤية الأخطار المحدقة بنا نتيجة التغيرات في أوروبا ، ثم حاولت الحكومة أن تطبق قوانين معاهدة فرساي القاضية بنزع السلاح من المتصرين ، فقدمت عدة مشاريع ومقترحات إلى عصبة الأمم لتضمن تطبيق هذه القوانين ، كما أصرت فرنسا على وجوب بقاء جيشها الذي تعتبره محور حيائها ووجودها ، وقد شجعت هذه المحاولات ، الحكومة الألمانية ، وادعت أن هذا السلوك إنما هو نابع من صميم المجتمع البرلماني الديمقراطي الضعيف والمنحط بطبيعته ، وراح الألمان بدافع من هتلر الذي أوحى إليهم بهذه الأفكار ، يبدون أكثر عجرفة وكبرا ، وما كان من أعضاء الوفد الألماني الذين حضروا مؤتمر نزع السلاح ، إلا أن انسحبوا من الاجتماع في تموز عام ١٩٣٣ ، وحاول الحلفاء مرضاة الألمان بشتى الوسائل إلى أن توصلوا إلى إقرار مشروع اقتراح دعي مشروع هريو ، وهو يقضي بإعادة تنظيم جميع القوات العسكرية الدفاعية في أوروبا ، وجعلها جيوشا محدودة العدد ، وفرض المشروع على وجوب تخفيض عدد الجيش الفرنسي من خمسمائة ألف إلى مائتي ألف جندي ، بينما يرتفع عدد الجيش الألماني إلى هذا الرقم ، إلا أن الجيش الألماني قد أصبح عدده يتجاوز المليون متطوع مجهز بأحدث الأسلحة التي تنتجها المصانع الألمانية التي تم تحويلها إلى مصانع للسلاح ، وكانت النتيجة غير المتوقعة هي في الأوامر الصادرة عن هتلر والقاضية بالانسحاب من كل مؤتمر ومن عصبة الأمم .

لقد كان في وسع عصبة الأمم أن ترد على تحديات هتلر ، وتهديداته العسكرية ، وذلك بفرض العقوبات عن طريق القانون الدولي ، كما أن الحكومة الأميركية لم تكن تكثرث لهذه التهديدات إلى أن حان الوقت بعد عدة سنوات ، فوجدوا أنفسهم عند ذلك مضطرين للتضحية بأرواحهم لينقذوا أنفسهم من الخطر المميت .

تشرشل يحكي عن نفسه: يقول تشرشل :

وفي مطلع عام ١٩٣١ سافرت برحلة إلى الولايات المتحدة الأميركية لإلقاء سلسلة محاضرات هناك ، وفي نيويورك تعرضت لحادث سيارة كاد أن يودي بحياتي ، فقد نزلت من سيارتي من الجانب المعاكس وعبرت الشارع الخامس ، وكانت أنظمة السير المطبقة في أميركا وخاصة فيما يتعلق بالسير المعاكس والأضواء الحمراء التي لم يكن معمولاً بها في بريطانيا في ذلك الحين ، وفجأة وقع اصطدام عنيف كانت نتيجته أن لازمت الفراش في المستشفى لمدة شهرين وأنا محطم شر تحطيم ، ومر هذا العام وأنا بصحة سيئة للغاية ، إلى أن بدأت أستعيد صحتي تدريجياً بعد ذلك .

لقد كانت السنوات ما بين عام ١٩٣١ و ١٩٣٥ من أمتع سنوات عمري ، فقد انصرفت إلى التأليف وإلى إلقاء المحاضرات ، وقد كسبت الكثير من عائدات مقالاتي وكتبي التي لاقت رواجاً كبيراً في بريطانيا العظمى وفي الولايات المتحدة الأميركية ، كذلك في القارة الأوروبية كلها.

وفي عام ١٩٣٢ اضطررت للسفر إلى ميونيخ وذلك لمتابعة تأليف أحد كتبي عن تاريخ مارلبورو ، وقد أمضيت في ميونيخ حوالي الأسبوع ، ونزلت في فندق ريجينا ، وهناك تعرفت إلى شخص يدعي الهر هانغستانغل الذي كان من المتحمسين لهتلر والذي كان على علاقات طيبة معه ، وقد دعوته في أحد الأيام لتناول العشاء معنا بعد أن أعجبتني لباقتة ، وأثناء العشاء حدثنا كثيراً عن هتلر وعن نشاطاته وآرائه ، وكنت أشعر وأنا أصغى إليه ، أن الرجل كان واقفاً تحت سحر هتلر دون ريب ، وقد علمت أن الأمر قد صدرت إليه بالاعتناء بي ، وبدا أنه يرغب في إدخال السرور والبهجة إلى نفسي ، لقد كان الرجل لطيفاً إلى أبعد الحدود ، ومن المقرين إلى الفوهرر ، وقد دعاني إلى الاجتماع به وتطوع إلى أعداد الموعد معه ، إذ إن الفوهرر يتردد كل يوم إلى الفندق في الساعة الخامسة مساءً ، وسيبره الاجتماع بي شخصياً .

في ذلك الحين لم أكن أي عداء لهتلر بالذات ، ولم أكن أعلم الكثير عن عقيدته وفلسفته وشخصيته ، بل كنت معجباً به ؛ لأنه تمكن من النهوض ببلاذه بعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بها ، وفي أثناء حديثي مع الهر هانغستانغل تطرقت إلى الحديث عن اليهود بشكل

لاحظت أنه لم يكن راضياً عنه ، وفي اليوم التالي عندما اجتمعت به للمرة الثانية قال لي أن الفوهرر لن يتمكن من الاجتماع بي ، فهو لن يأتي إلى الفندق في هذا اليوم ، وكانت هذه آخر مرة رأيت فيها «بوتزي» وهو اسمه الصغير ، بالرغم من أنني أمضيت عدة أيام أخرى في الفندق ، وهكذا أضاع هتلر فرصته الوحيدة في مقابلتي ، وفيما بعد تلقيت عدة دعوات من الفوهرر ، بعد أن أصبح في ذروة القمة ، لكنني كنت أعترض عن قبولها ؛ لأن أشياء عديدة حدثت أثناء ذلك .

ماذا حدث في الشرق الأقصى ؟ يجيب تشرشل قائلاً :

في الشرق الأقصى ، فكان الاستعداد للحرب ينبع من اليابان بصورة خاصة ، فقد أثرت الأزمة الاقتصادية عليها بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣١ بشكل كبير ، فقد ارتفع عدد سكانها من خمسين مليوناً إلى سبعين مليوناً وازدادت أعداد مصانعها من خمسين إلى مئة وثمانية وأربعين مصنعاً ، كما ارتفعت نسبة المعيشة ، وبقي إنتاج الأرز على ما هو فيما كان استيراده من الخارج باهظ التكاليف ، واشتدت الحاجة إلى المواد الأولية وإلى الأسواق الخارجية فاضطرت بريطانيا وأربعون دولة أخرى إلى زيادة التعريف الجمركية العالمية على البضائع المستوردة من اليابان ، لمواجهة الكارثة الاقتصادية ، وخوفاً من طغيان تلك البضائع على البضاعة الوطنية ، فتحولت أنظار اليابان إلى الصين السوق الرئيسي لتصريف منتجاتها من القطن ، بالإضافة إلى كونها المورد الوحيد لاحتياجاتها الهائلة إلى الفحم والحديد ، لذلك أصبحت السياسة اليابانية تقضي بفرض السيطرة على الصين ووضعها تحت (أشرافها) وسيطرتها واختلقت اليابان عنراً تافهاً وانقضت على منشوريا واحتلت منطقة سكة الحديد ، ثم طالبت بحل المنظمات الصينية المعادية لليابان ، إلا أن الحكومة الصينية رفضت هذا الطلب ، فأنزلت اليابان قواتها عند ذلك إلى المنطقة الشمالية من شنغهاي ، وقد قاوم الصينيون ببسالة لمدة شهر واحد ، إلا أنهم اضطروا بعد ذلك إلى الانسحاب ، وتقدمت القوات اليابانية متوغلة في داخل الصين إلى أن بلغت سورها العظيم ، ومن ذلك الوقت بدأت الاستعدادات اليابانية تزداد وتقوى ، خاصة قواتها البحرية .



الفصل الثالث

المنظر القائم
وفكرة احتلال النمسا



يقول تشرشل :

لقد كانت فكرة احتلال النمسا تراود تخيلة هتلر منذ البداية ، فقد كتب في كتابه كفاحي العبارة التالية وفي الصفحة الأولى منه فيجب على النمسا الألمانية أن تعود إلى الوطن الأم الكبير ، لذلك فقد كانت النظرات الأولى تنجس نحو فيينا منذ تسلم الحكومة النازية السلطة في عام ١٩٣٣ ... إلا أن هتلر كان يخشى الاصطدام مع موسوليني الذي كان يطمح ويطالب بمصالحه في النمسا ، خاصة وأن الدوتشي لم يكن منحسًا لوصول هتلر إلى سدة الحكم ، لذلك فقد تحتم على ألمانيا أن تكون على حذر شديد في أعمالها ونشاطاتها السرية ، وبالرغم من ذلك فقد بدأ ، الضغط على النمسا يظهر منذ الشهور الأولى ، وراح الحزب النازي يطالب الحكومة النمساوية بشدة بوجوب إدخال أعضاء من الحزب النمساوي النازي في الوزارة وفي المراكز الحساسة في الدولة ، وبدأ النمساويون النازيون يتلقون التدريبات العسكرية في معسكرات أعدت خصيصًا لهم في بافاريا ، وراحت الطائرات الألمانية تلقي المنشورات على سالزبورج وأينزبروك ، والتي كانت تنغص عيش الجمهورية الواحدة .

وفي عام ١٩٣٤ وصل كبير مستشاري موسوليني في الشؤون الخارجية إلى فيينا ، وكانت زيارته بمثابة تحذير للحكومة الألمانية ، وما لبث أن صرح أن إيطاليا تؤيد استقلال النمسا وتحافظ عليه ، ولم تمض أسابيع ثلاثة على هذه الزيارة ، حتى قامت الحكومة للنمساوية بسلسلة من الإجراءات ضد الأحزاب الاشتراكية في فيينا ، وقامت بعد ذلك بحملة عنيفة لنزع السلاح من أيدي المنظمات شبه العسكرية التابعة للاشتراكيين النمساويين ، وأسفرت هذه الحملة عن اصطدامات عنيفة بين الأحزاب والقوات الحكومية ، وأدت إلى انهزام الاشتراكيين ، كما أدت إلى تقوية مركز إيطاليا مستقبلاً في صد تسلل النازيين وتأميرهم ، إلا أن عددًا كبيرًا من الاشتراكيين والشيوعيين انضموا إلى المعسكر النازي ، كتعبير عن سخطهم الشديد ، وأدى ذلك بمجموعة إلى تقوية النازيين والنازية .

وفي شهر حزيران من العام نفسه ، طار موسوليني إلى البندقية لمقابلة القوهرر لأول مرة في حياته ، وعندما نزل هتلر من طائرته فوجئ بمظاهرة عسكرية يرأسها الدوتشي بنفسه وهو يتألق بيزة عسكرية أنيقة ، وكانت أول كلمة قالها موسوليني لمرافقه حين رأى هتلر : « لم

أحب شكل هذا الرجل » ، وقد جرى الاتفاق في هذه المقابلة على تخفيف حدة الضغط على حكومة النمسا، وقد أكد له هتلر ذلك بوعود قاطعة .

ولم تكن هذه التأكيدات أو هذا التوقف ، بسبب من مداخلات موسوليني ، بل بسبب انشغال هتلر بمشاغل داخلية محضه ...



هتلر وموسوليني

هتلر يضحى بقيادة جيش الصاعقة:

يقول تشرشل :

نشبت الخلافات بين هتلر وبين الذين حملوه إلى سدة الحكم . وكان جيش الصاعقة يمثل الفئة الثورية في الحزب ، تحت قيادة روهم . وفي ربيع عام ١٩٣٤ بلغ عدد أفراد هذا الجيش ثلاثة ملايين مجند من ذوي القمصان البنية . وشعر هتلر بالقلق نتيجة لهذا النمو الهائل ، بالرغم من يقينه بولاء جميع أفراد هذا الجيش ، وعطفهم بشخصه ، وكان يردد أمام قادة جيشه هذا ، بأنه سوف يقوم ويقمع أية محاولة لتغيير نظام الحكم القائم بمتهى الشدة والبطش ، وإن كل من يجرؤ على رفع رأسه ضد الدولة فسيحطمه بكل شدة وقسوة . وكانت هواجس هتلر ومخاوفه صحيحة ، إذ أن روهم قائد جيش الصاعقة ، بدأ محاولة للإطاحة بحكم هتلر ، وفي كانون الأول من العام نفسه ، عندما أعلنت الوحدة بين الحزب والدولة ، غداً روهم عضواً في مجلس الوزراء وبحث في أمر دمج ذوي القمصان البنية مع بقية أفراد الجيش النظامي . إلا أن روهم خاف من هذه التضحية بجيشه الذي مضى السنين الطويلة في إنشائه ، ومن ذلك الوقت بدأ الخلاف يظهر مجدداً بين روهم ورئيس الأركان الجنرال فون بلومبرغ ، الذي كان ييدي تذريره الشديد أمام الفوهرر من تصرفات ذوي القمصان البنية الحمقاء . وكان على هتلر أن يختار بين أمرين اثنين أما التضحية بقيادة جيشه المنظم أو بقيادة جيش الصاعقة الذي رفعه إلى قمة المجد . وأخيراً قرر التضحية بقيادة جيش الصاعقة واستدعى روهم واجتمع به لمدة خمس ساعات حاول خلالها التفاهم مع روهم المتعصب الشاذون جدوى ...

وكانت قد تألفت من جيش الصاعقة فرق جديدة من ذوي القمصان السود ، ليكونوا بمثابة الحرس الخاص للفوهرر ، وللقيام بالمهام السرية الخطرة . وقد تولى قيادة هذه الفرق الجديدة هنريك هملا

وهنا تختلف الأقاويل عن الأسباب التي جعلت هتلر يقوم بضربه القوية ضد روهم ورفاقه . فمنهم من كان يقول : إنه بسبب وجود مؤامرة تحاك ضده ، ومنهم من كان يقول : إن الفوهرر أراد القيام بحركة تطهير شاملة وهو لا يزال في أوج عظمته وجبروته . وعلى كل حال ، فقد تطورت الأحداث في يوم الخامس والعشرين من شهر حزيران ، إذ طلب

هتلر من رجال الجيش البقاء في ثكناتهم، ثم قام بتوزيع السلاح والعتاد على أفراد الحرس الخاص من ذوي القمصان السود، بنفس الوقت أصدر أمراً لذوي القمصان البنية ليكونوا على أهبة الاستعداد، وطلب من جميع قادة جيش الصاعقة الحضور إلى اجتماع يعقد في الثلاثين من شهر حزيران. وترددت شائعات، وصلت إلى هتلر، إن مساعدروهم يحاول القيام بثورة، عندئذ قرر هتلر القيام بعمل سريع يقضي به على خصومه دفعة واحدة. فأمر غورنغ بالدخول إلى برلين والسيطرة عليها، وطار هو إلى ميونيخ ليقوم بمفاجأة خصومه شخصياً ويعتقلهم بنفسه يساعده في ذلك اثنا عشر رجلاً من ذوي القمصان السود. وما إن وصل إلى مقر قيادة جيش الصاعقة، حتى فاجأ كبار القادة بنبأ اعتقالهم، ثم استقل سيارة يرافقه هذا العدد القليل من الحرس واتجه إلى ويسبي حيث كان روهم. فوصل إلى هناك في تمام الساعة صباحاً.

ترجل هتلر من سيارته واتجه إلى المنزل وحيداً دون سلاح واقتحم غرفة نوم روهم الذي أذهلته المفاجأة الشديدة، وتم اعتقاله مع عدد من أركان حربه. وعاد الجميع مع الأسرى إلى ميونيخ، حيث وضعوا جميعهم في نفس السجن الذي اعتقل فيه هتلر قبل عشر سنين، وفي نفس اليوم بدأ تنفيذ حكم الإعدام بجميع المعتقلين دون استثناء واستمرت عملية الإعدام طيلة بعد الظهر، وقد أمر هتلر بتغيير الفرق التي كانت تقوم بمهمة الإعدام، بسبب الإجهاد العقلي الذي أصابهم نتيجة للوحشية التي تم فيها تنفيذ حكم الإعدام.

وفي برلين تمت نفس العملية التي جرت في ميونيخ، فقد قام غورنغ بتنفيذ حكم الإعدام بجميع الذين اعتقلهم، وبلغ عدد الذين أعدموا في ذلك اليوم سبعة آلاف شخص!!

ورجع هتلر إلى برلين حيث أطل من شرفة دار المستشارية ليتلقى هتافات الجماهير، التي كانت تعتقد أن الفوهرر كان ضحية مؤامرة وهيبة خرج منها سالماً بفضل قوته وسرعة بديته. وهكذا تمكن هتلر بفضل هذه المجزرة الرهيبة من تثبيت أسس حكمه وترسيخ عقيدته، كما حافظ على وحدة ألمانيا الاشتراكية الوطنية، لتحمل لعنتها تلك إلى العالم بأسره....



وأظهرت هذه المذبحة أن الفوهرر لن يردعه أي شيء
عن تنفيذ كل ما يريد ، وولدت الأوضاع القائمة ، بالنسبة
للعالم الخارجي ، أوضاعاً لا يمكن وصفها بالأوضاع
المتعدنة . وأصبح على هذا العالم أن يواجه حكماً دكتاتورياً
يقوم على الإرهاب وسفك الدماء .

الانقلاب المفاجئ:

يقول تشرشل :

نشطت الحركة بين بافريا والحدود النمساوية في شهر تموز من عام ١٩٣٤ م ، وبدأ
الإعداد للثورة وقلب نظام الحكم فيها . وفي صباح الخامس والعشرين من الشهر نفسه
غدت الثورة واضحة إذ دخلت جماعة من المسلحين دار المستشارية ، وقتلوا الرئيس
دلفوس ، كما استولت فصيلة أخرى من الثوار النازيين على دار الإذاعة وأعلنت حل حكومة
الرئيس دلفوس ، وتعيين ريتلين رئيساً جديداً .

إلا أن هذا الانقلاب المفاجئ لم يعمر طويلاً ، إذ قام رئيس الجمهورية بالرد على الحركة
الانقلابية . أيد في ذلك موسوليني من إيطاليا وأرسل ثلاث فرق عسكرية إلى ممبرينر ، مما
اضطر هتلر إلى التراجع ، وطلب من وزير ألمانيا المفوض وبعض الذين اشتركوا في المؤامرة
الرجوع إلى بلادهم فوراً حيث فصلهم من الخدمة ، وبذلك أنهى المحاولة الأولى للإطاحة
 باستقلال دولة النمسا .

وقد قربت هذه الأحداث بين إيطاليا وفرنسا ، فقد أدى هذا التهديد لاستقلال النمسا
إلى إعادة النظر في العلاقات بين فرنسا وإيطاليا ، كما شملت الأبحاث موضوع توازن القوى
وأوضاع فرنسا وإيطاليا بالنسبة إلى جنوب إيطاليا الشرقي ، وكان هدف موسوليني الحفاظ
على مصالح إيطاليا الاستعمارية في إفريقيا ، بالإضافة إلى تقوية مركزه في أوروبا ضد
التهديدات الألمانية .

أما فرنسا التي كانت ترغب منذ وقت طويل في الوصول إلى اتفاق رسمي حول إجراءات الأمن والسلامة في الشرق ، إلا أن تردد بريطانيا في التورط بأية تعهدات وراء نهر الراين ، ورفضها عقد محادثات مع بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، كما أن مخاوف دول التحالف الصغيرة من نوايا الروس ومطامعها ، بالإضافة إلى شكوك روسيا في الغرب ، كل هذا أدى إلى فشل برامج فرنسا ، إلا أن السيد بارتو وزير خارجيتها عزم على المضي في برنامجها واتباع برنامجا يقضي بعقد اتفاق يضم ألمانيا وروسيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلطيق ، تقوم فيه فرنسا بضمان حدود روسيا في أوروبا ، وتضمن روسيا حدود ألمانيا الشرقية ، إلا أن ألمانيا وبولندا عارضتا الفكرة ، لكن بارتو نجح في إقناع روسيا بوجوب الدخول إلى عصبة الأمم .

وكان هدف فرنسا الأول هو البحث عن حلفاء جدد ضد ألمانيا ، فاتجهت نحو روسيا محاولة أن تبعث فكرة توازن القوى التي كانت قائمة قبل الحرب العالمية الأولى ، إلا أن مأساة وقعت في شهر تشرين الأول حين دعي الملك الإسكندر اليوغوسلافي لزيارة رسمية إلى باريس ، وعندما نزل في مرسيليا ، كان في استقباله المسيو بارتو والجنرال جورج ، بينما كانت الجماهير محتشدة في الشوارع تهتف معربة عن فرحها الكبير .

وفجأة ظهر شخص من بين الحشود وتسلى سيارة الملك وأطلق عليه الرصاص من مسدس كان يحمله ، وهجمت الحرس عليه وأمعت فيه ضرباً بالسيوف وقطعته إرباً ، وقد قتل الملك على الفور ، وأصيب المسيو بارتو والجنرال جورج بإصابات بالغة ، ولم يتمكن الوزير بارتو من المقاومة فتوفي بعد بضع ساعات ، وبوفاته أصيبت السياسة الخارجية الفرنسية بضرر قاسم ، وخلفه في الوزارة بير لافال .

إن تاريخ لافال المشين اللاحق ، ومصيره لن يحولا بيننا وبين الإعراب عن حقيقة قوته الشخصية ومقدرته ، فقد كانت وجهة نظره صافية وصلبة ، فهو قد آمن بضرورة تجنب الحرب ، خاصة بالنسبة لفرنسا ، وهدف إلى إجراء ترتيبات مع حكام ألمانيا وإيطاليا ، اللذين لا يحمل ضدهما أي ضغينة ، وكان لا يثق بروسيا ونواياها ، كما أنه كان لا يحب بريطانيا ، بالرغم من مظاهر الصداقة التي كان يظهرها تجاهها ، وكان يعتقد بأنها حليف لا نفع منه . لذلك قرر الابتلاء بالفهم مع إيطاليا ، لاسيما وإن الخوف من ألمانيا أصبح كبيراً جداً ، إلا أنها كانت

مستعدة للتساهل طمعاً في كسب صداقة إيطاليا ... وسافر في كانون الآخر عام ١٩٣٥ إلى روما حيث عقد عدة اتفاقات بين الدولتين لإزالة العقبات التي تعترض طريق التفاهم بينهما، وخاصة الاتفاق حول معارضة إعادة تسليح ألمانيا . وتعهدت فرنسا بالتساهل مع الإيطاليين في تونس ، كما سلمت لإيطاليا مساحات شاسعة من الأراضي الواقعة على حدود ليبيا والصومال ، وإعطاء إيطاليا نسبة ٢٠٪ من عائدات سكة حديد جيبوتي - أديس أبابا ، وكان من المقرر أن تكون هذه الاتفاقات بداية محادثات رسمية تشمل فرنسا وإيطاليا وبريطانيا العظمى ، لإقامة جبهة تقف في وجه الخطر الألماني المتزايد ، إلا أن الصدام بين الجنود الإيطاليين والحبشيين على حدود الحبشة والصومال الإيطالي ، كان الحجة التي استخدمتها إيطاليا في المطالب التي وجهتها إلى الحبشة ، وهكذا أدى مصير الحبشة إلى اضطراب فكرة التضييق على ألمانيا وحصرها في القارة الأوروبية .



الفصل الرابع

فقدان التوازن الجوي والعقوبات ضد إيطاليا
وإعلان هتلر إنشاء السلاح الجوي الألماني



يقول تشرشل :

لم تكن ألمانيا تعتقد أن في إمكانها تسليح جيشها تسليحاً كاملاً متفوقاً قبل عام ١٩٤٣، إلا أن الاكتشافات العلمية الحديثة، وخاصة اختراع الآلة ذات الاندفاع الداخلي، وتقدم فن الطيران، جعلاً من مسألة التفوق العسكري والقوة العسكرية أمراً يتوقف على جهود الدولة في ميدان العلم والمعرفة. وكانت ألمانيا تتمتع بإمكانات ضخمة في هذه الميادين، فتمكنت ألمانيا من خلق هيكل سلاح جوي في الجيش، بعد أن كان محروماً من هذه القوة الجوية الهامة، ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت أمام أعيننا الحقيقة المرعبة فقد توصل هتلر إلى الرقم المعدل في عدد الطائرات، الذي وصلت إليه بريطانيا، ولم يتبق عليه إلا أن يصدر أوامره بزيادة الإنتاج والإسراع به كي يرفع من مستوى الطائرات الموجودة ويحسنها، وأصبحت لندن مهددة من الجو، ووجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة الثابتة في جميع القرارات التي نتخذها، إذ لم يعد في إمكاننا اللحاق بألمانيا، إلا أننا بذلنا مجهودات ضخمة جارية، وحلقت في سماء العاصمة طائرات «الماريكين» و«السيبتاير» في عام ١٩٣٥م، إلا أن العدد لا يزال ضئيلاً، وعندما نشبت الحرب شعرنا بتفوق السلاح الجوي الألماني الذي بلغ بمجموعه ضعف سلاحنا الجوي الملكي.

وفي اليوم التاسع من شهر آذار عام ١٩٣٥ أعلن هتلر بصورة رسمية إنشاء السلاح الجوي الألماني، كما أعلن عن التجنيد الإجباري في جميع البلاد، وفي نفس الوقت أعلنت فرنسا تمديد مدة الخدمة العسكرية إلى مستين، وشرعت ألمانيا في تنظيم جيشها على أسس حديثة، كما أصبح الجيش تابعاً للقوهر مباشرة، وغدا القائد الأعلى له، وأصبح على كل جندي أن يحلف يمين الولاء لهتلر لا للدستور، كما أصبحت وزارة الحربية تابعة لأوامره مباشرة، واتخذت الإجراءات اللازمة لتدريب الشباب الألمان، فما أن ينشأ الولد حتى ينفذ إلى شبيبة هتلر التي تضم جميع أولاد ألمانيا، ثم يتقلون بعد ذلك إلى الحرس النازي بعد أن يبلغوا سن الثماني عشرة ويعملوا فيه لمدة ستين. وعندما يصبح الشاب في سن العشرين يفرض عليه تأدية الخدمة العسكرية لمدة ستة أشهر يقضيها في شق الطرق وبناء المعسكرات وتجهيف المستنقعات، وبعد ذلك يتقل للعمل مع القوات المسلحة.

وفي الخامس عشر من تشرين الأول عام ١٩٣٥ افتتح هتلر كلية أركان الحرب الألمانية، وبدأ بذلك الإعداد الكبير لتدريب الجيش وتوسيع صفوفه .. كما استدعيت الفئة الأولى من مواليد عام ١٩١٤ للخدمة العسكرية حيث تقرر إعداد وتدريب ٥٩٦ ألف رجل على فنون القتال، وهكذا قفز رقم الجيش الألماني إلى ٧٠٠ ألف رجل، إلا أن هذه الأرقام المخيفة لم تبلغ بعد عدد وقوة الجيش الفرنسي واحتياطيه الكبير، وكان بالإمكان حتى هذا التاريخ اتخاذ أي قرار من جانب عصبة الأمم لوقف هذه العمليات الرهيبة المخالفة لمعاهدات الصلح واتفاقاته، كما كان بالإمكان تقديم ألمانيا إلى المحاكمة أمام هيئة دولية، تقدم فيه بياناً عن تسليحها وتسمح للجان الحلفاء بالتحقيق في هذه الأوضاع، أما في حالة رفضها الإذعان لهذه الإحراءات، تقوم الجيوش الحليفة باحتلال جميع المنافذ والمعابر على نهر الراين حتى يضمن الحلفاء تنفيذ ألمانيا لتعهداتها، وبذلك يصبح بالإمكان تأجيل وقوع الحرب العالمية الثانية إلى أجل غير مسمى ...



الضربة الثانية للسلام:

يقول تشرشل :

كانت الضربة الثانية للسلام العالمي، بعد خسارة بريطانيا للتعداد الجوي، حين انتقلت إيطاليا إلى جانب ألمانيا، وبذلك تمكن هتلر من التقدم في طريقه نحو القتال. فبعد أن ساعد موسوليني النمسا على الحفاظ على استقلالها، قرر أن يتقل إلى الجانب الآخر، ولم تعد ألمانيا وحيدة في الميدان العسكري بفضل أطماع ديكتاتور إيطاليا لتوسيع رقعة إمبراطوريته التي شرع في إنشائها.

وقد ظهرت جلية استعدادات موسوليني لاحتلال الحبشة، بعد مؤتمر ستريزا، وكان من الواضح أن الرأي العام البريطاني سيعارض مثل هذا الاعتداء الصارخ، كما أن البعض كان يجد في هذه المعارضة تشجيعاً لإيطاليا في المضي نحو ألمانيا، خاصة وهي الدولة المعتبرة من الدول الكبرى، فبانضمامها إلى ألمانيا ستخسر بريطانيا حليفاً مهماً.

ولا أزال أذكر الحديث الذي جرى بيني وبين المستر ديف كوبر حول هذا التبدل في الميزان الأوروبي الذي جاء معاكسا لمصلحتنا، وقد اقترح البعض أن نؤلف وفداً لمقابلة موسوليني يشرح له النتائج التي ستؤدي إليها حركته في بريطانيا. وبالنسبة لمؤلف هذا الوفد، فلم يكن هذا سيؤدي إلى أي نتيجة، فقد كان موسوليني يعتقد أن بريطانيا أصبحت عاجزاً ضعيفة لا تستطيع القيام بأي عمل حربي عدا الصراخ والضجيج.

وكانت وجهة نظري في هذه المسألة هي في حل القضية إلى عصبة الأمم ضد إيطاليا، ومطالبة فرنسا بتأييدنا، إلا أنني حذرت من الضغط عليها، وذلك بسبب ارتباطاتها مع إيطاليا، وانشغالها في المشكلة الألمانية. كما أنني نصحت بعدم تزعم هذه القضية والتحمس لها، وذلك بسبب خوف من ألمانيا ومن الأوضاع التي وصلت إليها أجهزتنا الدفاعية... إلا أن الحكومة وقفت موقفاً مكشوفاً وصرحت بأن بريطانيا ستقف إلى جانب التزاماتها وإلى جانب ميثاق عصبة الأمم، وسافر بعد ذلك وزير الخارجية إلى جنيف ليجتمع تأييد الدول الأعضاء في عصبة الأمم لفرض عقوبات على إيطاليا، إذا هي قامت بضرب الحبشة، وكانت هذه العقوبات تعني قطع المساعدات المالية، والمواد الاقتصادية عن إيطاليا، وتزويد الحبشة بها. وكانت هذه العقوبة شديدة الخطورة على إيطاليا التي تعتمد على استيراد البضائع التي تحتاج إليها في الحرب، من الخارج.

وفي الثاني عشر من شهر أيلول وصلت البارجتان البريطانيتان «هود» و«ريناون» إلى جبل طارق بالإضافة إلى سرب من الطرادات والمدمرات. كما اتخذت عصبة الأمم قراراً بأغلبية خمسين صوتاً يقضي باتخاذ إجراءات جماعية ضد إيطاليا، وعينت لجنة قوامها ثمانية عشر عضواً لتقوم بمحاولة أخيرة للوصول إلى حل سلمي، وعندما أصدر موسوليني بيانه التاريخي بقوله: «إن إيطاليا ستواجه العقوبات بالنظام والاقتصاد والتضحية» إلا أنه أضاف أن إيطاليا إذا وجدت أن هذه العقوبات ستعرق برنامجها لغزو الحبشة فسيشن الحرب على كل دولة تقف في طريقه، وقد أضاف معلقاً على قرار عصبة الأمم بقوله: «خمسون دولة، نعم هذه للدول كلها تقودها دولة واحدة!



موقف بريطانيا من سفك الدماء: يقول تشرشل :

عدة حوادث غيرت مواقف بريطانيا هي : آثار سفك الدماء في إسبانيا ، والكرهية للفاشية وتطبيق العقوبات من قبل عصبة الأمم ، هياج الطبقات العاملة في بريطانيا ، وحزب العمال البريطاني ، ولم يكن النقيبون وعلى رأسهم المستر أرنست بينن مبالين إلى المهادنة والسلام ، واجتاحت الرغبة العازمة في محاربة الدكتاتور الإيطالي ، وتطبيق أقصى العقوبات عليه ، وتدخل الأسطول البريطاني إذا لزم الأمر ، وكان عدد كبير من أعضاء مجلس العموم يشاطر النقابات رأيها في هذا الصدد . واستقال مستر لانسبوري من رئاسة الكتلة البريطانية لحزب العمال ، وتولى الميجور أتلي الرئاسة خلفاً له .

وفي هذا الوقت حل البرلمان وأجريت انتخابات جديدة ، وأعلن رئيس الوزراء أن العقوبات تعني أولاً الحرب لكنه كان مصمماً على ألا تكون هناك الحرب ، إلا أنه مصمم في نفس الوقت على العقوبات ، وتجنبت عصبة الأمم ، بطلب من بريطانيا ، فرض العقوبات خوفاً من استفزاز إيطاليا وإكراهها على الحرب ، فاكفّت بمنع بعض السلع من الوصول إلى إيطاليا وإكراهها على الحرب ، فاكفّت بمنع بعض السلع من الوصول إلى إيطاليا وبعض المواد الحربية ، ولم تقطع الزيت عنها واستمر في الوصول إليها بكل حرية ، إذ أن قطعه يعني الحرب بصورة قاطعة ، وكان من جملة السلع الممنوعة ، تصدير الألومنيوم . إلا أن هذا المعدن كانت إيطاليا تتجه بشكل ضخم يفوق حاجاتها . وبالإجمال كانت العقوبات المفروضة لا تعتبر عقوبات بالمعنى الصحيح ، يقصد منها شل حركة المعتدين ومنعهم من العدوان .

أما بالنسبة لبريطانيا فقد كان بإمكانها منع إيطاليا من المرور في قناة السويس ، وأن تخوض معركة بحرية من الأسطول الإيطالي ، بالرغم من أن بوارجنا كانت قديمة ، وأن الأسطول يفترق إلى المدافع المضادة للطائرات كما يفترق إلى الغطاء الجوي الضروري ، إلا أنه باستطاعتنا قطع الإمدادات والمواصلات الإيطالية مع الحبشة ، وكنت واثقاً من أن موسوليني لم يكن ليجرؤ على الاشتباك مع قواتنا ، فقد كان العالم كله ضده في ذلك الوقت ، وكان من المنتظر أن يتعرض حكمه للخطر ، في حالة خوضه غمار الحرب مع بريطانيا ، ومع أنني كنت أعارض فكرة القيام بأي عمل فردي تقوم به بريطانيا ، إلا أننا قد قطعنا شوطاً

بعيداً في هذه المرحلة ، ومن العار أن تراجع الآن ، لكن الحقيقة كانت ظاهرة في حب الحكومة الحاضرة للسلام والحفاظ عليه ، هذا الحب الذي جر العالم في حرب أكثر فظاعة .



نتائج سقوط البلاد الحبشية:

يقول تشرشل :

أدى سقوط البلاد الحبشية وضمها إلى الممتلكات الإيطالية ، إلى نتائج إيجابية في ألمانيا ، فقد بدا الإعجاب بموسوليني وطريقته الفذة السريعة التي أنهت فيها إيطاليا الحملة على الحبشة ، وكان الرأي العام السائد أن بريطانيا خرجت من هذه الأزمة مقهورة ضعيفة ، وقال أحد ممثلينا في بلغاريا : « إن إشارات الاحتقار لبريطانيا أصبحت ظاهرة سافرة في جميع الأوساط . وهذا مما جعل ألمانيا تتصلب في مواقفها للتفاوض لإيجاد تسوية في أوروبا الغربية وتسوية أكبر لجميع الشؤون الأوروبية والعالمية ، وكانت هذه الأقوال صحيحة تماماً ، فقد تولت حكومة جلالته ، دون تفكير بالأمر ، زعامة خمسين دولة للتعبير عن الشجاعة لوقف إيطاليا عند حدها ، وما إن واجهت الحقائق القاسية حتى تراجعَت الحكومة عن موقفها الشجاع وتحاذلت ، وبذلك أصابت عصبة الأمم بخيبة أمل كبيرة وألحق بها أشد الأضرار .



الفصل الخامس

هتلر يضرب

بعض فرق الخدمة الإجبارية في الجيش



يقول تشرشل :

لقد كان الاحتلال الوحشي للحبشة ، الصدمة القوية التي أحسن بها الشعب البريطاني من اتفاق هور - لاغال وفشل عصبة الأمم من العوامل التي غيرت لوضع حزب العمال وحزب الأحرار بالإضافة إلى الرأي العام الحسن التية . وبلدت فكرة قبول نشوب الحرب ضد الطغيان الفاشي والنازي ، تلاقي صدى حسنا في النفوس ، حتى الذين يحبون السلام ويعتزون بالمهادنة . وبالرغم من معارضة حزبي المعارضة لجميع الإجراءات المؤدية إلى إعادة التسلح ، إلا أن مجال الاتفاق كان وامعا ، ولو حاولت حكومة جلالتة أن ترتفع إلى مستوى الأحداث ، لتمكنت من تزعم جبهة شعبية متحدة ، تقودها في طريق حملة قوية للتأهب والاستعداد.

إلا أن الحكومة بقيت متمسكة بسياسة الاعتدال وأنصاف الحلول . وقد أذهلني عدم اهتمامها بالبحث عن توحيد الانسجام الذي أخذ يسود صفوف الشعب ، ولو أنها حاولت البحث عن هذا التوحيد ، لقوت بذلك مركزها وكسبت قوة كانت ضرورية للبلاد .

أما بالنسبة لألمانيا ، فقد أدى تسليحها من جديد إلى اقتراب موعد الحرب العالمية ، وأصبح تشوبها أمرا مؤكدا ، فبعد أن تأخرنا عن توقيف هتلر عند حدوده ، وبعد أن فرض هتلر الخدمة الإجبارية في الجيش ، متحديا بذلك جميع المعاهدات ، وبعد أن غفرت بريطانيا له هذا التحدي العجيب ، وعقدت معه اتفاقا وسمح له بإعادة بناء أسطوله البحري الذي يضم عددا من الغواصات يوازي عدد الغواصات البريطانية . وبعد أن صرحت ألمانيا بنفسها أنها أصبحت تملك سلاحا جويًا يضاهي السلاح الجوي الملكي البريطاني بدأت الآن تدخل عامها الثاني في الاستعداد والعمل النشط لإنتاج العتاد الحربي الرهيب ، وأصبحت بريطانيا وأوروبا كلها ، وأميركا التي كانت تعتقد أنها بعيدة عن الخطر ، تواجه الآن قوة ضخمة منظمة ، بالإضافة إلى التصميم على خوض حرب ضروس ضد سبعين مليونًا من البشر .

وكانت من جملة بنود معاهدة فرساي ، البنود القائلة بعدم السماح لألمانيا بإقامة

تخصيصات دفاعية على الجهة اليسرى من نهر الراين ، وإلى خمسين كيلو متراً من الجهة اليمينية من النهر ، كما أنها منعت أي وجود لقوات عسكرية بحرية في هذه المنطقة ، كما أن معاهدة لوكارنو التي نصت على حفظ الحدود القائمة بين ألمانيا وبلجيكا ، وبين ألمانيا وفرنسا . وتعهد الفرقاء بعدم القيام بأي هجوم عبر هذه الحدود ، وإذا ما خرقت إحدى الدول هذه الاتفاقات ، فإن عملها هذا يعتبر عملاً عدوانياً لم يسبقه استغزاز ، ويتوجب على الدول المعتدي عليها أن تقوم بأعمال فردية ، وتنقل المشكلة إلى عصبة الأمم ، وأن تطلب معاونة الدول الأخرى الموقعة على هذه الاتفاقية .

وفي نفس اليوم الذي عهد فيه تسليم هذا الاقتراح لعقده كميثاق يعمل به لمدة خمسة وعشرين عاماً أعلن هتلر أنه قرر احتلال منطقة الراين ، وزحفت القوات الألمانية فوراً لتأخذ مواقعها على طول المنطقة وعرضها ،

وهبت فرنسا تطلب العون من حلفائها ، وتشكو أمرها إلى عصبة الأمم ، وكان من حق فرنسا أن تطلب بريطانيا بتنفيذ اتفاقها القاضي بحماية حدودها ضد أي اعتداء من ألمانيا ، نتيجة للضغط الذي قاموا به في السابق لإجلائها عن منطقة الراين ، وكان المسيو سارو ، رئيس الوزراء ، يرى إعلان التعبئة العامة فوراً ، إلا أنه لم ينفذ هذا الرأي قبل الحصول على موافقة بريطانيا عليه أولاً ، إلا أن حكومة جلالاته . أقنعت فرنسا بوجوب الانتظار ، حتى تقوم الدولتان بعمل مشترك ، بعد أن يتمكننا من درس الوضع دراسة شاملة وافية ، أما الرد غير الرسمي ، الذي أجابت به لندن ، فقد بعث في نفسي القشعريرة ، إذ سارع المستر لويد جورج إلى القول ، أن جريمة هتلر الكبرى كانت في الاستغزاز لا في خرقه الفاضح للمعاهدة ، وأنه كان يأمل بأننا سنبقى رؤوسنا منخفضة ، كان الاستغزاز في الظاهر ، هو فشل الحلفاء في نزع السلاح ، أكثر مما فعلوا حتى اليوم .

لقد أخطأت الحكومة الفرنسية في انصياعها لمشيئة بريطانيا وعرضها للمشكلة على عصبة الأمم ، وهي التي أصبحت ضعيفة لا قيمة لها بعد فشلها النريع في مهزلة العقوبات . فلو نفذت الحكومة الفرنسية تعبتتها العامة ، وجهزت مئة فرقة لكانت تمكنت من حمل هتلر على التراجع والانسحاب ، فقد كانت فرنسا في ذلك الوقت من القوة بحيث تتمكن

وحدهما من إرغام الألمان على الانسحاب .

وعندما اجتمع هتلر بقاتلته العسكريين بعد نجاح حملته في احتلال منطقة الراين ، كان في وده أن يصارحهم بأن مخاوفهم السابقة كانت كاذبة ، لكنه برهن لهم بعمله هذا أن أحكامه وآراءه الخاصة أهم وأقوى من أحكام القادة العسكريين ، ولهذا أحنى القادة رؤوسهم باحترام . وكانت الفرحة تغمرهم ، كألمان مخلصين ، حين رأوا أن بلادهم قد بدأت تستعيد مكانتها السابقة في القارة الأوروبية في هذه السرعة الهائلة ، بالإضافة إلى أن أعداءهم السابقين قد أصبحوا ممزقين مشتين ، وأعلن الفوهرر للعالم : لقد حققت ألمانيا جميع مطامعها الإقليمية

وأصيبت فرنسا بالتفكك وسيطر على البلاد الخوف من الحرب ، والرغبة في اجتنابها ، أما الإنكليز السذج فقد أبلغتهم صحافتهم : « أن الألمان ، على كل حال ، لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم عادوا إلى بلادهم ، إذ كيف يمكن أن نشعر نحن الإنكليز ، لو تختم علينا أن نبقي بعيدين عن يوركشاير مثلاً لمدة عشر سنوات أو خمس عشرة سنة ؟ » ... إلا أنهم لم يفكروا أن الحدود الأمامية قد تقدمت إلى الأمام مئة ميل ، وأصبح غزو فرنسا أقرب وأسهل .



هتلر ومشروع الخمس سنوات :

يقول تشرشل :

مرت ستان على الاستيلاء على منطقة الراين ، لم تضيع ألمانيا خلالها أية دقيقة من وقتها ، إذ بدأت التحصينات تظهر على طول الخط في تلك المنطقة . وأخذت المصانع الألمانية تعمل ليلاً ونهاراً لتجعل من صناعة ألمانيا كلها مصانع سلاح ، وتحول الشعب بأسره إلى آلة للحرب .

ولفتح هتلر عام ١٩٣٦ ، مشروع السنوات الخمس لإعادة تنظيم الاقتصاد الألماني وإعداده لمرحلة الاكتفاء الذاتي أثناء الحرب . كما حقق في الخارج «التحالف القوي» الذي كتب عنه في كتابه «كفاحي» وبين أهميته لسياسة ألمانيا الخارجية ، فتفاهم مع موسوليني وتم

تشكيل محور برلين-روما.

كانت سياسة هتلر العدوانية لا تعتمد على القوة العسكرية ، بل تعتمد على الخلافات الناشئة بين فرنسا وبريطانيا ، وعلى شدة خوفهما بالإضافة إلى عدم اكتراث الولايات المتحدة الأميركية . وكانت أعماله وتحدياته الأولى عبارة عن مغامرة يعرف أنه لن يتمكن من الصمود لتتبعها ، إذا ما شعر بأن لدى الحلفاء قليلاً من الجدية الصادقة . وكان احتلاله لمنطقة الراين وإقامته للتحصينات فيها أولى هذه المغامرات التي نجح فيها نجاحاً كبيراً . أما خصومه فقد كانوا على أشد ما يكونون من الضعف والتردد ، إلى درجة أنهم لم يشعروا بهذه «البلفة» التي قام بها . أما حين تحركت جيحافلها في عام ١٩٣٨ لم تكن هذه التحركات عبارة عن «بلفة» أخرى ، فقد أصبح العدوان الجديد مدعوماً بالقوة المتفوقة ، وما إن بدأت الدولتان البريطانية والفرنسية تشعران بهذا التحول المفاجئ ، كان الوقت قد فات .



الوقف في إسبانيا:

يقول تشرشل :

أما في إسبانيا فقد تدهور النظام البرلماني فيها عام ١٩٣٦ إلى حد أدى لنمو حركة جديدة تتجه إلى إقامة نظام شيوعي أو حتى فوضوي في البلاد ، ومن ثم إلى قيام ثورة عسكرية مبيتة ، وكانت التعاليم الشيوعية وكتبها المدرسية التي ألفها لينين نفسه ، تقول بأن الواجب يقضي بضرورة التعاون مع جميع الأحزاب والحركات اليسارية في البلاد ، ودعمها للوصول إلى الحكم . عندئذ يصبح من السهل الانقلاب عليها ونسفها من الداخل ، وإقامة الدولة الماركسية ، وكانت هذه التجربة التي نجحت في روسيا ، تحدث الآن في إسبانيا ، إلا أن الجيش الإسباني كان محتفظاً بقوته ، لذلك فقد سار مع الحركات الشيوعية ، بينما كان يبيت ضدها مؤامرة عكسية .

وكانت أعمال العنف والقتل بين الفرقاء المتخاصمين تتشر انتشار الوباء في البلاد ، وازداد الوباء الشيوعي حدة جعل من مسألة حمل الخصوم السياسيين من بيوتهم وقتلهم

دون محاكمة أمراً طبعياً . وقد حدثت حوادث كثيرة من هذا النوع في العاصمة مدريد بالذات ، وبلغت هذه الحوادث حدتها حين قتل الزعيم الإسباني المحافظ السنيور سوتيلو ، وكانت هذه الحادثة إشارة الانطلاق للقادة العسكريين لابتداء العمل ، وكان الجنرال فرانكو قبل شهر من هذا الحادث قد أرسل إلى وزير الحربية الإسبانية رسالة قال فيها : إنه إذا لم تتمكن الحكومة من المحافظة على الضمانات العادية للحياة ، فإن الجيش سيضطر للتدخل فوراً ... وعندما تمرد الجنرال فرانكو وحمل راية الثورة ، انضمت إليه فرق الجيش كلها ، وأصبح السيد المطلق على الكثير من الولايات ، أما البحارة الإسبان فقد هبوا الفور هم وقتلوا ضباطهم وانضموا إلى ما سمي بعد ذلك بالجانب الشيوعي ، وقد استطاع الشيوعيون أن يسيطروا بعد أن انهارت الحكومة وراحوا يطبقون نظرياتهم وتعاليمهم .

وبدأت الحرب الأهلية المخيفة ، وقام الشيوعيون بجرائم عديدة وقتلوا خصوصاً منهم السياسيين ، والأغنياء ، أما قوات فرانكو فقد قامت بدورها بقتل العديد من الشيوعيين وانتقم للضحايا ، وسارت هذه القوات تحتل القرى الشيوعية وتستقم من كل شيوعي تجده .

ووقفت الحكومة البريطانية موقف عدم التدخل ، واقترحت كذلك فرنسا مشروعاً بعدم التدخل ، وترك الفريقين يحلان مشاكلهما دون مساعدات خارجية ، وأيدت الحكومة الإيطالية والألمانية والروسية هذا المشروع ، وقد حافظت بريطانيا العظمى على هذا الاتفاق ، إلا أن ألمانيا وإيطاليا من جهة ، وروسيا من جهة أخرى ، سارعت إلى خرق هذا الاتفاق ، وراحت ترسل بالإمدادات العسكرية لفريق من الفرقاء المتخاصمين ، وراحت الطائرات الألمانية تغير على المدن الصغيرة بشكل وحشي ، ولم تلبث فرنسا هي الأخرى أن راحت تبعث بطريقة سرية بأمراب الطائرات للدفاع عن الجمهورية



أحداث عام ١٩٣٧:

يقول تشرشل :

في الثامن والعشرين من أيار عام ١٩٣٧ ، اعتزال المستر بلدوين منصب الحكم ، بعد تنويع الملك جورج السادس . وقد نال لقب اللوردية تقديرًا لخدماته الطويلة ، بالإضافة إلى وسام ربطة الساق ، وقد خلفه في الحكم المستر نافيل تشمبرلين وزير المالية السابق ، والذي كان يقوم فعليًا بأعباء الحكم طيلة السنوات الخمس الماضية ، وكان من أقدر الوزراء ، يتمتع بمزايا ومواهب همة . وقد رحبت بتسليمه مقاليد السلطة ؛ لأنه كان من الشخصيات المرموقة النابضة بالحوية ، بالإضافة إلى كفاءته .

أن باستطاعتي إجراء مقارنة بين الشخصيتين المستر تشمبرلين والمستر بلدوين ، اللذين عرفتهما مدة طويلة وكان مقدراً لي أن أعمل معهما . فقد كان ستايلي بلدوين يتمتع بشخصية حكيمة بعيدة النظر ، إلا أنه كان يفتقر إلى المقدرة على التنفيذ واتخاذ القرارات ، وكان بعيداً عن شؤون الحرب والجيش والشؤون الخارجية ، فقد كان يعرف شيئاً عن أوروبا ، وإذا عرف شيئاً فكان يكره ما يعرفه عنها ، إلا أنه كان يعرف بدقة مجرى السياسات الحزبية البريطانية ، وكان قد ترشح خمس مرات عن حزب المحافظين باعتباره زعيماً للحزب ، ففاز في ثلاث مرات . أما رباطة جأشه فكانت صامدة قوية ، فقد كان يتمتع بموهبة فذة في الصمود تجاه الأحداث والانتقادات العادية ، وكان ماهراً في تحرير الأحداث إلى خدمته ، وانهاز اللحظة المناسبة عندما تحين .

أما المستر نافيل تشمبرلين فقد كان يقظاً ، متشبثاً برأيه ، وشديد الثقة بنفسه إلى حد المبالغة . وكان على عكس زميله يعتقد في نفسه المقدرة على تفهم جميع المسائل المتعلقة بأوروبا ، بل وفي العالم . وقد حافظ على سياسة تضيق الخناق على الإنفاق الحربي طيلة عهده في الوزارة سواء حين كان وزيراً للمالية أم حين أصبح رئيساً للوزارة ، وكان العدو اللدود لجميع إجراءات الطوارئ ، وقد سن قوانين وأحكام على الشخصيات السياسية المعاصرة لعهد ، سواء في داخل بريطانيا أم في العالم الخارجي ، وكان يشعر بأنه قادر على التعامل مع جميع تلك الشخصيات . وكانت آماله وأمانيه في أن يحصل على لقب بطل السلام ، لذلك

العمل بإحلاص لتحقيق هذه الغاية ، وقد عرض نفسه بذلك لأشد الأخطار كما عرض البلاد أيضًا ، لكنه وقع في تيارات لم يتمكن من تقدير قوتها ، فواجه أزمات لم يتمكن من حلها أو من الابتعاد عنها ولا الصمود في وجهها .

لقد كنت أؤثر العمل مع المستر بلنوين في تلك السنين التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، على العمل مع تشمبرلين ، إلا أنني كنت أشعر أن أيًا من الاثنين لم يكن راغبًا في التعاون معي إلا عند الضرورة القصوى .



مقابلة سفير ألمانيا:

يقول تشرشل :

في ذات يوم من عام ١٩٣٧ قابلت سفير ألمانيا في بريطانيا المفرون رينتروب . وكنت قد كتبت مقالاً شرحت فيه أن المهر رينتروب قد أسىء فهمه نتيجة لخطابه الذي ألقاه مؤخرًا . وقد التفتيت في إحدى الحفلات ، وطلب مني أن أقوم بريارته في السفارة ، لتحدث سويًا . وقد استقبلني في دار السفارة ، حيث قضينا ساعتين في الحديث . وكان رينتروب طيبًا دمث الأخلاق ، دبلوماسيًا إلى أبعد الحدود . وقد قال لي أن ألمانيا لا تريد إلا كسب صداقة إنكلترا ، وقال : إنه كان في استطاعته أن يصبح وزيرًا للخارجية ألمانيا ، إلا أنه طلب من هتلر إرساله سفيرًا إلى إنكلترا ، كي يتمكن من العمل لتحقيق فكرة عقد اتفاق أو محالفة بين إنكلترا وألمانيا . وقد كان في وسع ألمانيا أن تصبح حارمًا للإمبراطورية البريطانية ، وبالطبع ستطلب استعادة مستعمراتها السابقة ، إلا أن ذلك لا يعتبر أمرًا أساسيًا . لكن ما تطلبه ألمانيا هو أن يسمح لها بإطلاق يدها في أوروبا الشرقية . إذ أن من حق ألمانيا أن تحصل على مداها الحيوي ، لتضمن العيش لشعبها الذي يتكاثر عدده ، لذلك فمن الواجب على ألمانيا أن تمهاجم بولندا و عمر دانزيغ . ولا يمكن للرايخ الكبير أن يحيا ، وهو يضم سبعين مليونًا من البشر ، بدون روسيا البيضاء وأوكرانيا . ولا يمكن للرايخ الألماني أن يكفي بأقل من هذا . لذلك فمطلبه الوحيد هو ألا تتدخل بريطانيا في شؤونه تلك . وكانت في الغرفة ، حيث

جلسنا ، خارطة ضخمة معلقة على الجدار ، وكان يشير إليها السفير رينتروب ليدين لي ما يقوله .

وبعد أن أنهى حديثه ، أجبته برأيي الصريح ردًا على كل أقواله . وبما قلته : «أن الحكومة البريطانية لن توافق على إطلاق يد ألمانيا في أوروبا الشرقية ، فبالرغم من علاقاتنا السيئة مع روسيا السوفيتية ، وبالرغم من عدائنا الشديد للشيوعية الذي لا يقل عن عدا هتler لها ، فإنه لو ضمنتنا سلامة فرنسا ، فإننا لن نتخلى عن أوضاع القارة الأوروبية ونترك المجال أمام ألمانيا لتسيطر على شرقي أوروبا ووسطها » .

والتفتت فون رينتروب إلى فجأة وهو يقول : «إذن ، فلابد من الحرب ، ولن يكون هناك أي سبيل لتجنبها ، فالفهرر مصمم ، ولن يقف شيء في طريقه » .

وأجبت السفير بقولي : «عندما نتحدث عن الحرب ، فستكون حربًا عامة شاملة ، وهنا يجب على أن أنهك بالآلا تستهين بقوة إنكلترا ، فهي بلاد عجيبة ، يصعب على الأجانب فهمها . ولا يمكنك أن تحكم عليها من موقف حكومتها الحاضر . فعندما تعرض للشعب قضية عادلة ، فستحقق عندئذ بنفسك أن هذه الحكومة بالذات بالاشتراك مع الشعب سيقومان بأعمال عظيمة غير متوقعة ، لذلك لا تستهين بقوة إنكلترا أبدًا ، فهي حادة الذكاء ، وإذا ما أردتوها حربًا عالمية ، فستعرض إنكلترا العالم كله ضدكم . تمامًا كما حدث في الحرب الأولى » .

وهنا ظهر الغضب على وجهه ، فهب من مقعده واقفًا وهو يقول : «ربما تكون إنكلترا ذكية كما تقول ، لكنها هذه المرة لن تتمكن من تحريض العالم ضد ألمانيا » .

وانتقلنا بالحديث إلى مواضيع أخرى أكثر سهولة . وعندما جرت محاكمة فون رينتروب بعد انتهاء الحرب ، ذكر حديثنا هذا ، لكن بصورة مغلوطة ، وأصر على استدعائي للشهادة . ولو طلب إلى ذلك لما زدت أو أنقصت حرفًا واحدًا عما كتبه هنا ...



———— الفصل السادس ————

المسترايدن في وزارة الخارجية . واستقالته



إن وزير الخارجية في إنكلترا يتمتع بمكانة خاصة . ومع أنه يعامل بمتهى الاحترام واللباقة ، إلا أن أعماله ومهامه المتعلقة بالشؤون الخارجية تبقى دائماً تحت المراقبة ، إن لم يكن من جميع أعضاء وزارته ، فمن المستقلين منهم على الأقل ، كما أنه يتوجب عليه تقديم تقارير كاملة لزملائه ، كما أنه يتحتم على وزير الخارجية اطلاع رئيس الوزراء على جميع الأسرار مهما كانت .

وفي هذه الحقبة من الزمن كان المستر إيدن وزيراً للخارجية في حكومة المستر بلديون الذي كان معروفاً بميله الشديد إلى السلام والحياة الهادئة ، كما أنه لم يكن يسهم إسهاماً فعالاً في السياسة الخارجية ، أما بالنسبة للمستر تشرملين فكان الوضع مختلفاً ، فهو يريد الإشراف الفعلي على وزارة الخارجية ، وكانت له آراء ووجهات نظر قوية في الشؤون الخارجية ، لذلك فقد أكد رغبته منذ البداية في بحث هذه الشؤون والنظريات مع جميع السفراء الأجانب ، ولهذا السبب أدى توليه منصب رئيس الوزراء إلى تغير ملحوظ في وضع وزير الخارجية المستر إيدن ، بالإضافة إلى بعض الأمور الأخرى التي كانت تباعد بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، لقد كان رئيس الوزراء راغباً في إجراء شبه تفاهم مع الدكتاتوريين الأوروبيين ، وكان اعتقاده أن هذا يقوم في تجنب كل ما يسيء إليهما بالإضافة إلى روح التفاهم الخاصة ، أما إيدن فقد نال شهرته من جراء تحريضه لجميع دول أوروبا ضد موسوليني للرجة أنه كان يريد المضي في فرض العقوبات ولو أدى ذلك إلى نشوب الحرب وكان إيدن يؤمن أشد الإيمان بفرنسا ، كما أنه كان يرغب في إقامة علاقات متينة مع روسيا السوفيتية ؛ لأنه كان يشعر بخطر هتلر ، وكان يخاف ضعف تسليحتنا وانعكاسه على سياستنا الخارجية ، لذلك كنت واثقاً أن الخلاف سيدب بين هذين الرجلين ، خاصة بعد تأزم الأوضاع العالمية واشتدادها .

وكان رئيس الوزراء يجد في اللورد هاليفاكس ، زميلاً ينسجم مع سياسته الخارجية كل الانسجام ، وكنت أفضل ، والحالة هذه ، لو اعتمده وزيراً للخارجية منذ تكليفه بتأليف الوزارة ، وأن يعهد بوزارة الحربية إلى المستر أنتوني إيدن ، وهكذا بدأت الخلافات تظهر إلى أن توسعت شقة الخلافات في الفترة الواقعة ما بين صيف عام ١٩٣٧ ونهاية العام ، إلى أن اضطر بعد ذلك المستر إيدن إلى تقديم استقالته في شهر شباط من عام ١٩٣٨ .

لقد كانت سياستنا الخارجية تجاه ألمانيا ، من أهم أسباب الخلاف بين رئيس الوزراء ووزير خارجيته المستر إيدن ، فقد قرر المستر تشمبرلين أن يتابع سياسة التقرب من الديكتاتورين ، واستدعى في شهر تموز من عام ١٩٣٧ سفير إيطاليا الكونت غراندي للاجتماع به في دوانغ ستريت . وكان المستر إيدن يعلم مسبقاً موضوع الحديث ، لذلك لم يحضر الاجتماع هذا . وقد أفصح المستر تشمبرلين عن رغبته في تحسين العلاقات مع إيطاليا ، واقترح عليه السفير أن يبعث برسالة إلى موسوليني يطلب إليه ذلك ، ويناشده العمل في هذا الاتجاه . وسارع المستر تشمبرلين إلى كتابة هذه الرسالة ، أثناء المقابلة ، وبعث بها دون مراجعة وزير الخارجية الذي كان في مكتبه على بعد بضع خطوات من مكان الاجتماع . ولم تسفر هذه الرسالة عن أي نتيجة إيجابية بالطبع ، بل ظلت علاقاتنا مع إيطاليا تدهور بسبب تدخل هذه في شؤون إسبانيا الداخلية .

وكان المستر تشمبرلين ، يشعر بأن رسالته تلتخص في خلق جو من العلاقات الودية بين الديكتاتورين ، وخيل إليه أنه قادر على ذلك . وكان راغباً في أن يعترف بحق إيطاليا في احتلال الحبشة كخطوة أولى نحو التقارب وكمقدمة لإيجاد حل شامل لجميع الخلافات . كما أنه كان يرغب في التنازل لتهلتر عن بعض المستعمرات البريطانية . وفي نفس الوقت لم يكن يرغب في العمل على تحسين أوضاع التسلح في بريطانيا ، أو في إيجاد تعاون وثيق مع فرنسا سواء في الشؤون العسكرية أم في الشؤون السياسية ، أما المستر إيدن فكانت نظرتة تقضي بأن أي تعاون مع إيطاليا ، يجب أن يشمل جميع الشؤون المتعلقة بالبحر الأبيض المتوسط ، بما في ذلك مشكلة إسبانيا . وكان يريد أن يجعل من مسألة الاعتراف بحق إيطاليا في الحبشة وسيلة للمساومة معها أثناء المفاوضات ، لذلك وجد أن الاعتراف بهذا الحق أولاً ثم الرغبة في إجراء التفاوض لا يدل على الحكمة وبعد النظر .

وفي الخريف اشتدت هذه الخلافات ، واعتبر المستر تشمبرلين أن وزير الخارجية يقف عقبة في طريق التفاهم مع الديكتاتورين وفي الشروع في إجراء المحادثات مع ألمانيا وإيطاليا ، كما شعر المستر إيدن أن رئيسه متسرع جداً في محاولته التقرب من الدولتين المذكورتين لاسيما في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا على أشد ما تكون من الضعف من الناحية العسكرية .



على الرغم من خلافاتي مع الحكومة ، فقد كنت أشعر بالعطف نحو وزير الخارجية المستر إيدن ، فقد ظهر لي أنه أكثر الوزراء شجاعة وتصميماً ، على الرغم من أنه أثناء عمله كسكرتير خاص وكوكيل لوزارة الخارجية ، من قبل ، كان مجبراً على أن يكيف نفسه مع أمور عديده كنت أهاجمها شخصياً ، إلا أنني كنت أشعر أنه في قرارة نفسه يعارضها ويستكرها ، كما أنه بدلي عنصراً طيباً وملتزماً ، وكان يدعوني مراراً إلى وزارة الخارجية ، وكثيراً ما كنا تبادل الرسائل بانطلاق وحرية ، ولم يكن هذا الأمر مستغرباً ، فقد كان المستر إيدن شأنه شأن بقية الوزراء ، يرغب دائماً في الاتصال بالشخصيات البارزة في البلاد ليستمزج رأيها في شؤون الساعة وفي القضايا الدولية .

و كنت قد انتهيت إلى وجهة نظر مشابهة مع وجهة نظر إيدن فيما يتعلق بنشاط دول المحور حول تدخلهم في الحرب الأهلية الإسبانية ، وكنت دائماً أؤيده عندما يقف موقفاً صامداً في مجلس العموم ، مهما كانت أهمية المواضيع المطروحة ، فقد كنت عارفاً بالصعوبات التي يواجهها من بعض أعضاء الوزارة وخاصة رئيس الوزارة بالذات ، وكنت على يقين من أن تشجيعي له سيعث في نفسه روح الأمل والقوة ، وما أن نشبت أزمة جديدة في البحر المتوسط ، حتى عاجلها بعزم ومهارة ، واستطاع الوصول إلى حل أتبعته الوزارة على الفور ، فقد حدث أن أغرقت غواصات إيطالية عدة سفن تجارية ، بينما ادعت إيطاليا أن الغواصات ليست إيطالية بل إسبانية ، ودعي مؤتمر الدول البحرية إلى الانعقاد في (نيون) في العاشر من شهر أيلول ، وذهب وزير الخارجية يرافقه فانسيارت واللورد شاتيلند ، لورد الأميرالية الأول ، وقرر المؤتمر إفاد غواصات بريطانية فرنسية تقوم بعمل دوريات في البحر المتوسط ، وتحمل أوامر مشددة بإغراق كل غواصة تقابله ، وفي الحال رضخت إيطاليا إلى هذا القرار واختفت أعمال القرصنة .

ويعتبر هذا الحادث دليلاً ظاهراً على أهمية العمل المشترك بين بريطانيا وفرنسا ، إذا نفذ بصدق وقوة تجاه الديكتاتورين الأوروبيين ، أن مثل هذه السياسة كان في مقدورها لا أن تمنع نشوب الحرب بل أن تؤجل وقوعها على الأقل ، فالحقيقة الماثلة أمامنا هي أن سياسة التهدة كانت تزيد من حدة عدوان الديكتاتورين ، وتزيد من شعبيتهما ، وأن أي هجوم إيجابي معاكس من قبل الديمقراطيات الغربية سيؤدي فوراً إلى التخفيف من حدة هذا

العدوان ، وقد بقيت هذه النظرية سائدة طيلة عام ١٩٣٧ ، أما بعد ذلك فقد تغيرت الأوضاع وتبدلت كل التبديل .

وشعر إيدن بقلق يتزايد يوماً بعد يوم من بطاء تسليحنا ، وما كان منه إلا أن قابل رئيس الوزراء وشرح له مخاوفه وشكوكه ، وكان رد رئيس الوزراء عليه بأن نصحه أن يعود إلى منزله ويتناول قرصين من الإسبيرين .

أما الخلاف الحقيقي فتج عن مسألة مختلفة تمام الاختلاف عن المسائل السابقة ، ففي مساء الحادي عشر من شهر كانون الآخر عام ١٩٣٨ ، قام وكيل وزارة الخارجية الأميركية ، المستر سمنر ويلس بزيارة السفير البريطاني في واشنطن ، وكان يحمل معه رسالة سرية من الرئيس روزفلت إلى المستر تشمبرلين ، فقد شعر الرئيس الأميركي بخطورة الوضع الدولي المتدهور ، وأحس بالقلق المتزايد فاقترح دعوة بعض ممثلي دول معينة إلى اجتماع لبحث المشاكل الحالية ، لكنه أراد قبل تنفيذ هذا الاقتراح ، أن يستشير الحكومة البريطانية في وجهة نظرها حول هذا الاقتراح ، وطلب أن يكون الرد جاهزاً قبل السابع عشر من كانون الآخر ، وأشار في رسالته إلى أنه إذا وجد اقتراحه هذا قد حظي بموافقة حكومة جلالاته القلبية وتأييدها المطلق ، فعندئذ ، وفي هذه الحالة فقط ، سيأشرف اتصالاته مع حكومات فرنسا وألمانيا وإيطاليا وللحقيقة كانت خطوة هائلة وفوق ما يتصوره الإنسان .

وعندما قام السفير البريطاني بنقل هذه الرسالة إلى لندن ، أوصى حكومته بضرورة الموافقة عليها بأسرع وقت ممكن ، وتلقت وزارة الخارجية برقية واشنطن ووزعت نسخاً عنها في الثاني عشر من كانون الآخر إلى منزل رئيس الوزراء في الريف ، وفي صباح اليوم الثاني حضر رئيس الوزراء إلى مكتبه ، وأرسلت الوزارة بردها على رسالة الرئيس روزفلت ، حسب تعليمات رئيس الوزراء ، أما المستر إيدن فكان في إجازة قصيرة يمضيها في جنوب فرنسا ، وكان رد المستر تشمبرلين ، أنه يقدر هذه الثقة التي وضعها الرئيس روزفلت حين استشاره في موضوع اقتراحه المتعلق بإزالة حدة التوتر في أوروبا ، إلا أنه يريد أولاً أن يشرح له الموقف بالنسبة إلى الجهود التي يقوم بها للوصول إلى اتفاق مع ألمانيا وإيطاليا ، لاسيما إيطاليا بصورة خاصة ، ومضى يقول في رده: «إن حكومة جلالاته مستعدة ، بتفويض من عصبة الأمم أن أمكن ، للاعتراف باحتلال إيطاليا للحبشة ، إذا ما وجدت أن الحكومة

الإيطالية ، على استعداد هي الأخرى لتبرهن عن رغبتها في الإسهام في إعادة الثقة والعلاقات الودية » ، وأنهى المستر تشمبرلين رسالته بقوله أنه يعرض هذه الحقائق ليرى الرئيس روزفلت ما إذا كانت اقتراحاته تتعارض والمجهود الذي تبذله بريطانيا ، وما إذا كان الرئيس يرى أنه من الأفضل تأجيل اقتراح مشروعه الأميركي هذا .

وكانت خيبة الأمل كبيرة لدى الرئيس روزفلت لهذا الرد ، وقد قال للسفير البريطاني : بأنه سيجيب على رسالة تشمبرلين برسالة يبعثها له في السابع عشر من الشهر الحالي ، أما إيدن ، وزير الخارجية ، فقد قطع إجازته وعاد إلى لندن على وجه السرعة ، بعد أن علم من موظفيه المخلصين في الوزارة ، ما جرى أثناء غيابه ، وقد انزعج إيدن من هذا الحادث كثيراً . فقد عمل طويلاً لتحسين العلاقات بين بريطانيا وأميركا ، وحاول أن يخفف من تأثير الرد فأبرق إلى المستر روتالد ليندسي ، حول الموضوع .

ووصلت رسالة الرئيس روزفلت إلى لندن في الثامن عشر من الشهر الحالي ، وفيها قال الرئيس أنه يوافق على تأجيل اقتراحاته لأن الحكومة البريطانية تفكر في إجراء مفاوضات مباشرة ، وأضاف معرباً عن قلقه الشديد من اقتراح تشمبرلين حول اعتراف بريطانيا باحتلال إيطاليا للحبشة ، وقال : إن مثل هذا الاعتراف سيركأثر سلباً على سياسة اليابان في الشرق الأقصى ، وعلى الرأي العام الأميركي أيضاً ، وقد أضاف المستر كوردل هل ، الذي قام تسليم الرسالة إلى السفير البريطاني ، بقوله : « إن هذا الاعتراف سيبحث على الأزدراء . وسيرسم صورة واضحة للمساومة القنطرة التي ستفد في أوروبا على حساب المصالح الأميركية في الشرق الأقصى والتي تهم أميركا كثيراً ... » .

وقامت اللجنة الوزارية للشؤون الخارجية بدراسة رسالة الرئيس روزفلت ، وبعد سلسلة من الاجتماعات أرسلت إلى واشنطن رسالتين مضمونهما إن رئيس الوزراء يرحب كثيراً برسالة الرئيس روزفلت إلا أنه لا يتحمل أي مسؤولية في حال فشلت العروض الأميركية ، كما أنه يلفت نظر الرئيس روزفلت إلى أنه ربما قد أساء فهم موقف حكومة جلالته بالنسبة إلى الاعتراف ، وقد شرح في الرسالة الثانية حقيقة الموقف ، فقد كنا عازمين على تقديم اعتراف كهذا ليكون جزءاً من تسوية عامة مع إيطاليا .



روزفلت

وعندما قام السفير البريطاني بتسليم المستر سمز ويلس الرسالتين قال له : «إن الرئيس روزفلت يعتبر مسألة الاعتراف هذا كدواء مر ، إلا أنه يجب علينا أن نشربه معاً ، كما أنه يريد أن نشرب هذا الدواء معاً وفي آن واحد...» .

وهكذا رفض المستر تشمبرلين اقتراح الرئيس روزفلت ، علماً أن نفوذ الولايات المتحدة كان ضخماً مع ما يمكن لها أن نستعمله من قوة جبارة !

وفي ساعة متأخرة من ليل العشرين من شباط ن جاءني الخبر إلى غرفتي القديمة في شارنويل بأن المستر إيدن قد قدم استقالته من الوزارة ، وهنا يتحتم على أن أعترف بأني حزنت كثيراً ، وشعرت باليأس يسيطر علي ، لقد مررت بظروف عصيبة طويلة حياتي ، وفي سنين الحرب ، وفي أحلك ساعاتها المرعبة لم أشعر بالقلق الذي يحرمني طعم النوم ، ففي

أزمة عام ١٩٤٠ حيث كانت المسؤوليات الضخمة ملقاة على عاتقي ، وفي السنوات الخمس التي تلتها ، كنت فريسة للقلق والفرع ، إلا أنني كنت أمضي إلى فراشي وأغرق في سبات عميق ، وأستيقظ في الصباح نشيطاً ، لا أشعر بتعب الليل الفائت بل أمضي إلى عملي لأواجه المشاكل الضخمة وأحاول أن أعالجها . أما اليوم وفي ليل العشرين من شهر شباط عام ١٩٣٨ ، وفي هذه المناسبة فقط ، شعرت بالأرق ، ولم أنم طوال الليل ، وبقيت حتى الصباح في فراشي أفكر بكثير من الأسى والخوف بذلك الشاب القوي الذي صمد بوجه تيارات مخيفة من الانشقاق والاستسلام ، ومن الحسابات الخاطئة ، والدوافع الضعيفة ...



الفصل السابع

اغتيال النمسا



عندما تنهزم دولة من الدول أثناء الحرب ، فإنها تبقى محظطة بكيانها وجهازها وسرية وثائقها ، وقد استطعنا أن نحصل على أسرار العدو بكامله ، بعد أن خضنا غمار الحرب إلى نهايتها ، وكان بإمكاننا أن نتأكد من صحة المعلومات التي توفرت لنا في السابق ، وما قمنا به أثناء الحرب على ضوء تلك المستندات والوثائق التي حصلنا عليها في النهاية ، ففي شهر تموز عام ١٩٣٦ ، كان هتلر قد أصدر أوامره بإجراء الاستعدادات ووضع الخطط لاحتلال النمسا عندما يحين الوقت المناسب ، وقد دُعيت هذه العملية عملية «أوتو» ، وقد كشف عن مخططة هذا في الخامس من شهر تشرين الآخر عام ١٩٣٧ عندما قال لقادة القوات المسلحة بأنه يترتب على ألمانيا أن تضمن لنفسها «أمنها الحيوي» وهذا المدى يمكن ضمانه في شرقي أوروبا ، أي بولندا وروسيا البيضاء وأوكرانيا ، أما احتلال هذه البلدان فيعني حرباً رئيسية وإيذاء للشعوب التي تعيش في تلك المناطق ، لذلك وجب على ألمانيا أن تصفي حسابها أيضاً مع «العدوين المكروهين» إنكلترا وفرنسا اللتين تعتبران أن قيام العملاق الألماني وسط أوروبا سيكون غير محتمل ، ولكي تستغل ألمانيا ما وصلت إليه من تفوق في الميدان العسكري ، وما بعثه الحزب النازي من حماس وطني صادق ، فإن من الواجب عليها أن تقوم بالهجوم في أول فرصة ممكنة ، لكي تقضي على هاتين العدوتين ، قبل أن تتمكن من الاستعداد .

لقد كان هناك سريان آخران دفعاً بهتلر إلى اغتصاب النمسا خلاف ما ذكره من تصميم في كتابه «كفاحي» من رغبته في ضم جميع الشعوب التوتونية إلى الرايخ ، فاحتلال النمسا يعني فتح أبواب تشيكوسلوفاكيا من جهة ، ومداخل جنوب شرق أوروبا من جهة أخرى .

أما داخل النمسا فكانت الحركة النازية تنمو مع كل انتصار يحققه هتلر سواء في داخل ألمانيا أم في خارجها ، وقد صدرت تعليمات خاصة إلى فون بابن لكي يبقى على أحسن العلاقات مع الحكومة النمساوية بالإضافة إلى محاولته الحصول على اعتراف رسمي من الحكومة بالحزب النازي النمساوي كمؤسسة مشروعة ، وأنقن فون بابن دوره وعمل بذكاء كبير داخل النمسا ، وقدر ضيق الكثير من الزعماء النمساويين لضغطه ومكائده ، وكانت الحركة السياحية التي تعتمد عليها النمسا ، قد تأثرت إلى حد كبير نتيجة للاضطرابات

الداخلية ولأعمال الإرهاب والحوادث القاتل التي كانت تهرأس الجمهورية المسلمة .

وساد الاعتقاد أن الوقت قد حان لاستلام زمام الأمور عن طريق إدخال زعماء الحزب النازي النمساوي إلى الحكم عن طريق الوزراء ، بعد أن تم الاعتراف به مؤخرًا ..

وفي الثاني عشر من شهر شباط عام ١٩٣٨ استدعى هتلر المستشار النمساوي ألفريد فون شوشنيغ إلى مقره في برخسغادن .. وحضر المستشار برفقة وزير خارجيته غيدو شميدت ، وبين أيدينا الآن نسخة عما كتبه شوشنيغ عن هذه المقابلة التي جرت بينه وبين هتلر ، ونقل النص الحرفي لهذا الحوار .

وقد بدأ هتلر بالسخرية من التحصينات العسكرية التي أقامتها الحكومة النمساوية على الحدود وقال: إنها لا تتطلب أي مجهود من المعتدي سوى عملية عسكرية بسيطة لإزالتها من الوجود، ثم استطرد قائلاً:

هتلر: لن أحتاج إلا لإصدار أمر ، وستختفي هذه الخيالات المضحكة التي وضعتها على الحدود ، في ليلة واحدة ، ولا أظن أنكم تصدقون أن في إمكانكم الوقوف أمامي أكثر من نصف ساعة ، ومن يعلم ، فقد أصل إلى فينا فجأة كعاصفة من عواصف الربيع ، وعندئذ ستختبرون تجربة جديدة ، لكنني أريد أن أوفر عليكم هذه التجربة ، التي ستكلفكم الكثيرين من الضحايا ، فبعد الجيش ، سيصل جيش الصاعقة ، ثم الحرس النازي ، وعندئذ لن يتمكن أحد من أن يمنعهم من الثأر ، حتى أنا نفسي ، فهل تريد أن تجعل من النمسا إسبانيا أخرى ، إن كل ما أريده أنا هو تجنبكم كل هذا .

شوشنيغ: سأوقف عملية التحصينات الدفاعية على الحدود في الحال ، كما أتي واثق من أنك تستطيع أن ترحف على النمسا . ولكن ، ياسيدي المستشار ، إن زحفكم هذا سيؤدي إلى سفك الكثير من الدماء وربما سيؤدي إلى حرب عالمية ، فأنت تعلم أننا لسنا وحيدون في العالم !

هتلر: إنه لمن السهل أن تقول كل هذا ، وأنت جالس على كرسيك المريح ، إلا أن وراء هذه الأقوال الكثير من الولايات والدماء ، فهل أنت على استعداد لتحمل مسؤولية

كلامك؟ لا تعتقد أن في هذا العالم من يستطيع أن يقف بيني وبين ما قررت أن أفعله، أتقصد إيطاليا؟ لقد تفاهمت مع موسوليني ونحن الآن على خير ما نكون من؟ إنك لترا؟ لن ترفع أصبعًا واحدًا من أجلكم! فرنسا؟ لقد غامرت، منذ ستين، عندما زحفت لاحتلال منطقة الراين بمجموعة من الكتائب، ولو قابلت فرنسا هذا الزحف بالهجوم لاضطرت إلى الانسحاب... أما الآن فقد أضاعت فرنسا الفرصة على نفسها.

حصلت تلك المقابلة الأولى في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا، وبعد الغذاء استدعي النمسيون إلى غرفة صغيرة كان بانتظارهم فيها وينتروب وبابن، حيث قام بتسليمهم الإنذار الخطي الذي لم يكن يقبل أي مناقشة، وقد تضمن الإنذار تعيين، سايكس-انكورات وهو نمسوي نازي، وزيرًا للأمن في الحكومة النمساوية، كذلك تضمن الإنذار عفوًا شاملاً عن جميع النازيين المعتقلين، ثم ضم الحزب النازي النمسوي رسميًا إلى الجبهة الوطنية التي تشرف عليها الدولة.

وبعد ذلك استقبل هتلر المستشار شوشنيغ وقال له: «سأكرر عليك، أن هذه هي فرصتكم الأخيرة، وإني متظر تنفيذ الشروط خلال ثلاثة أيام»، وفي مذكرات «يودل» عن نفس هذه الحادثة العبارة التالية: «وقد تعرض فون شوشنيغ وغيدو شميدت إلى أعنف ضغط سياسي وعسكري، إلى أن وقع البروتوكول في تمام الساعة الحادية عشر مساءً» وعندما عاد فون بابن مع شوشنيغ قال له: «هذه هي طريقة الفوهرر، وقد اختبرتها بنفسك، ولكن في المرة المقبلة سيكون الفوهرر شخصًا آخر، إنه للحقيقة ساحر كبير».

ومضت المهزلة بأن أرسل موسوليني برسالة شفوية إلى شوشنيغ يقول له: إن ما جرى في برختسغادن كان مشرفًا وعادلاً، ثم أكد له أن موقف إيطاليا من النمسا لن يتغير أبدًا، كذلك أعرب له عن إخلاصه وصدافته الشخصية له، وفي الثالث من شهر آذار بعث شوشنيغ برسالة سرية إلى موسوليني يعلمه فيها أنه قد عزم على إجراء استفتاء شعبي عن الوضع السياسي، وبعد أربع وعشرين ساعة جاءه الرد من المالحق العسكري لبلاده، يخبره باجتماعه بموسوليني ويخبره من مغبة هذا الاستفتاء الذي وصفه بأنه «خطيئة» وقال: إن كنت النتيجة مرضية فسيقول الناس أن الاستفتاء لم يكن نزيهًا، أما إذا لم يكن مرضيًا

فسيصبح وضع الحكومة حرجاً للغاية ، وإذا كانت النتيجة كلمة فلن تكون ذات نفع على الإطلاق ، إلا أن شوشنيغ لم يأخذ بنصيحة موسوليني وتحذيره ، فقد أعلن في اليوم التاسع من شهر آذار عن رغبته في إجراء استفتاء عام في جميع البلاد صباح الأحد القادم في الثالث عشر من الشهر الجاري .

وفي بداية الأمر ، بدا أن سايكس - إنكوارت قد قبل بالفكرة ، إلا أنه في صباح يوم الحادي عشر تلقى شوشنيغ مكالمة هاتفية من مركز الشرطة في فيينا تقول : إن الحدود الألمانية في سالزبورغ قد أقفلت ، وسحب موظفو الجمارك الألمان وقطعت مواصلات السكك الحديدية ، ووصلت رسالة ثانية من القنصل في ميونيخ تقول : إن القوات الألمانية متأهبة للتوجه إلى النمسا .

وبعد قليل وصل سايكس - إنكوارت ليخبره أن غورنغ طلب منه أن يلغي الاستفتاء خلال ساعة ، وإذا لم يصله الرد بالإلغاء خلال المدة المذكورة فسيفترض أن سايكس - إنكوارت قد منع من استخدام الهاتف للاتصال به ، وأنه سيتصرف على ضوء هذا الافتراض ، وعندما علم شوشنيغ أن الجيش لا يمكن الاعتماد عليه ، أبلغ سايكس - إنكوارت أن الاستفتاء قد ألغي ، وبعد ربع ساعة عاد هذا يحمل إليه خبراً سجله على ورقة كتب فيها :

« لا يمكن إنقاذ الوضع إلا باستقالة شوشنيغ في الحال ، وإذا لم يعين سايكس - إنكوارت خلال ساعتين مستشاراً ، فإن غزو ألمانيا للنمسا سينتله فوراً » .

وفي خلال هذا الوقت انتظر شوشنيغ وصول الرئيس ميكلاس ليقدّم له استقالته ، وعندما دخل إلى مكتب الرئيس جاءت رسالة بالشفرة من الحكومة الإيطالية تقول : إنه ليس في إمكانها تقديم النصيحة مرة أخرى أو أن تقوم بأي عمل من أجلهم ، ورفض الرئيس تعيين المستشار النازي ، وقرر أن يجبر الألمان على القيام بأعمال عنيفة معية ، لكنهم كانوا على أتم الاستعداد لارتكاب هذه الأعمال ، فأصدر هتلر أوامره بالزحف على النمسا ومباشرة عملية «أوتو» .

وفي محادثات نورمبرغ قدمت هذه المصادقة الهاتفية التي دارت بين هتلر وبين الأمير فيليب هيسي، مبعوثه الخاص إلى الدوتشي، التي قدمت كوثيقة هامة، وجدنا أن نقلها بنصها الحر في:

هيسي: لقد وصلت لتوي من قصر البنقية، وقد وافق الدوتشي على الموضوع بروح ودية، وهو يرسل إليك بالتحيات والاحترام، وقد وصلت المعلومات من النمسا ومن شوشنيغ بالذات، وأعلن أن تدخل إيطاليا هو مستحيل، وهو لن يعدو أن يكون إلا كذبة كبيرة أو «بلغة» وليس في إمكانه أن يقوم بها، وهكذا أفهم شوشنيغ أن سوء الحظ قضى بذلك، ولا يمكن تبديل الأمور الآن، ولم يلبث أن أعلن موسوليني أن أمر النمسا لا يهمه على الإطلاق.

هتلر: حسناً، أخبر موسوليني، أي لن أنسى عمله هذا.

هيسي: نعم.

هتلر: أبداً، أبداً، مهما حصل، وأنا لا زلت مستعداً لإجراء معاهدة مختلفة معه.

هيسي: نعم، وقد أخبرته بذلك أيضاً.

هتلر: وعندما تنتهي عملية النمسا، سأكون مستعداً للمضي معه إلى آخر الطريق، ولن يهمني شيء.

هيسي: نعم، أيها الفوهرر.

هتلر: اسمع، سأعقد أي معاهدة، ولن أخشى بعد الآن عما سيجري من الناحية العسكرية إذا ما اشتبكنا في صراع ما، ويمكنك إبلاغه شكري العميق، ولن أنسى مطلقاً عمله هذا.

هيسي: نعم، أيها الفوهرر.

هتلر: لن أنساه مطلقاً، مهما حدث، وإذا ما احتاج إلى أي مساعدة، أو حين يجد نفسه في أي خطر فليتيق بأنني سألزمه مهما حدث، ولو كان العالم كله ضده.

هيسي : نعم ، أيها الفوهرر .

ولاشك عندما قام بإتقاذه من الحكومة المؤقتة الإيطالية عام ١٩٤٣ قد وفي هتلر بوعده .



لقد كانت أمنية العريف النمساوي ، أن يدخل إلى فيينا دخول المتصرين ، وفي يوم السبت في الثاني عشر من شهر آذار ، أعد الحزب النازي استقبالا حافلا للبطل المظفر ، إلا أنه لم يصل أي شخص إلى العاصمة ، بل وصل ثلاثة من الجنود البافاريين الذين ، قدموا لإعداد الترتيبات اللازمة للجيش المحتل ، فرفعوا على الأكتاف ، وبدأت الأخبار تتسرب ببطء ، فقد توقف الجيش عند الحدود مترددا ، ثم بعد ذلك عند لينز ، وبالرغم من الأحوال الجوية المؤاتية وسهولة المواصلات ، فقد تحطمت معظم الدبابات ، وظهرت نقائص المدفعية الثقيلة وعيوبها ، التي سدت الطريق من لينز إلى فيينا المتوقفة عن الحركة ، وقد ألقى باللوم على الجنرال فون ريخناو ، وهو من أقرب المقرين إلى الفوهرر ، الذي كشف التقصير الفاضح في تجهيزات الجيش الألماني .

وقد استاء الفوهرر كثيرا حين مر في شوارع لينز ورأى هذه الفوضى في حركة السيارات ، وأمر بفصل الدبابات الخفيفة لتستمر في مسيرها ، وهكذا دخلت العاصمة في صباح يوم الأحد ، ثم نقلت السيارات المصفحة والمدفعية الثقيلة وغيرها في شاحنات ضخمة لتصل إلى فيينا في الموعد المحدد وتشارك في الاستعراض ، ولا شك أن صورة هتلر ، لا تزال ماثلة أمام أعيننا ، حين عبر بسيارته شوارع فيينا بين ألوف الجماهير المحتشدة ، منهم المتحمس له ومنهم الخائف منه ، إلا أن الفوهرر لم يكن راضيا عن فشل ألياته الثقيلة ، وراح يوزع التهم على جنرالاته الذين ردوا عليه بأنهم حذوره من مغبة هذا الهجوم لأن الجيش لم يكن مهيبا بعد للاشتراك في صراع كبير ، إلا أن الجميع سيطروا على أعصابهم ، فاحتفظوا بالمظاهر ، وسارت الاحتفالات الرسمية والاستعراضات في مواعيدها ، وبانتهاء الاستعراض وقف هتلر وأعلن حل الجمهورية النمساوية ، وضمها إلى الرايخ الألماني .



في هذه اللحظة كان الهرفون رينتروب يستعد لمغادرة لندن لاستلام مهام منصبه الجديد كوزير للخارجية ، وقد دعي المستر تشمبرلين ، في هذه المناسبة إلى حفلة غداء تقام على شرف السفير بمناسبة سفره ، وكنت من جملة المدعوين ، وكانت زوجتي تجلس قرب السير إلكسندر كادوغان على مقربة من طرف الطاولة ، وبينما كنا نتناول الطعام جاء رسول من وزارة الخارجية يحمل رسالة إلى السير إلكسندر ، الذي ما أن قرأها حتى هب واقفاً من مكانه ، ثم تقدم من رئيس الوزراء وسلمه الرسالة ، وقد لاحظت أن الرئيس قد غرق في قراءة الرسالة ، انني بدت هامة للغاية ، بينما عاد السير إلكسندر إلى مكانه بكل هدوء ، وكانت محتويات الرسالة ، كما علمت بعد ذلك ، أن هتلر قد غزا النمسا في هذه اللحظة ، وأن قواته تتقدم نحو العاصمة ، وبعد قليل ، قامت السيدة تشمبرلين ودعت الحضور إلى شرب القهوة في غرفة الجلوس ، وبدأ في هذه الدقيقة أن المستر تشمبرلين وزوجته أرادا إنهاء المأدبة بأسرع وقت ، فسيطر شعور من الخوف والقلق على الحضور ، وقاموا بالودعوا ضيف الشرف .

أما فون رينتروب فكان محتفظاً بهدوئه ووقاره ، كإنه غير عالم بما يحدث في تلك اللحظات ، وتقدمت من السيدة رينتروب ، وقلت لها « أرجو أن تتمكن ألمانيا وإنكلترا من الحفاظ على صداقتهما .. » وقد أجابني بلهجة الرقيقة ... « أرجو أن تحرصوا على ألا تفقدوا هذه الصداقة » ، وتأكد لي أن السفير وزوجته كانا على علم بما جرى ، وأنها يحاولان إبعاد الرئيس تشمبرلين عن عمله وعن جهاز الهاتف ، إلا أنه اضطر إلى أن يقول للسفير : « أنا آسف جداً ، لا اضطراري للذهاب لأمر هام جدًا ... » ثم غادر الغرفة على الفور ، وبقي فون رينتروب وزوجته ، حتى اضطر الجميع بعد ذلك إلى مغادرة المنزل ، وكانت هذه آخر مرة شاهدت الهرفون رينتروب قبل أن يشق .

وتحرك الروس هذه المرة ، ليدعوا إلى مؤتمر عام لبحث الوضع العام . واقترحوا إعادة البحث في مشروع تنفيذ الميثاق الفرنسي - السوفيتي ، ضمن حدود عصبة الأمم ، في حال تكررت تهديدات ألمانيا للسلام .. إلا أن باريس ولندن استقبلتا هذا الاقتراح بكثير من البرود ، فقد كانت فرنسا منشغلة بأشياء أخرى ، وكان المستر تشمبرلين لا يزال على تشاؤمه وانحياز معنوياته ، ولم يكن ليتفق معي حول تفسير الأخطار المتوقع حصولها وإمكانية تجنبها أو معالجتها حين تحصل ، فقد كنت في ذلك الوقت أحبذ هذه الفكرة ، أي فكرة قيام تحالف فرنسي - بريطاني - روسي ، وكنت متأكداً أن هذا هو الحل الوحيد لكبح جماح النازيين .

الفصل الثامن

تشيكوسلوفاكيا



عندما كان هتلر متجها في سيارته نحو فيينا، التفت إلى الجنرال فون هولدر وقال له «لا شك أن خطوتنا هذه ستقلق التشيكيين»، وأدرك هولدر على الفور ما قصده هتلر بكلمته تلك، وظهرت له نواياه المقبلة.

وقد سمعنا أن غورنغ، يوم دخلت الجيوش الألمانية أراضي النمسا، قال للوزير التشيكي المفوض في برلين، مؤكداً له بصور قاطعة بأن ليس لألمانيا أية نوايا سيئة ضد تشيكوسلوفاكيا، كما أعلن المسيو بلوم، رئيس وزراء فرنسا يوم الرابع عشر من شهر آذار، في حديث له مع الوزير المفوض في باريس، أعلن له بكل جدية ووقار، أن فرنسا ستقوم بالتزاماتها تجاه تشيكوسلوفاكيا دون أي قيد أو شرط، إلا أن جميع هذه التأكيدات لم تستطع أن تغير شيئاً من الحقيقة الرهيبة.

ومن جهة ثانية، حاولت بريطانيا الوصول إلى اتفاق مع إيطاليا حول البحر الأبيض المتوسط، رغبة منها في وقف ألمانيا عند حدها، كما أن مثل هذا الاتفاق سيقوي من مركز فرنسا، ويمكنها هي من مراقبه ما يجري من أحداث في أواسط أوروبا، وقد حاول موسوليني أن يتخذ لنفسه مركزاً قوياً للمساومة خاصة بعد أن اطمأن لسقوط إيدن، فقرر الاتفاق مع بريطانيا، وتم توقيع الاتفاق الإنكليزي الإيطالي في السادس عشر من شهر نيسان عام ١٩٣٨، الذي يقضي بالسماح لإيطاليا بالعمل في الحبشة وإسبانيا على هواها، مقابل حسن نيتها في أواسط أوروبا، وكانت وزارة الخارجية كثيرة التشكك في هذه الاتفاقية، وقد قال لنا مؤرخ حياة تشمبرلين، فيلينغ، أنه كتب في رسالة شخصية خاصة: «لو رأيت مسودة الاتفاقية التي قدمتها وزارة الخارجية، لقلت أنها كافية لأن تجمد دُباً قطياً!».

وكنت من ناحيتي أشاطر وزارة الخارجية مخاوفها تلك.

وكان هتلر من جهته يراقب الوضع باهتمام، فهو يعلم أن موسوليني بحاجة إلى مساعدته حين تطلق يده للعمل في الحبشة، وهذا ما سيفرض عليه قبول ما ستعمله ألمانيا في تشيكوسلوفاكيا، وراحت الدوائر الرسمية تدرس البيانات الإنكليزية والفرنسية، وشعرت بارتياح لعزم الدولتين الغريبتين على إقناع التشيكيين بوجوب التروي حفاظاً على السلام في أوروبا، وفي هذه الإثناء، بدأ الحزب النازي السويدي بزعامة هانلاين، بوضع لائحة

بمطالبه المتضمنة الحصول على الحكم الذاتي في المناطق المجاورة لألمانيا ، وسارع الوزير البريطاني والفرنسي إلى زيارة الوزير التشيكى لإقناعه و «لإعراب عن أملهما الصادق في أن تمضي الحكومة التشيكية إلى هذا الحد ، رغبة منها في تسوية النزاع وحسمه » .

وفي شهر آيار ، وصلت التعليقات من ألمانيا ، إلى الألمان في تشيكوسلوفاكيا ، بزيادة الاضطرابات ، وكان موعد الانتخابات قد حان ، وبدأت الحكومة الألمانية تساعد الفوضى ، بحملة مركزة من حرب الأعصاب ، والإشاعات القائلة أن القوات الألمانية تتجمع على الحدود التشيكية ، ولم تؤد التنظيمات التي أذاعتها حكومة ألمانيا ، إلى تهدئة التشيكيين الذين أعلنوا هم أيضًا التعبئة العامة في صفوفهم .

لقد كان هتلر متيقنًا أن إنكلترا وفرنسا لن تدخلا الحرب دفاعًا عن تشيكوسلوفاكيا ، لذلك دعا مستشاريه وأصدر التعليمات بالاستعداد للهجوم على تشيكوسلوفاكيا ، إلا أن هذا الهجوم المطلوب لم يكن بالأمر السهل ، إذ يترتب على ألمانيا أن تقذف نحوًا من خمس وثلاثين فرقة عسكرية لتمكن من اختراق الخطوط الدفاعية التشيكية ، فالجيش التشيكى يعتبر من أحدث الجيوش كفاءة وتجهيزًا ، هذا بالإضافة إلى أن روسيا السوفيتية مرتبطة مع تشيكوسلوفاكيا ، وهي تترصد بألمانيا في حال محاولتها الهجوم على الأراضي التشيكية .

إلا أن هتلر ، بالرغم من اعتقاده بنجاح فكرته بالاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا ، فقد حاول أن يطمئن قاداته الذين عارضوا فكرته تلك ، بأن قال لهم بأنه لن يبدأ هجومه إلا حين يتأكد أن فرنسا وإنكلترا لن تتدخلا في هذه المعركة ، إلا أنه في الثاني عشر من شهر أيلول وفي خطاب إلقاء في اجتماع لشبيبة الحزب في نورمبرغ ، هاجم الحكومة التشيكوسلوفاكية بعنف ، ولم تليث الحكومة هذه أن ردت عليه في اليوم التالي بأن فرضت الأحكام العرفية في بعض المناطق من الجمهورية ...



وفي الحادي والعشرين من شهر أيلول ألقى لتفينوف في جلسة الجمعية العامة لعصبة الأمم إنذارًا رسميًا هذا نصه :

«إن جمهورية تشيكوسلوفاكيا، تعاني في الأيام الخاضرة من تدخل إحدى الدول الأجنبية المجاورة، في شؤونها الداخلية، كما أنها تعرض لتهديد سافر بالهجوم عليها، ولذلك سيجد هذا الشعب الذي نعتبه من أعرق الشعوب الأوروبية حضارة، والذي كافح طويلاً من أجل الحصول على استقلاله، سيجد هذا الشعب نفسه مضطراً على حمل السلاح من أجل الدفاع عن كيانه واستقلاله، وقد تلقيت منذ أيام مسؤولاً من الحكومة الفرنسية، عن موقف بلادي في حال تعرضت تشيكوسلوفاكيا لهجوم أجنبي مفاجئ، وقد وجهت إلى الحكومة الفرنسية جواب بلادي الصريح التالي :

«إننا مستقوم بالتراماتنا وسنطبق ميثاق عصبة الأمم، وسنقدم كل مساعدة ممكنة لتشيكوسلوفاكيا، وذلك بالتعاون مع فرنسا، كما أن وزارة الحربية على أتم الاستعداد للاشتراك في أي مؤتمر يعقد بين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا لدرس الوسائل المناسبة لمواجهة الأحداث» كما أن حكومتي قد تلقت من الحكومة التشيكوسلوفاكية سؤالاً حول موقف الاتحاد السوفيتي وهل هو على استعداد لتقديم المساعدات بموجب الاتفاق السوفيتي - التشيكي، إذا قامت فرنسا هي الأخرى بالوفاء بالتراماتها، وكان جواب حكومتي على هذا السؤال واضحاً بالإيجاب .

ولم يلق هذا البيان الصريح أدناً صاغية لا من حكومة بريطانيا العظمى ولا من حكومة فرنسا، فقد تجاهلت الدولتان هذا العرض، ولم يحسب أي حساب لهذه الدولة الكبرى، وقد أثرت هذه المعاملة المنطوية على الكثير من الازدراء، وتركت أثراً كبيراً على عقلية ستالين وتفكيره، وقد كلفنا الازدراء والتجاهل الكثير من التضحيات الغالية فيما بعد .

وألقي هتلر في السادس والعشرين من الشهر الحالي، خطاباً هاجم فيه بعنف تشيكوسلوفاكيا ورئيسها، إلا أنه كان معتدلاً تجاه فرنسا وبريطانيا العظمى، ومما قاله في خطابه، أنه يجب على تشيكوسلوفاكيا أن تتخلى فوراً عن بلاد السوديت، وأنها إذا ما تخلت عن هذه المناطق، فسيعتبر القضية منتهية تماماً ولن يعود بهمة أمر تشيكوسلوفاكيا على الإطلاق، وأضاف بقوله أن هذا المطلب هو آخر مطلب إقليمي له في قارة أوروبا، وفي الساعة الثامنة من الليلة نفسها صدر البلاغ التالي عن وزارة الخارجية البريطانية :

« بالرغم من المحاولات المبذولة من جانب بريطانيا لتسوية المشكلة التشيكوسلوفاكية، وإذا ما حدث أن تعرضت البلاد إلى هجوم ألماني عليها، فإن فرنسا ستسارع إلى مساعدتها، كما أن بريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتي سيقفان بلا شك، إلى جانب فرنسا ».

وشعرت أن ساعة القتال قد اقتربت. فقد كان عدد الجيش التشيكي مليوناً ونصف المليون من الجنود المجهزين بأحدث الأجهزة، تساندتهم آليات جبارة رائعة التنظيم، وبدأت تعبئة الجيش الفرنسي في الحال، كما أصدرت الإمبراطورية البريطانية الأوامر بتعبئة الأسطول.



وفي هذه الأثناء، بدأ الصراع بين هتلر ومستشاريه، فقد بدا لهم أن الأزمة قد تفاقمّت بشكل خطير، فهناك نحو من ثلاثين إلى أربعين فرقة مدرعة قد احتشدت على طول الحدود الشرقية لألمانيا، كما أن الجدار الغربي للبلاد قد سدته الحشود الفرنسية التي كانت تفوق قوة ألمانيا بنسبة ثمانية إلى واحد، كذلك الجيوش السوفيتية التي راحت تشق طريقها عبر بولندا ورومانيا، وفي الحال قام فريق من الجنرالات الألمان بمؤامرة لاعتقال هتلر و«إنقاذ ألمانيا من هذا المجنون».

وفي هذا الوقت، أبرق المستر تشمبرلين إلى هتلر، دون أن يستشير أحداً، مقترحاً عليه زيارته وطار المستر تشمبرلين إلى ألمانيا وقد اقنع أن حل المشكلة التشيكية هو في فصل منطقة السوديت عن تشيكوسلوفاكية، ولذلك سيقنع هتلر ويتخلى عن هجومه، وفي ميونيخ، حيث نزل المستر تشمبرلين، لحق به المسيوديلاديه رئيس وزراء فرنسا، وموسوليني، ولم توجه دعوة على روسيا لحضور هذا الاجتماع، كما لم يسمح للتشيكيين بالحضور أيضاً، وقد أبلغت الحكومة التشيكوسلوفاكية بأن مؤتمراً سيعقد في اليوم التالي يضم ممثلين عن الدول الأوروبية الأربع فقط، وانهقد المؤتمر عند الظهر من اليوم نفسه واستمر حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي، وتم الوصول إلى اتفاق بين «الأربعة الكبار»، وأعدت مذكرة وقع عليها الجميع في الجلسة نفسها، وكانت المذكرة تتضمن قبولاً بكل ما تطلبه ألمانيا وموافقة تامة على وجوب الجلاء عن منطقة السوديت خلال عشرة أيام، كما تقرر تعيين لجنة دولية

للإشراف على تخطيط الحدود النهائية .

وهكذا بدأت عملية تقطيع تشيكوسلوفاكيا ، ولم تنته المشكلة عند هذا الحد ، فقد وجهت بولندا إنذاراً إلى الحكومة التشيكوسلوفاكية يقضي بتسليم منطقة «تيشين» الواقعة على الحدود بين البلدين ، وذلك خلال أربع وعشرين ساعة ، ولم يكن هناك من سبيل لرفض هذا المطلب القاسي ، كما جاء المجريون يطالبون هم أيضاً بحصتهم من الغنيمة .

اتفاق ميونيخ ومشاعر البريطانيين:

يقول تشرشل :

ليس من السهل ، بعد أن مررنا خلال تلك السنوات القاسية أن نصور للأجيال القادمة حقيقة المشاعر المتأججة في نفوس البريطانيين نتيجة لاتفاق ميونيخ ، فقد انقسم الرأي بين أفراد أسر المحافظين وأصدقائهم إلى حد كبير جداً لم أر مثيلاً له في حياتي ، وكان الرجال والنساء الذين تربطهم ببعضهم البعض علاقات متينة ينظرون إلى بعضهم البعض نظرات كلها احتقار وغضب ، ونحن لم نكن لنهتم كثيراً آنذاك بالرغم من نظرات السخرية والهزء التي يقابلنا بها أنصار الحكومة ، واهترت أركان الحكومة ، إلا أنها ظلت متهاسكة ، ولم يصمد إلا وزير البحرية المستر داف كوبر ، الذي قدم استقالته بعد أن بقي محافظاً على كرامته حين أمر بتعبئة الأسطول ، ففي الوقت الذي كان المستر تشمبرلين يسيطر على الرأي العام البريطاني سيطرة تامة ، كان المستر كوبر يندفع من بين الصفوف ليعلن إلى الرأي العام معارضته التامة لموقف رئيسه .

وألقي المستر كوبر خطاب استقالته ، في مجلس العموم أثناء مناقشة موضوع اتفاق ميونيخ ، وقد اعتبرت هذه الاستقالة حدثاً بارزاً في الحياة البرلمانية ، وتحدث الوزير لمدة أربعين دقيقة بحرية تامة مرتجلاً خطاباً وطنياً سيطر فيه على مشاعر خصومه ومعارضيه من نواب الحزب ، وصفق له نواب العمال والأحرار المعارضون للحكومة ، طويلاً وهتفوا له بحين ، وكانت هذه الحادثة بداية انشقاق في حزب المحافظين .

ولا زلت أذكر حين قمت في المجلس وأعلنت «إننا قد منينا بهزيمة منكرة لم يسبق لها مثيل .. فقد ثارت ضدي عاصفة ضخمة في المجلس مما اضطرني إلى التوقف عن الكلام لفترة قبل أن أعود إلى متابعة كلامي ، فقد كان هناك شعور من الإعجاب بما يبذله المستر تشمبرلين من جهود صادقة للمحافظة على السلام ، وخاصة محاولاته الشخصية التي قام بها في هذا الصدد، وهنا لا بد لي من ذكر الأخطاء وسوء التقدير للحقائق الراهنة التي وقع فيها تشمبرلين في محاولاته ، وإن كنت لا أعارض الدوافع التي حدثت به إلى اتخاذ المواقف التي وقفها والتي تحتاج إلى الكثير من الشجاعة الأدبية التي كان المستر تشمبرلين يتمتع بها ، وقد مدحت فيه هذه الشجاعة بعد عامين في خطابي الذي ألقيته بمناسبة وفاته .

لقد كان في إمكان الحكومة أن تعتمد حجة أخرى ، بالرغم من أنها تعرض بسмعة الحكومة نفسها ، فلم يكن أمر عدم استعدادنا لدخول الحرب بالأمر الخفي ، لكن هل كان من هو أسرع مني للإدلال على هذه الحقيقة ؟ لقد سمحت بريطانيا للقوة الجوية الألمانية أن تفوق عليها ، وكانت جميع مراكزنا معرضة للهجوم ، دون أي حماية ، ولم يكن في بلد من أكبر بلدان العالم وأكثرها كثافة في السكان ، سوى مائة مدفع مضاد للطائرات ، وهذا المثل من أبسط الأدلة على الواقع الأليم .

لقد أدى اتفاق ميونيخ إلى سلب الحلفاء جيشاً قوياً ، هو الجيش التشيكوسلوفاكي المجهز بأحدى وعشرين فرقة نظامية ، بالإضافة إلى فرق الخط الثاني التي تبلغ ست عشرة فرقة ، أما خط دفاعها المحصن ، فقد كان يتطلب في هذه الأثناء ، ثلاثين فرقة ألمانية أي ما يعادل قوة الجيش الألماني الرئيسية بأسرها ، وقد ذكر الجنرال الألماني يودل أن ثلاث عشرة فرقة ألمانية، بقيت في الغرب عندما جرى توقيع اتفاقية ميونيخ ، وكانت الخسارة الفادحة حين قضت تلك المعاهدة بسلخ جزء هام من الأراضي التشيكية بما فيها مصنع سكودا البالغ الأهمية الذي كان يعتبر أهم مصنع في أوروبا الوسطى ، وكان إنتاجه بين شهر آب ١٩٣٨ وأيلول ١٩٣٩ معادلاً لما تنتجه جميع المصانع البريطانية من سلاح ، وبذلك أصبح هذا المصنع ملكاً خاصاً لهتلر قدمناه له على طبق من فضة .



الفصل التاسع

براغ ، ألبانيا ، وضمانة بولندا
وأحداث عام ١٩٣٩



يقول تشرشل :

في شهر كانون الآخر عام ١٩٣٩ ، سافر فون ريبتروب إلى وارسو لمواصلة هجومه الدبلوماسي المركز على بولندا ، فابتلاع تشيكوسلوفاكيا يجب أن يتبعه حصر بولندا . والمرحلة الأولى تقضي بعزلها عن البحر وتأكيد سيادة ألمانيا في دانزيغ ، ومد سلطتها على سواحل البلطيق حتى ميناء ميميل الليتوني ، أما الحكومة البولندية فقد قاومت بشدة هذا الضغط ، بينما كان هتلر يترقب الفرصة المناسبة لمبدأ العمليات العسكرية .

وفي شهر آذار انتشرت الشائعات عن تحركات مريبة تقوم بها الجيوش الألمانية في ألمانيا والنمسا ، خاصة في منطقة فينا سالزبورغ وقد قالت الشائعات أن أربعين فرقة قد أصبحت جاهزة للمعركة ، وفي نفس الوقت كان السلوفاكيون ، بعد أن تأكدوا من أن ألمانيا ستقوم بمعاونتهم ، يخططون لفصل بلادهم عن الجمهورية التشيكوسلوفاكية ، وأحسست بولندا بشيء من الارتياح ، بعد أن زال الخطر عنها مؤقتاً ، وأعلن وزير خارجيتها في وارسو أن حكومته تعطف على مطالب وآمال السلوفاكيين .

وفي بريطانيا ساد الشعور بالتفاؤل الضال على الرغم من المحن التي كانت تقاسيها تشيكوسلوفاكيا في ذلك الحين نتيجة للضغط الهائل من ألمانيا ، أما الصحف البريطانية التي سبق وأيدت اتفاقية ميونيخ ، فلم تفقد ثقتها في السياسة التي جرت إليها البلاد ، وقام وزير الداخلية وألقى خطاباً في العاشر من شهر آذار أعرب فيه عن أمله في مشروع خمس سنوات من السلم يؤدي بعد ذلك إلى خلق «العصر الذهبي» ، وكان البحث جارياً لإنشاء علاقات تجارية مع ألمانيا ، وقامت الصحيفة الأسبوعية الشهيرة «بنش» بنشر صورة كاريكاتورية لجون بول ، وهو يستيقظ من كابوس مرعب ، وفي نفس اليوم الذي نشرت فيه هذه الصورة ، وجه هتلر آخر إنذار إلى الحكومة التشيكية التي أصبحت ضعيفة واهنة بعد أن ضاغت خطوطها الدفاعية المحصنة نتيجة لاتفاقية ميونيخ وهجمت الجيوش الألمانية على العاصمة براغ واحتلتها دون مقاومة ، ولا زلت أذكر أنني كنت في غرفة التدخين ، أجلس مع المستر إيدن حين طالعنا صحف المساء بهذا النبأ الهام ، وقد ذهلتنا من هذا العدوان السافر المفاجئ الذي لم نكن نتوقعه ، ولم نصلق أن حكومة جلالته ، بها لديها من أجهزة قوية للاستخبارات لم تعلم من قبل بمثل هذا الهجوم المفاجئ .

وفي اليوم الرابع عشر من آذار أعلن السلوفاكيون استقلالهم ، واجتازت القوات

المجرية التي تؤيدها بولندا ، اجتازت الحدود إلى المناطق الشرقية من تشيكوسلوفاكيا التي سبق وطالبت بها ، ووصل هتلر بعد قليل إلى براغ ليعلن فرض حماية ألمانيا على تشيكوسلوفاكيا ويعلن ضمها إلى الرايخ الألماني .

وكان رد المستر تشمبرلين على هذا العدوان في خطاب ألقاه في مجلس العموم يوم الخامس من شهر آذار حيث قال : « في تمام الساعة السادسة من هذا الصباح تم احتلال القوات الألمانية لبوهيميا ، كما أصدرت الحكومة التشيكوسلوفاكية أوامرها بعدم المقاومة . » ثم قال عن الضمانة البريطانية لحدود تشيكوسلوفاكيا : « لقد تبدلت الأوضاع كلية عندما أعلن مجلس الداييت السلوفاكي انفصاله واستقلال سلوفاكيا ، وأدى بالتالي هذا الإعلان إلى نهاية الدولة التي ضمنا حدودها بسبب من الانشقاق الداخلي ، لذلك فإن حكومة جلالته تجد نفسها غير مرتبطة بذلك الالتزام ... » .

وكان من المقرر أن يلقي رئيس الوزراء المستر تشمبرلين خطاباً في برمنغهام بعد يومين ، وكنت أتوقع أن يكون هذا الخطاب متساعفاً ، إلا أنني فوجئت بتغير شامل لم أكن أنتظره : وقد أدرك تشمبرلين الخطأ الذي وقع فيه كما أدرك أنه خدع نفسه ، وفرض هذا الخطأ على الرأي العام البريطاني فبدل موقفه المسالم السابق مديراً له ظهره ، وقام ليكشف أمام العالم عن حقيقة شخصيته القاسية الصلبة ، قام المستر تشمبرلين ليلقي خطاباً عنيفاً هاجم فيه هتلر بشدة متهماً إياه بالتكرار لجميع الوعود التي قطعها على نفسه في مؤتمر ميونيخ وذكر جميع التأكيدات التي أكدها هتلر حين قال : « إن هذا هو آخر مطلب إقليمي لنا في أوروبا » وقال رئيس الوزراء :

« لقد كانت غالبية الشعب البريطاني مقتنعة ، بعد مؤتمر ميونيخ ، بوجوب التقيد بسياسة الحفاظ على السلام ، أما الآن فلا يسعني إلا أن أشارك هذا الشعب خيبة أمله المريرة وسخطه الشديد لتحطيم تلك الآمال ، إذ كيف يمكننا جمع هذه النقائص بين تأكيدات هتلر السابقة وأحداث هذا الأسبوع ؟ وكيف سنطمئن إلى أن هذا الهجوم لن يتلوه الهجوم الجديد على دولة صغيرة أخرى ؟ وهل سيكون هجومه هذا كخطوة أولى نحو فرض سيطرته على العالم بالقوة ؟ »

وفي الثلاثين من شهر آذار أعلن المستر تشمبرلين في البرلمان : بعد أن تأكد أنه أن خطوة هتلر التالية هي الهجوم على بولندا وابتلاعها ...

«في حال وجود أي اعتداء من شأنه أن يهدد استقلال بولندا، فإن حكومة جلالتنا ستجد نفسها مضطرة في الحال إلى مساعدة الحكومة البولندية بكل ما في وسعها، وقد أكدت حكومة جلالتنا ذلك إلى الحكومة البولندية.

«وأود في هذه المناسبة أن أقول، أن حكومة فرنسا قد فوضتني أن أوضح موقفها المطابق لموقفنا من هذه المسألة الهامة... وقد أبلغت جميع حكومات الدومينيونات بهذا القرار!!

ولم يكن الوقت يسمح لتبادل التهم بين الأحزاب في المجلس، وأيد جميع الزعماء الضمانة التي قدمتها الحكومة إلى بولندا، وقلت معلقاً على هذا القرار «لن نجد أية وسيلة أخرى سوى أن نعمل هذا» فقد كان هذا العمل ضروري بعد أن وصلنا إلى هذا الحد، ولكن هذه الضمانة تعني حتماً نشوب حرب عالمية...

وهكذا نصل الآن في هذه القصة من الأحكام الخاطئة التي ارتكبها رجال أكفاء من ذوي النيات الحسنة، ولا شك، بعد أن وصلنا نتيجة لتلك الأخطاء إلى هذا المأزق، لنضع المسؤولين عن زمام الأمور مهما كانت نياتهم حسنة، يتحملون وزر أعيالهم أمام التاريخ، وينظرة إلى الوراء سنجد ماسبق وقبلناه أو ماسبق وتحلينا عنه: لقد كانت ألمانيا منهوكة القوى مجردة من السلاح بفضل معاهدة صرامة، وبعد ذلك قامت ألمانيا لتسلح من جديد وتحدي تلك المعاهدة، ثم تحاذلنا فضوقت علينا ألمانيا في ميدان الطيران الحربي، ثم احتلت منطقة الراين بالقوة واحتلت بناء تحصينات خط سيغريد، ثم إنها أقامت معاهدة محورها وبين إيطاليا، ثم انقضت على النمسا وابتلعته، ثم تحلينا نحن عن تشيكوسلوفاكيا، وساعدنا على تحطيمها حين وقعنا معاهدة ميونيخ وسلمنا بذلك خط دفاعها المحصن إلى الألمان بالإضافة إلى مصانع السلاح في سكودا التي انتقلت بموجب تلك المعاهدة إلى أيدي الألمان ليقوموا بتزويد أنفسهم بالسلاح، ثم تجاهلنا وساطة ومساعي الرئيس روزفلت لإقامة سلام في أوروبا، ثم إهمالنا لرغبة الاتحاد السوفيتي الصداقة في الاشتراك مع دول الغرب لإنقاذ تشيكوسلوفاكيا، كل هذه الأخطاء والتخليات ذهبت هباءً منثوراً.

والآن جاءت بريطانيا لتقديم ضمانتها لبولندا، تلك الدولة التي ساعدت على تقطيع أوصال تشيكوسلوفاكيا قبل ستة أشهر فقط، وسنضطر الآن لكي ندافع عنها أن نهاجم ألمانيا التي أصبحت أكثر قوة ومناعة مما كانت عليه عام ١٩٣٨ حين تراجعنا، أما الآن فقد

عقدنا العزم على مجابهة ألمانيا، لكن هذا القرار قد اتخذناه في أسوأ الظروف، وعلى أسس غير مقنعة والتي ستؤدي بحياة الملايين من البشر ...



ودفع البولنديون ثمن مقاطعة نيشن التي استولوا عليها من تشيكوسلوفاكيا، فعندما استقبل فون رينتروب سفير بولندا في برلين، كانت لهجته جافة حادة أكثر من المرات السابقة، فقد نجم عن احتلال بوهيميا وإنشاء دولة سلوفاكيا، وصول الجيش الألماني إلى حدود بولندا الجنوبية، وقد قال له السفير البولوني، أن رجل الشارع العادي لا يمكنه فهم السبب الذي دعا ألمانيا إلى حماية سلوفاكيا بشكل يعتبر عملاً عدوانياً موجهاً ضد بولندا، كما طلب السفير معلومات عن المحادثات التي جرت بين فون رينتروب ووزير خارجية ليتوانيا، وبالأخص فيما يتعلق بمرافأ ميمل، ولم يأت الرد على سؤاله هذا إلا بعد يومين حين احتلت ألمانيا هذا المرفأ.

ولم يعد بالإمكان صد الهجوم الألماني على أوروبا الشرقية، إذ أن المجر قد وقفت إلى جانب ألمانيا، كما أن بولندا حين تخلت عن تشيكوسلوفاكيا أصبحت غير مستعدة للتعاون مع رومانيا، كما أنها ورومانيا لا ترضيان بمرور القوات الروسية عبر أراضيها للوقوف في وجه ألمانيا، وكان محور الموضوع يدور حول التفاهم مع روسيا بالذات !!

وفي السادس والعشرين من شهر آذار ألقى موسوليني خطاباً عنيقاً بين فيه بشدة مطالب إيطاليا من فرنسا بشأن البحر الأبيض المتوسط، وفي السابع من نيسان نزلت القوات الإيطالية في ألبانيا ولم تلبث أن احتلت البلاد كلها بعد مدة وجيزة، وهكذا أصبحت ألبانيا نقطة ارتكاز للجيش الإيطالي للاعتداء على اليونان، بالإضافة إلى تهديدها ليوغوسلافيا وشل حركتها.

وفي الخامس عشر من نيسان بعث الرئيس روزفلت رسالتين شخصيتين إلى هتلر وموسوليني طلب منهما التعهد بعدم القيام بأي عدوان جديد لمدة عشر سنوات أو خمس وعشرين سنة ... وقد رفض موسوليني أن يقرأ الرسالة تلك، إلا أنه قال بعد أن قرأها: «إنها نتيجة لمرض شلل الأطفال»، ولم يكن ليعلم أنه سيعاني هو نفسه فيما بعد من آلام مبرحة أشد من آلام شلل الأطفال.



في شهر آذار من السنة نفسها، شاركت في وضع مشروع قرار إلى المجلس نطلب فيه تأليف حكومة جديدة، وقد شاركني في وضع هذا المشروع حوالي ثلاثين نائباً محافظاً من بينهم المستر أنطوني إيدن، وظهرت حركة قوية تدعو إلى تأليف حكومة جديدة قوية، واستمرت طوال الصيف، وكانت الشعارات تنادي بإدخالنا إلى مثل هذه الحكومة، وشعر السير ستافورد كريس، الذي كان مستقلاً في موقفه، أحس بقلق شديد من الأخطار التي تهدد الوطن، وقام بزيارتي عدد من الوزراء ودعيت إلى تأليف حكومة «تضم الجميع»، ولم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئاً في هذه الحال، إلا أن وزير التجارة، المستر ستانلي، كان متحمساً لهذه الفكرة، فكتب إلى المستر تشمبرلين عارضاً منصبه الوزاري إذا كان هذا يسهل إعادة تأليف وزارة جديدة وعلى أسس جديدة، وقد اكتفى المستر تشمبرلين باستلام رسالته دون التعليق عليها.

وبنت الصحف هذه الفكرة على مرور الأيام، وتزعمت الدايلي تلغراف والمانشستر غارديان هذه الحملة وراحت تطالب بوزارة جديدة، وقد دهشت لهذا الحماس في المطالبة بوزارة جديدة، وحسرت أرى في الشوارع اللافتات ترتفع وتحمل شعارات «تشرشل يجب أن يعود»، وبدأت التظاهرات السلمية تجوب العاصمة وتتجمع أمام المجلس تطالب بإشراكي بالوزارة، ولم أكن في ذلك الحين على اطلاع بهذه الأساليب من الإثارة، إلا أنه لو طلب مني المشاركة في الحكم لما ترددت في ذلك، وقد شاء الحظ أن يحالفني في هذه الفترة، فسارت الأمور بطريقها الصحيح لتؤدي إلى النتيجة المرتقبة والخيفة...



الفصل العاشر

على حافة الحرب

(وتدهور العلاقات مع ألمانيا)



يقول تشرشل :

وأخيراً وصلنا إلى النقطة الحاسمة ، التي تدهورت فيها جميع علاقاتنا مع ألمانيا ، والتي راحت تهدد بالانقطاع ، ونحن الآن نعرف أن هذه العلاقات لم تكن صادقة بين بريطانيا منذ اليوم الذي جاء فيه هتلر إلى سدة الحكم ، فقد كان هتلر يحاول إكراهنا بشتى الوسائل والطرق على قبول الوضع الحاضر والسماح له بإطلاق يده في شرق أوروبا بينما كنا نقوم بدورنا في تهدئة الخواطر بكل إخلاص ، وها قد جاء الوقت الذي فقدت فيه حكومة تشمبرلين كل أمل في تسوية الوضع المتنازع ، وما إن اقتنعت الوزارة أن ألمانيا جادة في طريق الحرب ، حتى سارعت إلى عقد المحادثات ومنح الضمانات دون تفكير بما قد تجره هذه الضمانات علينا من أعباء مرهقة ، بالإضافة إلى إمكاناتنا المحدودة في تقديم العون لتلك البلاد ، وهكذا منحت ضمانات أخرى بالإضافة إلى الضمانات السابقة ، إلى كل من اليونان ورومانيا وعقدت حلفاً مع تركيا .

وترتب بالتالي ، على الحكومة ، أن تدرس إمكانية تطبيق الوسائل العملية لتنفيذ هذه الضمانات نحو بولندا ورومانيا ، وقد كانت هذه الضمانات غير ذات قيمة ، من الناحية العسكرية ، ما لم تكن ضمن برنامج من الاتفاقات يعقد مع روسيا ، وحاولت الوزارة أن تنفذ هذا التحالف مع روسيا فطلبت من السفير البريطاني في موسكو أن يبدأ سلسلة من المحادثات مع المسيو ليفينوف ، ولم أكن أنتظر أية نتيجة من هذه المحادثات بسبب معاملتنا الجافة لروسيا في السابق ، وبالرغم من ذلك فقد قدم الروس مشروعاً لعقد تحالف بين بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي يقضي بتقديم العون إلى دول أوروبا الشرقية التي تتعرض للغزو الألماني ، وكانت العقبة الكبرى التي عرقلت هذا التحالف ، هو خوف تلك الدول الصغيرة من التعاون مع روسيا الذي يقضي بدخول الجيوش السوفيتية إلى أراضيها للدفاع عنها ضد ألمانيا ، والسبب في ذلك خوفها من قلب نظام الحكم الحاضر وضم تلك البلاد إلى النظام الشيوعي السوفيتي التي كانت تعارضه تلك البلاد ، ووقعت البلاد في حيرة من أمرها ، هل تخاف الغزو الألماني أكثر أم العون الروسي ، وكان هذا التردد السبب في شل حركة السياسة البريطانية والفرنسية في تلك المنطقة .

وقف المستر تشمبرلين مذهولاً أمام هذه المشكلة الجديدة، وبدأ طريقة الماطلة والتسويق، ولو أنه قبل هذا العرض الروسي لتغيير وجه التاريخ وسارت الأمور بطريقة تختلف عما وصلت إليه، وعلى الأقل، لن تكون النتيجة بأسوأ مما أصبحت عليه بالفعل.

وساد الصمت، وأعدت أنصاف الحلول والتسويات والمساومات، وأصيب المشروع بضربة قاصمة، ومنيت محادثات ليتفينوف بالفشل الذريع، وبداله أن التفاهم مع الدول الغربية أصبح مستحيلاً، وفقدت الثقة بين الروس والغرب، وشعروا بوجوب اتباع سياسة خارجية مختلفة تماماً عن السابق، وذلك للحفاظ على سلامتهم، وصدر البيان الرسمي القاضي بعزل ليتفينوف من منصبه في وزارة الخارجية، وتكليف مولوتوف، رئيس الوزارة، بمهام الوزارة بدلاً منه، وهكذا تم إقصاء الوزير اليهودي الذي كانت ألمانيا تكره وجوده، وتعاون مولوتوف مع ستالين نفسه في رسم سياسة خارجية جديدة أكثر تحزماً من السياسة السابقة، وأكثر انسجاماً مع مصلحة روسيا الخاصة، ولم يكن أمامهم إلا طريق واحد، هو تأييد هتلر المطلق.

مخاوف تشنر شمل:

يقول تشنر شمل :

كان خوفي شديداً من تراجع حكومة جلالته عن ضمانتها لبولندا في حال تعرضها لهجوم ألماني واسع النطاق، ولكن المستر تشمبرلين كان قد عقد العزم على خوض معركة ضارية مهما كان هذا العزم مريزاً بالنسبة له، ولكنني لم أكن على معرفة وثيقة به كما أصبحت فيما بعد، وكان خوفي أن يقوم هتلر «بيلفة» جديدة من بنات أفكاره، كاختراعه ل سلاح جديد رهيب يمكنه من تخويف مجلس وزارتنا الثقيل بالأعباء، وكان الأستاذ ليندمان يحدثني دائماً عن الطاقة الذرية، وقد طلبت إليه أن يطلعني على المعلومات الكافية حول هذا الموضوع، ففعل ويعنت برسالة إلى كنغزلي وود، وزير الطيران، هذا نصها :

« قرأت في إحدى الصحف قبل أسابيع، عن قصة الطاقة الهائلة التي يمكن بعثها من اليورانيوم، وقد توصلت الاختبارات الحديثة إلى اكتشاف هذه الطاقة بعد أن يتجزأ هذا

أما موقف موسوليني المستر فكان اهتمامه الشديد في تثبيت مركزه في البحر الأبيض المتوسط وشمال إفريقيا، وحصوله على نتائج مرضية من جراء تدخله في إسبانيا، واحتلاله لألبانيا، ولم يكن يرغب في الدخول في حرب أوروبية من أجل احتلال ألمانيا لبولندا. فبالرغم من تبججه وادعاءاته فكان يدرك في قرارة نفسه ضعف مركزه العسكري السياسي: وربما كان على استعداد للدخول في الحرب عام ١٩٤٢ بعد أن تزوده ألمانيا بالسلاح أما في عام ١٩٣٩ فلا، ثم لا ...

وفي الصيف، بعد أن اشتد الضغط على بولندا، أراد موسوليني أن يمثل الدور الذي مثله في ميونيخ، كوسيط للسلام، إلا أن هتلر كان قد عقد العزم على احتلال بولندا، وأوضح لتشيانو عن تصميمه لتسوية الوضع مع بولندا، وأنه سيضطر للدخول في حرب مع إنكلترا أو فرنسا، وهو يطلب من إيطاليا الدخول معه في هذه الحرب، وقال: «وإذا قررت إنكلترا الاحتفاظ بقوات كافية في بلادها، فعليها أن ترسل بفرقتين من المشاة إلى فرنسا مع فرقة مدرعة، وعليها أن تبعث بقاذفات القنابل إلى ألمانيا، أما الطائرات المقاتلة فيمكنها الاحتفاظ بها في بلادها، لأنها ستحتاج إليها هناك، لأن قواتنا الجوية ستهاجم إنكلترا في الحال، وستحتاج إلى تلك المقاتلات للدفاع عن بلادها، أما عن فرنسا فقال أن تدمير بولندا لن يستغرق طويلاً، وستتمكن ألمانيا من حشد جيوشها على خط ماجينو وستكون على أتم الاستعداد للدخول في معركة الحياة أو الموت ... ورجع تشيانو لينقل إلى رئيسه ما سمعه من هتلر، فلقاه مقتنعاً هو الآخر أن الدول الديمقراطية ستخوض الحرب، كما وجهه أكثر تصميمًا على البقاء خارجها.



ماذا قال ستالين؟!

يقول تشرشل:

وقامت محاولات جديدة للتقرب من روسيا، إلا أنها باءت جميعها بالفشل الذريع، وقد قال لي ستالين حين زرته في شهر آب عام ١٩٤٢، عندما كنا في الكرملين، موضحاً

النوع من الذرة بواسطة النيوترون ، وقد أوحى هذه التجارب عن وجود قوة هائلة من المتفجرات التي يمكن أن تحتوي على قوة تدميرية مخيفة، ولكن يمكننا الاطمئنان إلى ناحية هامة ، هو أن هذا الاكتشاف الجديد لا يمكن وضعه موضع الاستعمال قبل عدة سنوات .

« وهناك دلائل تشير إلى أن القصص والروايات سخاك حول إمكانية استخدام هذا الاختراع العلمي الجديد لاستخراج مواد متفجرة سرية منه ، قادرة على أن يمحوا لندن من الوجود ، وستجري محاولات عديدة من قبل رجال الطابور الخامس لإقناعنا باستخدام هذه التهديدات لقبول عملية استسلام من نوع جديد ، لذلك رأيت من واجبي أن ألقت نظرك إلى ذلك،

أما الخوف من أن يكون الألمان قد اكتشفوا مثل هذا السلاح الرهيب ، فهذا لا يستند إلى أي أساس علمي صحيح، ولا شك في أن التلويح بهذا السلاح سيظهر وستتشر الأقاويل المخيفة وستضخم الإشاعات، وكل أملي ألا تأخذ الجهات المسؤولة بهذه الإشاعات المضخمة .

لقد كان هذا التكهن صحيحاً ودقيقاً بنفس الوقت ، فالألمان لم يجدوا الطريق الصحيح، بل تبعوا طريقاً خاطئاً وما لبثوا أن تخلوا عن فكرة البحث عن اختراع القنبلة الذرية ، واستمروا في أبحاثهم لاختراع الصواريخ الموجهة والطائرات التي تطير دون طيارين ، بينما كنت والرئيس روزفلت نتخذ المقررات الهامة التي سأتي على ذكرها في الوقت المناسب ، لإتمام صنع القنابل الذرية على نطاق واسع .



تصريح موسوليني:

يقول تشرشل :

في السابع من شهر تموز صرح موسوليني للسفير البريطاني بكلمة حول موقف بلاده من ألمانيا فقال : « قل لتشمبرلين ، أنه إذا كانت بريطانيا راغبة حقاً في الدفاع عن بولندا وحمل السلاح من أجلها ، فإن إيطاليا لن تتأخر عن حمل السلاح والاشتراك مع حليفها ألمانيا » ،

ناحية واحدة من موقف روسيا عندما قال: «لقد تأكد لنا أن الحكومتين البريطانية والفرنسية غير عارمتين على الدخول في حرب مع ألمانيا إذا ما هاجمت بولندا، وإن رغبتهما في عقد الحلف الروسي - الفرنسي - البريطاني ليست كما تبدو في الظاهر، بل لرغبتهما في كبح جماح هتلر، وكنا على ثقة تامة أن هذا الحلف لن يوقف هتلر».

وقد سأل ستالين أحد المتفاوضين: «كم فرقة تستطيع فرنسا أن تقذف بها إلى الميدان ضد ألمانيا؟» وكان الرد «مائة فرقة» ثم سأل «وكم تستطيع إنكلترا أن ترسل؟» وجاء الرد «فرتين أولاً، ثم فرتين فيما بعد».

ثم سأل: «هل تعلمون كم فرقة نستطيع أن نقذف إلى الميدان في حال دخلنا الحرب ضد ألمانيا؟» ولما لم يجبه أحد من المتفاوضين استطرد قائلاً: «أكثر من ثلاثمائة فرقة! ...»

وهنا أرى من الواجب أن أسجل نص الميثاق المعقود بين ألمانيا وروسيا، بعد أن فشلت المحاولات الغربية لإشراك روسيا في حلف ضد ألمانيا، ويعد أن اتجهت روسيا نحو ألمانيا التي سارعت إلى عقد ميثاق عدم اعتداء هذا نصه.

«ترى الدولتان المتعاقدتان أن من الواجب عدم القيام بأي عمل وقد احتفل بتوقيع هذا الميثاق باحتفال رسمي كبير، وقام ستالين ليشرّب نخب هتلر وقال: «أنا أعرف أن الشعب الألماني يحب زعيمه حباً كبيراً، لذلك أحب أن أشرب نخبه».

نستخلص مما تقدم أن الاستقامة هي السياسة المثالية، وسنرى في هذا الكتاب أمثلة عديدة على هذه النظرية، فقد يبدو الساسة والدعاة، على خطأ في حساباتهم التي افترضوها، إلا أن هذا المثل يبقى أوضح من غيره، فبعد اثنين وعشرين شهراً أرغم ستالين وعشرات الملايين من الشعب الروسي أن يدفعوا ثمناً باهظاً وخيفاً لما وقع

الفصل الحادي عشر

الحرب

وبيان هتلر الأول



يقول تشرشل :

أصدر هتلر بيانه الأول في الحادي والثلاثين من شهر آب :

١ - لما فشلت جميع الاحتمالات السياسية لتسوية الوضع على الحدود الشرقية بطريقة سلمية ، ولما كانت الأوضاع الراهنة غير محتملة ، فقد قررت أن أقرض الحلول بالقوة .

٢ - يجب تنفيذ الهجوم على بولندا حسب الخطة المرسومة ، وقد تقرر موعد الهجوم يوم الأول من شهر أيلول عام ١٩٣٩ في تمام الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحاً .

٣ - من المهم أن يكون الاعتداء من جانب إنكلترا أو فرنسا ، بشكن واضح ، وفي حال وقوع حوادث طفيفة على الحدود ، يجب الاكتفاء بالعمل المحلي فقط .

وهكذا قامت ألمانيا بهجومها على بولندا في صباح الأول من شهر أيلول عام ١٩٣٩ ، كما أصدرت حكومتها أمراً بتعبئة جميع القوات المسلحة ، وبعد ظهر ذلك اليوم طلب مني رئيس الوزراء أن أحضر لزيارته في دوانغ ستريت ، وقد قال لي : «إنه لم يعد هناك من أمل في تجنب الحرب مع ألمانيا ، لذلك فهو يقترح تشكيل وزارة صغيرة للحرب ، تضم وزراء دون وزارات معينة لتسيير دفة الحرب » ، وقال : «إن حزب العمال غير مستعد للاشتراك في حكومة ائتلافية ، أما الأحرار فهم يطلبون المشاركة في الحكم » ، ثم طلب مني أن أكون عضواً في تلك الوزارة الحزبية ، وقد وافقت على هذا الاقتراح دون أي تعليق .

وفي المساء انعقد المجلس ، وألقى رئيس الوزراء خطاب تهدئة استقبله المجلس استقبالا سيئاً ، وعلا الصراخ والهتافات ، ولم يكن ثمة شك في أن المجلس استقبل استقبالا سيئاً ، وعلا الصراخ والهتاف ، ولم يكن ثمة شك في أن التاسعة والنصف مساءً ، وأن هذا الإنذار سيعقبه إنذار ثان وثالث ، وأعلنت الإذاعة أن رئيس الوزراء سيوجه كلمة إلى الشعب في الساعة الحادية عشرة والرابع من صباح الثالث من أيلول ، أي بعد أن تنتهي مهلة الإنذار الثالث .

وتوجه الرئيس بكلمته معلناً أن بريطانيا أصبحت في حالة حرب مع ألمانيا، وما أن أنهى كلمته، حتى سمعنا صوتاً حاداً غريباً ينطلق، سرعان ما اعتدنا عليه فيما بعد، وهبطنا إلى الملجأ المخصص لنا على بعد مائة ياردة من البيت، ويتألف من قبو يلجأ إليه السكان، وكانت دلائل المرح بادية على الوجوه، وهي عادة إنكليزية يتمسك بها الإنكليز في أوقات الشدائد.

وبعد عشرة دقائق دوت الصفارة من جديد معلنة انتهاء الغارة، فصعدنا وتفرقنا إلى بيوتنا وتوجهنا إلى أعمالنا، وكان على أن أتوجه إلى مجلس العموم الذي اجتمع عند الظهر حسب العادة بعد أن تلونا صلاة استهلاكية قصيرة، وفي أثناء الجلسة تلقيت رسالة من رئيس الوزراء يطلب مني موافاته إلى مكتبة بعد انتهاء الجلسة، وقال لي المستر تشمبرلين: إنه يعرض على وزارة البحرية، مع مقعد في وزارة الحرب، وسررت جداً لهذا العرض، فقد كنت آمل أن يعهد إليّ بمهمة معينة محددة، وقد عرضت على هذه المهمة بالإضافة إلى مركزي السابق في الوزارة.

وما إن توليت مركزي في وزارة البحرية، حتى بعثت بكلمة سرية إلى الأميرالية، أخبرهم فيها عن توليتي للقيادة فوراً، وأبلغهم بأني سأصل إلى الأميرالية في تمام الساعة السادسة، وكان المجلس رقيقاً جداً إذ بعث بهذا الخير الطريف إلى جميع الوحدات يقول: «لقد عاد ونستون»، وهكذا رجعت مرة أخرى إلى نفس الغرفة التي غادرها حزينا منذ ربع قرن، عندما تنحيت عن وزارة البحرية بعد استقالة اللورد فيشر، وعندما جلست إلى مقعدي القديم، رأيت شنطة الخرائط القديمة التي أعدتها في سنة ١٩١١ م، وفيها خريطة بحر الشمال التي كنت أطلب من دائرة المخابرات أن تسجل لي عليها تحركات الأسطول الألماني كل يوم، كي أكون على اطلاع دائم على تحركاته، وهكذا بعد مضي ربع قرن، عاد نفس الخطر القاتل يهددنا مرة أخرى، وهانحن نضطر مرة أخرى إلى حمل السلاح لنصرة بلد صغير تعرض للغزو وأن نقاتل دفاعاً عن حياتنا وشرفنا ضد قوة وغضب شعب شجاع هو الشعب الألماني المحب للنظام، والبعيد عن الرحمة...

كان أول عمل قمت به في وزارة البحرية، تشكيل دائرة خاصة بي للأرقام، وعهدت

إلى الأستاذ ليندمان ، صديقي والمؤمن الذي منذ سنوات بها ، وقد اضطرت على إبقائه بصورة مستديمة مع نخبة من الرجال الأخصائيين والاقتصاديين الذين لا يهتمون بشيء سوى بالحقائق والوقائع ، وقد استطاعت هذه المجموعة من الرجال الأكفاء أن تقدم أصدق الجداول والرسوم ، وتشرح لي سير الحرب يوماً بيوم .

ولم تكن ثمة هناك دائرة خاصة للإحصاء ، فقد كانت الوزارات تقدم ما لديها حسب أرقامها وحساباتها ، وكانت كل وزارة تتبع طريقة في الإحصاء تختلف عن طريقة زميلتها الأخرى ، كما كانت الوزارات تتحدث بلغات واصطلاحات مختلفة ، كثيراً ما كانت تخلق البلبلة وإضاعة الوقت ، أما أنا فكانت مصاصري كلها أكيدة وثابتة في المعلومات التي كنت أقدمها .

التدمير السريع لبولندا:

يقول تشرشل :

في مجلس الوزراء كنا نراقب عمليات التدمير السريعة لدولة ضعيفة ، حسب البرنامج الذي أعدته هتلر ، فقد قذف بألف وخمسمائة طائرة إلى بولندا كما أرسل جميع فرقة الآلية والمدركة ، التي اشتركت مع ست وخمسين فرقة أخرى من المشاة ، ولم يكن البولنديون أكفاء لملاقاة هذا العدد الضخم ، أو هذه المعدات الهائلة ، كما لم يكونوا قد استعدوا ورسوموا خطة حكيمة لحماية أنفسهم ، فكل ما عملوه من استعداد عسكري أنهم وزعوا جيشهم على طول الحدود ، بينما بقيت البلاد دون أية قوة احتياطية ، وهكذا لم تصمد بولندا أمام الجيش الألماني إلا أسبوعين اثنين ، وما لبث جيشها الذي يعد مليونين ، أن فقد معظم محاربيه وأضحى لا قيمة له .

أما روسيا ، فقد أرسلت بجيوشها في السابع عشر من شهر أيلول عبر حدود بولندا الشرقية الخالية من أي مقاومة ، ثم سارت غرباً ، وفي الثامن عشر منه تلاقت مع الجيوش الألمانية في بريست ليتوفسك ، وزادت بذلك عملية التدمير المخيفة ودافعت وارسو بشجاعة فائقة واستسبل أنباؤها ، وبعد عدة أيام من القصف الجوي المستمر ، من المدفعية

الألمانية الثقيلة التي نقلت عبر الطرق الرئيسية الألمانية من الحدود الغربية ، توقفت إذاعة وارسو عن البث ، ودخل هتلر إلى المدينة الخربة ، وانتهى كل شيء خلال شهر واحد وأضحى الشعب البولندي الذي يبلغ عدده خمسة وثلاثين مليوناً تحت رحمة الغزاة الذي أمعنوا فيه تقتيلاً .

لقد شاهدنا تكتيكاً جليداً من التعاون الوثيق بين القوات الجوية المغيرة والقوات البرية الزاحفة ، والقصف العنيف للمدن وطرق المواصلات الرئيسية كذلك رأينا تسليح الطابور الخامس وبث العيون ، وهبوط المظليين بصورة واسعة النطاق ، كما رأينا الاندفاع الهائل لقوات ضخمة من الآليات والمدفعات التي لا يمكن مقاومتها ... ولم تكن بولندا آخر من تحتم عليها أن تعاني مثل هذه المحنة .



رسالة روزفلت:

يقول تشرشل :

ساد الجمود لفترة طويلة ، العالم الغربي ، بعد هجوم هتلر الساحق على بولندا ، وعمت الدهشة لهذا التوقف الغرب ، بعد أن أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا .. إلا أن التحركات الألمانية ، وعمليات الهجوم المباغت على السفن التجارية في البحر ، قد أزعج حركة التجارة ، وبدأت السفن التجارية ، تغادر الموانئ يومياً على شكل مجموعات وقوافل وتزودت كل واحدة منها بمدفع مضاد وببجارات مدربين ، وراحت كاسات الألغام تجوب البحار بالإضافة إلى القطع البحرية الصغيرة المجهزة بقتابل الأعماق ضد الغواصات وأدت عملها على خير ما يرام ، وشعرنا بأن هجوم الغواصات الألمانية على السفن التجارية قد انتهى ، وغدت البحار تحت إشرافنا وسيطرتنا ، وكان من المتوقع أن يزداد عدد الغواصات الألمانية بعد مدة وجيزة ، لأن بناء الغواصات كان يجري في جميع الموانئ الألمانية بسرعة هائلة ، وكان علينا أن نتظر بدء حرب الغواصات خلال سنة أو سنة ونصف على الأكثر ، إلا أننا كنا نتظر إكمال بناء مدمراتنا وقطعنا المضادة للغواصات التي أصبحنا بفضلها نملك زمام الأمور لمواجهة الخطر بقوة .

وتلقت رسالة من الرئيس روزفلت، وكنت قد قابلته مرة واحدة أثناء الحرب الأولى في حفلة عشاء، وقد أدهشتني حيويته وشبابه وحضور ذهنه، وقد كتب لي في رسالته الشخصية تلك: «لما كنا قد توصلنا إلى مراكز مشابهة أثناء الحرب العالمية الأولى، فإني أريد أن تعلم مدى سروري وغبطتي حين علمت برجوعك مرة أخرى إلى الأميرالية، وربما تكون مشاكلكم قد ازدادت تعقيداً، إلا أن المشاكل الرئيسية لم تتغير، وفي هذه المناسبة أود أن أؤكد لك ولرئيس الوزراء عن استعدادي التام وترحيبي الكبير حين ترغبون الاتصال بي شخصياً بواسطة رسائل مغلقة، وأن تنقل لي كل ما تريد أن نقله، وبوسعكم إرسال رسائلكم الشخصية ضمن حقيقتنا الدبلوماسية أو حقيقتكم».

وأجبت على رسالته في الحال واستخدمت توقيع «شخص من البحرية» وبدأنا بذلك سلسلة من المراسلات الطويلة الخالدة التي بلغ عددها ألف رسالة، والتي استمرت حتى وفاة الرئيس روزفلت.



وقع في شهر تشرين الأول حادث أثر على الأميرالية بشدة، فقد جاء التقرير يقول أنه في ليل الرابع عشر من الشهر ذاته دخلت غواصة إلى ميناء سكابافلو، وأغرقت إحدى بوارجنا وهي في الميناء، بعد أن انطلقت الطوربيدات بشكل لا يصدق، وأصاب أحدهما قوس البارجة وأحدث فيه انفجاراً كبيراً، ولم يصدق قبطان البارجة ما حدث لبارجته وهي راسية في الميناء مطمئنة، وظن أن الانفجار داخلي، ومرت عشرون دقيقة بين الطوربيد الأول والثاني الذي ألحقته بسيل كبير منها فأغرقت البارجة بعد أن تحطمت شر تحطيم، وفي عشرة دقائق ابتلعها المياه، وكان معظم البحارة في مراكز عملهم، لكن السرعة التي تم فيها إغراق البارجة جعل من المستحيل عليهم النجاة من الغرق المحتم.

ولا ريب أن هذه المأساة، كانت عملاً بطولياً رائعاً لقائد الغواصة الألمانية القبطان برايمين، وقد اهتز الرأي العام البريطاني لهذا العمل الجريء، وكان في إمكان هذا الحادث أن يقضي على أي وزير من الوزراء لو اعتبر مسؤولاً عن الإجراءات الدفاعية التي اتخذت قبل

الحرب ، أما الكوفي حديث عهد في الوزارة ، فقد تخلصت من هذه الأزمة ومن اللوم ومن استغلال المعارضة لهذا الحادث .

وجاءنا الخطر المميت الثاني ، فقد أغرقت اثنتا عشرة سفينة تجارية عند مدخل موانئنا خلال شهري أيلول وتشرين الأول ، بالرغم من تنظيم تلك الموانئ من الألغام ، وقد شكت الإميرالية على القور ، بإمكانية استخدام العدو للألغام الممغنطة ، ولم تكن هذه الألغام جديدة علينا ، فقد استخدمناها على نطاق ضيق في نهاية الحرب الأولى ، لكن الأضرار الفظيعة التي يمكن أن تحدثها الألغام الأرضية ، لم يكن فهمه شيئاً سهلاً ، وكان من المتعذر علينا أن نجد طريقة لعلاج هذه المشكلة الجديدة قبل أن نرى نموذجاً من هذه الألغام ، وقد تطورت الأعمال وزادت الخسائر ، إذ بلغت خلال شهري أيلول وتشرين الأول نحواً من ستة وخمسين ألف طن ، مما حداً بهتلر إلى الإشارة إلى هذا « السلاح السري » الجديد الذي لا يمكن اتقاؤه ، وفي ذات ليلة ، بينما كنت في شار تويل جاءني الأميرال باوند ، وقد بدأ عليه القلق والاضطراب وأخبرني أن ست بواخر جديدة قد أغرقت عند مداخل نهر التايمز ، وكانت البواخر التي تدخل موانئنا وتخرج منها تجاوز المئات كل يوم ، وكانت حياتنا كلها متوقفة على هذه الحركة المستمرة ، ولا شك أن الخبراء لدى هتلر قد أبلغوه أن هذا النوع الرهيب من الهجوم سيقضي علينا ويدمرنا ، ومن حسن الحظ أن هتلر كان ينتج هذا السلاح على نطاق ضيق محدود .

وفي الثاني والعشرين من شهر تشرين الآخر ، وفي تمام الساعة التاسعة شوهدت طائرة ألمانية تسقط شيئاً ضخماً بمظلة كبيرة إلى البحر قرب شوبارنيس ، ويطوق انساحل هنا مساحات شاسعة من الطمي التي تظهر عند حدوث المد ومن الممكن فحص هذا الشيء الضخم حال حدوث الجزر ، وهنا ساعدنا الحظ وواتت الفرصة المناسبة ، وفي الحال استدعى إلى مركز الإميرالية ضابطان من أبرز الضباط المتخصصين بالأسلحة البرمائية وهما : أوفري ولويس ، وتحدثت معهما ومع لورد البحر الأول ، واستمعت إلى آرائهما ، وفي تمام الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل توجهنا إلى ساوثيند لأداء مهمتها الخطرة في الكشف عن هذا الشيء الغامض ، وتمكنا قبل فجر يوم الثالث والعشرين من العثور على

اللغم وفحصه .

وبدأت عملية دقيقة عندما وجد الضابطان لقيا آخر قريباً من اللغم الأول ، وراح أوفري يحاول تعطيل اللغم الأول ، بينما وقف زميله لويس ومعه البحار القدير فيرنيكومب يراقبه استعداداً لكل مفاجأة ، وبعد ساعات رهيبة تم تعطيل اللغم الأول واستخلاصه ، ثم أرسل إلى بورتسموث لإجراء الدراسات الدقيقة عليه ، ووصل في الحال أكثر من مئة ضابط ليشاهدوا الخطر الذي كان يهدد حياتنا .

وبدأنا منذ ذلك الحين سلسلة من التجارب العلمية ، بعد أن تمكنا من اكتشاف سر تركيب الألغام ، لاختراع وسائل الدفاع ضد هذه الألغام وتوصلنا إلى اختراع بعض الأسلاك الكهربائية وتطوير السفن بها ، إلا أن هذه الطريقة لم تؤدي إلى النتيجة المطلوبة ، فقد استمرت حوادث الانفجارات لكن السفن المصابة لم تفرق في الحال ، بل كانت تستمر في مسيرها إلى أقرب مرفأ لإصلاحها من جديد .

وبعد مدة طويلة من التجارب توصلنا إلى اختراع وسائل أكثر فعالية لمكافحة الألغام ، وكانت النتيجة مذهشة ، وتمكنت أخيراً كانسات الألغام من تطهير البحار من جميع الألغام المزروعة وبدأ الخطر يزول ، وقد كلفتنا هذه العملية الكثير من الجهود الحربية ، واضطررنا إلى تحويل الكثير من المعدات والأموال من ميادين أخرى إلى هذا الميدان ، وقد جندنا لهذه العملية الهامة ما يقارب الستين ألف رجل ، إلا أن النتائج كانت مذهلة وتأثيرها المعنوي على رجالنا ورجال أسطولنا التجاري كانت رائعة ، ولم نكن حتى ذلك الوقت قد تعرضنا لأي اعتداء معين في الميدان الواسع للمعارك البحرية ، لكن هذا الاعتداء سرعان ما حدث ...

ففي يوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الآخر ، شاهد الطراد المسلح «راولبندي» بينما كان يقوم بعملية استكشاف بين أيسلندا وفاروس ، شاهد بارجة عدوة تقترب منه بسرعة ، وظن قائد الطراد أن البارجة هي بارجة الجيب «دويتشلاند» فأبرق إلى الإدارة المركزية في الحال ، وكان قائد الطراد يعلم أنه من الجنون أن يحاول الدخول في معركة بحرية مع البارجة العدو ، أما الطراد فلم يكن أكثر من سفينة تجارية تحولت إلى طراد مجهز بأربع مدافع قديمة من عيار إحدى عشرة بوصة لذلك أبرق إلى الإدارة المركزية وقرر المجازفة

والقتال حتى النهاية ، واقتربت البارجة بسرعة هائلة وراحت تطلق نيرانها من مسافة عشرة آلاف ياردة ، فرد الطراد عليها ، وبدأت النيران الهائلة تنصب عليها حتى تحولت إلى كتلة من النار ، وما لبثت أن غرقت بعد حلول الظلام مع قبطانها و ٢٧٠ رجلاً من رجالها الشجعان.

وبالطبع لم تكن البارجة العدو هي البارجة «دويتشلاند» وإنما كان الطراد «شارنهورست» ومعها «غيزناو» ، اللذان غادرا ألمانيا لمهاجمة قطع أسطولنا في الأطلنطي ، إلا أنها بعد أن اصطدما براولبندي ، اضطرا إلى العودة في الحال بعد اكتشاف أمرهما ، وهكذا لم تذهب تضحيات رجال الطراد البواسل هباء ، فقد تمكن الطراد «نيوكاسل» من التقاط إشارة الطراد «راولبندي» وتوجه إلى ميدان المعركة وحاول مطاردة العدو ، إلا أن هذا تمكن من الإفلات منه .

وفي شهر آب وصلت الأنباء إلى القيادة العليا ، أن بارجة أو اثنتين قد غادرتنا ألمانيا متوجهة إلى الأطلنطي ، فقام أسطولنا في الحال بالبحث عنهما ، وعلمنا بعد مدة أن البارجة غراف شبي الألمانية قد أغرقت إحدى بواخرنا الضخمة كليفت في شهر أيلول ، وذلك قرب برنا موبكو ، واضطرت الإميرالية لهذا النبأ المفجع ، وضح الرأي العام ، وارتسمت علامات الاستفهام وراح الهمس يدور : «أين هو أسطولنا ؟ » ... فتألفت على الفور وحدات مسلحة لمطاردة البارجة وإغراقها ، وقد انضم إلى الوحدات عدد من حاملات الطائرات والبوارج والطرادات المجهزة بقوة كافية لتمكن من القضاء على البارجة الألمانية .

وخلال الأشهر التالية كانت تسع وحدات بحرية مطاردة تجوب البحار بحثاً عن البارجتين الألمانيتين «دويتشلاند» و «غراف شبي» ، وكانت الثانية أكثر جرأة من الأولى ، فقد استمرت بشواطئها ، فكانت تضرب السفن الصغيرة ثم تخفي في الآفاق الشاسعة ، واستمر البحث عن «غراف شبي» إلى أن عثر عليه في الثاني عشر من كانون الأول ، قرب مصب نهر لابلاتا ، من قبل الطراد «أجاكس» ، وكان على ظهره الكومودور هارود .

وتم في الحال حصار البارجة العدو وانضم إلى المعركة الطرادان «أخيل» و «لايكسيتر» ، وبدأت معركة حامية الوطيس واشتعلت البحار بالنيران اللاهبة لمدة ساعة وعشرين دقيقة ، وأصبحت طراداتنا بأضرار بالغة مما اضطرها إلى الانسحاب تحت ستر

الدخان الكثيفة بانتظار حلول الظلام كما أصيبت البارجة العدو وشوهدت أبراجها تساقط مشتعلة ، وكانت فرصة العدو الذهبية حين شعر قائد الطراد بأن الذخيرة ستتضب فاضطر إلى الانسحاب تاركًا الفرصة للبارجة العدو للانسحاب إلى ميناء مونتيڤيديو فتبعها الطرادان البريطانيان دون أن يشتبكا معها في أي معركة ، ودخلت البارجة إلى الميناء للتزود بالوقود ولإصلاحها من جديد ، بينما وقف الطرادان بانتظارها وإغراقها في الحال عند خروجها من الميناء .

وأبرق قائد البارجة في السادس عشر من كانون الأول إلى القيادة يقول أن سبيل النجاة قد سد أمامه وطلب ترويذه بالتعليقات اللازمة هل يقوم بإغراق الطراد أم يستسلم ؟ وجاءته التعليقات من الأميرالية الألمانية : «حاول أن تبقى في المياه المحايدة ... ثم حاول أن تتجه إلى يونس إيرس إن استطعت ، ولا تستسلم في أورغواي ... وإذا قررت إغراق البارجة دمرها تدميرًا كاملاً» .

وهكذا ، بعد ظهر اليوم التالي ، شوهدت بحارة البارجة تغادرها إلى إحدى السفن الألمانية الراسية في الميناء ، وعند المساء توجهت البارجة ببطء إلى عرض البحر حيث كانت طراداتنا بانتظارها ، وما أن اقتربت من عرض البحر حتى سمعنا انفجارًا مدويًا وشاهدنا النيران تشتعل في البارجة العدو ، فعلمنا أن «غراف شي» قد أغرقت نفسها ، كما علمنا أن قائدها لانغسروف قد أصيب بانهايار عصبي لخسارته الفادحة فاتتحر بعد يومين .

الفصل الثاني عشر

الجبهة في فرنسا
والحملة البريطانية



يقول تشرشل :

اتجهت الحملة البريطانية حال نشوب الحرب إلى فرنسا ، وما إن انتصف شهر تشرين الأول حتى كانت أربع فرق بريطانية تتمركز على الجبهة الفرنسية - البلجيكية ، وانضمت إليها ست فرق أخرى في شهر آذار ، وقد وجدت القوات البريطانية أن الجبهة مستعدة تمام الاستعداد ، فقد حفرت الخنادق لمقاومة الدبابات ، وأنشئت مراكز من الأسمنت المسلح ، ركزت عليها مدافع ورشاشات مضادة للدبابات ، بالإضافة إلى الأسلاك الشائكة الممتدة على طول الجبهة ، وكانت مهمة جنودنا تحسين الجبهة الدفاعية التي أعدها الفرنسيون وتنظيم شكل من أشكال خط سيفريد ، وتقديم العمل بصورة سريعة بالرغم من الجليد ، وعندما أخذت الصور الجوية تبين أن الألمان بدورهم بدؤوا يوسعون خط سيفريد من الشمال عبر الموزيل ، وقد كانت المواد الأولية في متناول أيديهم مما سهلت لهم مهمة العمل ، إلا أننا كنا نسير بسرعة تضاهي سرعتهم في التنفيذ ، وتم تشييد المنشآت اللازمة لقاعدة ضخمة ، وأنهيينا تعبيد الطرقات وتحسينها ومدت سكة حديد جديدة يبلغ طولها مئة ميل ، ثم أنعمنا إنشاء نحو من خمسين مطاراً جديداً وقاعدة جوية صغيرة ، كما تزودنا بكميات هائلة من العتاد والذخيرة توزعت في المستودعات على طول طرق مواصلتنا ، وقد تزودنا بالمؤن التي كانت تكفي لمدة عشرة أيام بين السين والسوم ، بالإضافة إلى كميات أخرى تكفي لسبعة أيام شمالي السوم ، وقد ساعدتنا هذه المؤن وأنقذتنا بعد أن تمكن الألمان من اختراق الجبهة .

كانت روح الجيش الفرنسي ، تختلف عن السابق أثناء الحرب الأولى ، فقد ولت تلك الروح النائرة المشبعة بالانتقام بعد أن حققت نصرها الأول وكان معظم القادة الذين تولوا زمام الأمور ، قد قضوا نحبهم منذ وقت طويل ، وكان الشعب الفرنسي لا يزال مشدوها من هول المذبحة التي ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف المليون رجل ، وكانت فكرة الهجوم لا تزال مرتبطة بمخيلتهم وبالفشل الذي أصابهم أثناء هجومهم عام ١٩١٤ وعام ١٩١٧ وبالآلام والخسائر التي تكبدوها أثناء الهجوم ، وسيطر عليهم الشعور بأن الأسلحة والاختراعات الحديثة قد زادت من قوة الدفاع وأصبحت تشكل خطراً أكبر على الهجوم والمهاجمين ، ولم يكن هناك من يمكنه أن يفهم الحقيقة الجديدة القائلة بأن السيارات المدرعة قادرة على الصمود أمام نيران المدافع ، بالإضافة إلى سرعتها الفائقة التي تمكنها من قطع مائة

ميل في اليوم الواحد ، ولم يكثر رجال الجيش وقادته لذلك الكتاب القيم حول هذه المواضيع ، الذي كتبه شخص يدعي القومندان ديغول ... فقد كانت أفكار المارشال العجوز بيتان مسيطرة على عقول القادة ومغلقة الطريق أمام الأفكار الجديدة الجريئة .

وقد سمعنا بعد انتهاء الحرب النقد الكثير حول سياسة خط ماجينو ، ولا شك أن فكرة الدفاع لدى الفرنسيين كانت نتيجة هذه السياسة ، إلا أن التدابير الاحترازية الصحيحة للدفاع عن حدود شاسعة تمتد إلى مئات الأميال ، تقضي بإقامة أكبر عدد ممكن من الحواجز والعقبات والحصون ، فهي توفر من استخدام القوات المحاربة ، ولو أحسن استعمال خط ماجينو لكان باستطاعته أن يقدم خدمة كبيرة لفرنسا .



النكتة البريطانية المعروفة:

يقول تشرشل :

هناك نكتة معروفة في بريطانيا تقول: إن وزارة الحرية اليوم تستعد للحرب الماضية ، وكانت هذه النكتة مطابقة لواقع حال الجيش الفرنسي آنذاك ، وكنت من جملة المؤمنين بنظرية الإجراءات الدفاعية التي يجب تنفيذها بدقة ، وكنت بالإضافة إلى ذلك عارفاً بمدى تخوف الفرنسيين من الهجوم نتيجة المذابح المخيفة في الحرب الأولى ، كما أن الوقت الذي أضعناه قد فسخ المجال أمام الألمان لبناء خط سيغفريد ، وكانت المجازفة ضخمة لو فكرنا بقذف البقية الباقية من الشبيبة الفرنسية لاقتحام هذا الجدار الهائل من الأسمنت المسلح ، وكانت نظرتي في الأشهر الأولى للحرب لا تختلف كثيراً عن وجهه النظر السائدة المتعلقة بالدفاع ، وكنت أعتقد أن الأجهزة المضادة للدبابات ومدافع الميدان قادرة على صد أي هجوم مهما كان ، إلا أن هذه النظرية كانت خاطئة ، فقد قدر لنا أن نشهد بعد ثمانية أشهر هجوماً هائلاً شنته القوات الألمانية تتقدمها السيارات المصفحة التي لم تؤثر فيها قوة المدافع نقساة فولاذها ، فتمكنت من تحطيم جميع ما أعدناه من مقاومة دفاعية ، وجعلت من المدفعية سلاحاً لا قيمة له ، لأول مرة في تاريخ الحروب منذ اختراع البارود .

لكن الجيش الفرنسي لم يكن في وسعه شن أي هجوم قبل نهاية شهر أيلول ، إلا أن بولندا في ذلك الوقت كانت قد استسلمت ، ولم يجل شهر تشرين الأول حتى تمكن الألمان

من حشد سبعين فرقة من الجبهة الغربية متفوقين بذلك على الحشود الفرنسية، ولو فكر الفرنسيون بشن هجوم من الجبهة الشرقية لتركوا الجبهة الشمالية خالية، وهي الجبهة الأكثر أهمية.

أما السؤال الذي طالما أثير: «لماذا بقيتم جامدين إلى أن دمرت بولندا؟» فالجواب عليه هو أن المعركة قد تهرت نتيجتها منذ سنوات، فالفرصة كانت مواتية ومضمونة عام ١٩٣٨ يوم كانت تشيكوسلوفاكيا موجودة، وفي عام ١٩٣٣ كان في وسع عصبة الأمم أن تستصدر أمراً ترغم به ألمانيا على الرضوخ دون حاجة إلى إهراق نقطة دم واحدة، ولا يجوز أن نلقي باللوم على الجنرال غاملان لأنه لم يقم بهذه المجازفة التي ازداد خطرها منذ الأيام الأولى للأزمات التي تخاذلت أمامها فرنسا وبريطانيا.

والآن ما هي احتمالات شن هجوم ألماني عام على فرنسا؟ كانت هناك ثلاثة احتمالات هي: أن تقوم ألمانيا بشن هجومها عبر سويسرا اللاتغاف حول الجبهة الجنوبية لخط ماجينو، إلا أن العقبات الطبيعية والإستراتيجية كانت تحول دون قيام هذا الهجوم، أما الاحتمال الثاني فهو في إمكانية غزو فرنسا من الحدود المشتركة بين البلدين، ولم يكن هذا الاحتمال ممكناً، إذ لم تكن نعتقد أن الجيش الألماني يملك المعدات اللازمة لتحطيم المنشآت القائمة واختراق خط ماجينو، يبقى الاحتمال الثالث وهو الهجوم عن طريق بلجيكا وهولندا، فإمكان الجيش الألماني أن يتجنب اختراق خط ماجينو ويوفر الخسائر المتوقعة من جراء الهجوم على التحصينات المنيع، ولم يكن في استطاعتنا صد الهجوم على بلجيكا، وإن كان ذلك في مصلحتنا، وكان هناك خطان يمكننا أن نتقدم نحوهما إذا ما دعيتا بلجيكا لاحتلالهما، فالخط الأول هو ما يدعي خط «الشلدت» وهو قريب من الحدود الفرنسية، ويمكن الوصول إليه بسهولة، وإمكاننا الاحتفاظ به للتضليل، وهذا في أسوأ الاحتمالات، كما يمكننا إذا ساعدتنا الظروف أن نقوم بإنشائه وتدعيمه، أما الخط الثاني فهو الخط الذي يسير مع نهر الوز عبر جيفيت ودينانت ونامور ولوفين إلى أنتويرب، ولو استطعنا أن نحفظ بهذا الخط مهما كلفنا الأمر، فإن الجناح الأيمن للجيش الألماني سيتوقف، وسيمكننا معرفة قوة الجيش الألماني، فإذا كان ضعيفاً، عندئذ يمكننا ابتداء هجوم كاسح ندخل به إلى ألمانيا ونشرف على منطقة الروهر الهامة بالنسبة للإنتاج الحربي الألماني.

ويقول رؤساء الأركان: «إن الخطة الفرنسية المسماة خطة «د» تقضي بأن يسرع الحلفاء

إلى احتلال خط جيبيت - نامور، إذا تمكن البلجيكيون من الاحتفاظ بحوض الموز، كما أنه يترتب على القوات البريطانية أن تعمل في الجهة الشمالية، ونحن نجد أن هذه الخطة غير معقولة، إلا إذا وضعنا خططها مع البلجيكيين أنفسهم لاحتلال هذا الخط، قبل مدة من الزحف الألماني، وبعد أن يتبدل موقف بلجيكا الحالي، وترسم الخطط اللازمة بوقت قريب لاحتلال خط جيبيت - نامور والمسمى في بعض الأحيان خط المور - أنتويرب، ونحن نجد أنه يترتب علينا أن نواجه الزحف الألماني في أماكن نعددها في وقت مبكر على الحدود الفرنسية بالذات».

وفي اجتماع مجلس الحلفاء الأعلى في باريس، اتخذ القرار التالي: «نظرًا للأهمية الكبرى المترتبة على وجوب إبقاء الألمان في أقصى مكان ممكن إلى الشرق، فمن الضروري جدًا بذل كل محاولة للمحافظة على خط الموز - أنتويرب، في حال تعرضت بلجيكا للهجوم الألماني». وهكذا أفضت الحملة البريطانية فصلي الربيع والشتاء في تجهيز مواقعها وتحصينها، واستعدادها للحرب الدفاعية أو الهجومية، وقد كانت استعدادات الجيش رائعة ومنظمة وأكثر قوة في نهاية فصل الشتاء، إلا أننا لا نزال نشكو نقصًا كبيرًا في الدبابات، ولم يكن لدينا فرقة مدرعة واحدة ضمن الحملة البريطانية في فرنسا، فقد أهملنا تطوير هذا النوع من السلاح الفعال في فترة ما بعد الحرب الأولى، ولم يكن عندنا سوى كتيبة تضم سبع عشرة دبابة خفيفة ومائة دبابة «مشاة» معظمها مجهزة بالمدافع الرشاشة فقط، لقد أهملنا هذا السلاح الهام الذي قدر له أن يسيطر على ميادين القتال...

أما الجيش الفرنسي فلم يكن بحالة حسنة، ففرنسا لم تواجه الحرب عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ بروح معنوية مرتفعة أو بشيء من الثقة والإيمان، فالسياسة الداخلية المضطربة قد خلقت نوعًا من الانقسام والسخط، وكانت الدعايات السامة التي يبثها غوبلز تلافى آذانًا صاغية تحفظها وتردها، وكانت تأثيرات الانقسام والشيوعية والفاشية تنعكس على الجيش وتغلغل في صفوفه خاصة في فترة الانتظار الطويلة قبل الهجوم، ولم يكن هناك من أدنى شك في أن الانتظار الطويل قد أضر في كفاءة الجيش الفرنسي فلو قاتل في الخريف مثلاً لكان قتاله رائعًا وأروع منه في الربيع... وسرعان ما وجد هذا الجيش نفسه عرضة لهجوم ألماني كاسح صعبه بعنف.

وختامًا لهذا الفصل أذكر هذه الحادثة المهمة التي حدثت في اليوم العاشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٤٠ م والتي أكدت المخاوف بالنسبة إلى الجبهة الغربية ، فقد قضت الظروف بأن تهبط طائرة ألمانية كانت تقل ضابطاً ألمانيا ، في بلجيكا ، وعندما اعتقلته القوات البلجيكية حاول الضابط أن يتلف بعض الوثائق التي كان يحملها ، إلا أنهم تمكنوا من مصادرتها قبل أن يتمكن من إتلافها ، وقد تضمنت تلك الوثائق الخطة الكاملة لغزو بلجيكا وهولندا وفرنسا ، هذه الخطة التي وضعها هتلر بنفسه .

وبعد قليل أطلق سراح الضابط فعاد إلى بلاده وأخبر قاده بما جرى له وعندما نقلت إلى التفاصيل ذهبت وأنا غير مصدق كيف لا يضع البلجيكيون خطة يشركوننا فيها في الحال ، لكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا وقد طلبنا منهم أن يتعاونوا معنا ، لكن الملك وقادة الجيش آثروا التروي والانتظار عله يأتيهم المستقبل بأشياء جديدة تقلب الأوضاع مرة أخرى ، أما من الناحية الثانية ، فقد استدعى هتلر غورنغ وأمطره بسيل من الشتائم ثم اضطر إلى تغيير خطة الغزو من أساسها ، وقد تأكد لنا الآن من الوثائق المصادرة أن هذه الخطة كانت صحيحة .

لقد أثر ملك بلجيكا أن يبقى على الحياد ، آملاً أن يتمكن من الصمود أمام الجيش الألماني ، ثم يطلب الجيوش البريطانية والفرنسية لتسارع إلى نجدة ... لقد كان العصر عصر التردد والتخاذل ، ولم تكن لتلومه على موقفه هذا ...



الفصل الثالث عشر

إسكندنافيا وفنلندا

شبه جزيرة البلطيق وأهميتها العسكرية



يقول تشرشل :

إن لشبه الجزيرة الممتدة من داخل البلطيق إلى الدائرة القطبية أهمية عسكرية كبيرة ، وتمتد سلسلة الجبال إلى المحيط ويفصل بينها عمر من المياه الإقليمية تتمكن ألمانيا بواسطته من المرور والاتصال بالبحار الخارجية ، مما يجعل حصارنا البحري لا قيمة له ، وكانت ألمانيا تعتمد بصورة رئيسية على استيراد مسحوق الحديد من السويد الذي يصلها في أيام الصيف من ميناء لوليا السويدي عند رأس خليج بوثنيا ، أما في الشتاء وعندما تتجمد مياه الخليج تصلها من النرويج ، لذلك فإن احترامنا لحياة هذه الخلجان يعني سحاحنا لهذا الاستيراد والتصدير الذي تستغله ألمانيا تحت ستار الحياد متحدية بذلك تفوقنا البحري ، وقد شعرت الأميرالية بهذا الخطر ، وأخطرت بدوري وزارة الحرب عن هذا الموضوع .

وعندما أثرت هذا الموضوع الهام اصطدنا بعقبة احترامنا التام لحياة الدول الصغيرة ! هذا المبدأ الذي كنا نتعلق به بالرغم من استغلال ألمانيا لهذا الاحترام ، ولبت الموضوع بين أخذ ورد إلى أن أخذت الوزارة باقتراحى بعد مدة طويلة حيث بدا أن الوقت قد فات على اتخاذ مثل هذا القرار .

وفي نفس الوقت كان الألمان يفكرون بنفس الاتجاه الذي كنت أفكر به ، فقد قدم الأميرال ريدر ، رئيس أركان البحرية الألمانية ، اقتراحاً إلى هتلر باسم «كسب قواعد جديدة في النرويج» وقد وضح في اقتراحه مقدار الضرر الذي سيلحق بألمانيا بحال تم احتلال البريطانيين للنرويج وتحكمهم في مداخل البلطيق ، وقد أصدر هتلر بناء على اقتراحات ريدر أوامره إلى القيادة العليا بإعداد الخطة لعملية غزو النرويج .

وفي هذه الأثناء تحولت شبه جزيرة إسكندنافيا إلى ميدان للصراع أثار ضجة كبيرة في بريطانيا وفرنسا ، وأثر على محادثاتنا مع النرويج بشدة ، فقد أدت موافقة المساعدات المتبادلة المعقودة بين روسيا وأستونيا ولاتفيا وليتوانيا إلى احتلال هذه الدول وتدميرها . وبذلك أصبح الجيش الأحمر يقطع الطريق للدخول إلى روسيا من ناحية الغرب ، وبقيت الطريق عبر فنلندا .

ومن ناحية فنلندا فقد وقع أحد الساسة الفنلنديين مع روسيا معاهدة صلح في عام ١٩٢١، كان من أهم مطالب الروس العديدة رد الحدود الفنلندية عند برزخ كاريليا إلى الورا مسافة كافية لتصبح مدينة ليننغراد في مأمن من خط المدفعية المعادية ، كما تسلمت روسيا عددًا من الجزر الفنلندية، أما الاختلاف الذي أدى إلى محاولة غزو فنلندا فكان حين طلبت روسيا استئجار الموانئ الوحيدة التي لا تتجمد في فصل الشتاء كي تجعل منها قواعد بحرية وجوية ، وكان الرضوخ لهذا الطلب يعني تهديد سلامة فنلندا بصورة أكيدة ، وقد رفضت الحكومة الفنلندية هذا الطلب وانقطعت المفاوضات ، وأعلن مولوتوف بناء على ذلك إلغاء ميثاق عدم الاعتداء المفقود مع فنلندا ، وبعد يومين بدأ الهجوم الروسي على فنلندا على ثماني جبهات وقام الطيران السوفيتي بضرب العاصمة هلسنكي من الجو .

وقد استبسل الفنلنديون في الدفاع عن بلادهم ، فقد مضت الأسابيع الأولى للهجوم السوفيتي دون أن يتمكنوا من تحقيق أي نصر ، ويرهن الجيش الفنلندي عن بطولة نادرة في صد الهجوم الكبير ، وقوبلت الدبابات السوفيتية الضخمة بسلاح جديد من القنابل اليدوية التي سميت بكوكيل مولوتوف ، وقد استمرت الحملة حوالي الشهر إلا أنها باءت بالفشل الذريع ، وتأكد للحكومة السوفيتية بأنها تقابل عدوًا يختلف بقوته عما كانت تتوقعه أن يكون ، لذلك قررت القيام بهجوم كاسح كبير مما يحتاج إلى إعادة تنظيم ، فخففت من حدة القتال على طول الجبهة الفنلندية بعد أن تمكن الفنلنديون من صد عدوهم القوي .

وساد شعور من السخط لدى الجميع ضد الحكومة السوفيتية ، بالإضافة إلى الشعور بالاحتقار لعجز القوات الروسية عن غزو فنلندا الباسلة ، وبالعطف والحماس على فنلندا بالذات ، وبالرغم من أننا نخوض حربًا كبرى فقد كانت لدينا رغبة شديدة في مد يد العون إلى الفنلنديين وذلك بتزويدهم بالطائرات والأليات الحربية وإرسال المتطوعين من بريطانيا والولايات المتحدة وحتى فرنسا ، ولم يكن هناك إلا امر واحد لإرسال المتطوعين والمعدات الحربية ، وهو عبر ميناء نارفيك النرويجي الذي اكتسب أهمية إستراتيجية كبرى ، وكان استعمال هذا الميناء كقاعدة للتموين يؤثر على حياد النرويج والسويد ، وكان هم هاتين الدولتين البقاء خارج نطاق الحرب ، فقد كانتا تحشيان كلا من ألمانيا وروسيا ، وطلبت

الحكومة البريطانية من النرويج والسويد السماح لها بنقل الجنود والمؤن إلى فنلندا .

كانت إحدى القطع البحرية الألمانية المسماة «إلتمارك» تشغل تفكيرى ، وهي القطعة البحرية التي كانت تساعد غراف شبي بالإضافة إلى كونها سجنًا عائلاً لبحارة البواخر التي كانت غراف شبي تغرقها ، وقد وصلتنا الأخبار أن هناك ثلاثمائة بحار بريطاني على ظهر (إلتمارك) التي تمكنت من الاختفاء لمدة شهرين في جنوب الأطلنطي وعندما اطمأن ربابها إلى أنه أصبح في مأمن من مطاردتنا ، حاول العودة بباخرته إلى ألمانيا ، وفي الرابع عشر من شهر شباط شاهدت إحدى طائرتنا الباخرة المذكورة في المياه الإقليمية للنرويج .

وفي الحال تحركت المدمرات البريطانية بقيادة القبطان فيليب فيان على متن مدمرته «قوزاق» وقطعت طريق الباخرة الألمانية ، إلا أنها لم تباشر بضررها فالتجأت الباخرة إلى خليج جوسينغ ، وأعطيت الأوامر بتفتيش الباخرة ، وشوهد في نفس الوقت زورقان نرويجيان مسلحان أبلغاهما أن الباخرة الألمانية غير مسلحة ، وقد سمحا لها بالمرور عبر المياه الإقليمية ، فاضطرت المدمرتان البريطانيتان إلى الانسحاب على الفور .

وما أن وصلت هذه الأخبار إلى الأميرالية ، حتى عادت وأصدرت إلى مدمرتنا الأوامر بدخول الخليج ، فدخل القبطان «فيان» بمدمرته الخليج وصعد إلى أحد الزورقين النرويجيين وطلب من قائده أن تساق «إلتمارك» إلى ميناء بيرغن للكشف عليها حسب القانون الدولي ، فكرر القائد النرويجي أن الباخرة غير مسلحة ، وقد فتشوها مرتين ولم يجدوا على متنها أي أسير بريطاني ، عند ذلك طلب القبطان «فيان» من القائد النرويجي مرافقته إلى ظهر الباخرة الألمانية فرفض هذا طلبه .

واغتمت الباخرة الألمانية هذه الفرصة لتحرك وتحاول الاصطدام بالمدمرة «قوزاق» إلا أنها فشلت ، وفي الحال صعد إليها فريق من البحارة ونشب قتال عنيف بالسلاح الأبيض بين رجال الباخرتين أدى إلى مقتل أربعة من الألمان وجرح خمسة واستسلم الباقون ، وبدأ البحث في الحال عن الأسرى البريطانيين ، وبعد تفتيش دقيق عثر عليهم في المستودعات

وفي خزان بترول فارغ، وقد كملت أفواههم كي لا يتمكنوا من الاستغاثة وطلب النجدة من رفاقهم، كما عثر على مدفعين وأربعة مدافع رشاشة، وعلمنا فيما بعد أن النرويجيين لم يقوموا بتفتيشها بالرغم من صعودهم على متنها.

وكان هذا الحادث قد ساعد الألمان على اتخاذ قرارهم بوجوب غزو النرويج الذي أعد هتلر خطة غزوها في الرابع عشر من كانون الأول، وبعد أن اجتمع الفوهرر مع الجنرال فون فولكنهورست تقرر بدء العملية في التاسع من شهر نيسان.

وفي هذه الأثناء كان الروس قد ضاعفوا من مجهودهم الحربي، وقاموا بهجومهم الكبير على فنلندا في اليوم الأول من شهر شباط، والذي استمر حوالي اثنين وأربعين يومًا، يصحبه قصف جوي عنيف، وتمكن الجنود الروس من اختراق خط الدفاع الفنلندي وتحطم خط مانرهايم وتركز الهجوم الروسي على خليج فيوري.

وفي أول شهر آذار أرسلت الحكومة الفرنسية خمسين ألف متطوع ومائة قاذفة قنابل إلى فنلندا، كما قامت الحكومة البريطانية أيضًا بإرسال خمسين قاذفة قنابل، إلا أن الفنلنديين قد وصلوا إلى حد من الأعباء والجهد وكادت معداتهم الحربية أن تنفذ فسادف المترف باسكيفي مرة ثانية إلى موسكو لإجراء المباحثات في شروط الهدنة، ووافقت الحكومة الفنلندية على شروط الروس في الحال.



الفصل الرابع عشر

الهجوم على النرويج



يقول تشرشل :

في ليلة الجمعة الخامس من شهر نيسان دعا وزير ألمانيا المفوض في أوسلو عددًا من الوجهاء والوزراء إلى حفلة عرض فيها شريطًا سينمائيًا عن عملية احتلال بولندا التي وضح فيها المناظر المرعبة التي صورت أثناء قصف مدينة وارسو ، وقد علق الوزير على الصور بقوله : «إن البولنديين يجب أن يشكروا أصدقاءهم الإنكليز والفرنسيين على ما حل بهم من كوارث» !!

وتفرق الضيوف وعلى وجوههم أمارات الرعب والقلق ، خاصة مما يقوم به الإنكليز من نشاط كبير في الترويج ومن زرع للألغام في مداخل الخليج الغربي المؤدي إلى ميناء نارفيك ، واحتجت الحكومة النرويجية على هذه الإجراءات الخطيرة ، إلا أن الأميرالية البريطانية أعلنت المفوضية النرويجية في لندن أن البوارج الألمانية بدأت تتحرك متجهة نحو الساحل النرويجي ، بينما كانت الجحافل الألمانية تجتاح الدانمارك ، لكن الأخبار لم تصل إلى النرويج إلا بعد أن تعرضت هي للهجوم الألماني .

كان الهجوم الألماني الصاعق يتميز بالمفاجأة والشدة والدقة ، في مدهامة بلد أعزل وشعب بريء كشعب النرويج ، فقد استخدمت ألمانيا سبع فرق عسكرية ، وثمانمائة طائرة وثلاثمائة طائرة نقل ، بالإضافة إلى الهجوم البحري الكبير ، ولم تمض ثمان وأربعين ساعة حتى سقطت جميع الموانئ النرويجية في أيدي الألمان ، وتغلغلت الدعايات الألمانية بسرعة البرق بين صفوف الشعب ، ووقف الماجور كوزلنغ ، ليعلم نفسه حاكمًا على المناطق التي سقطت في أيدي الألمان .

وبدأت في الحال تعبئة الجيش الذي راح يقاتل بضراوة الجيوش الغازية الزاحفة شمالاً من أوسلو ، والتجأ الوطنيون إلى الجبال والغابات ، وانسحب الملك وحكومته إلى هامار التي تبعد مئة كيلو متر عن أوسلو ، وطاردتهم المدرعات الألمانية وقصفتهم الطائرات من الجو إلا أنهم تمكنوا من الوصول ، وأذاعوا بيانات تدعو إلى المقاومة والثورة ، ولا شك أن السرعة التي تمكن بها هتلر ، بعد ذلك ، من السيطرة على البلاد تعتبر عملاً وحشيًا من أعمال الحرب والسياسة ومثلاً حيًا يدل على مدى إتقان ألمانيا لفضاعة الحرب ووحشيتها .



وبهجوم هتلر على الترويج انتهى وميض الحرب ، وتلاه أعظم انفجار عسكري عرفته البشرية ، فمنذ أن تحالف ستالين مع هتلر ، تلقى الشيوعيون الفرنسيون الإشارات من موسكو بوجوب إعلان استنكارهم للحرب ونعتها بجريمة استعمارية رأسمالية ضد الديمقراطية ! وحاول الشيوعيون وسعهم في تحطيم معنويات الجيش ، وعرقلة أعمال المصانع ، وتمكنت الدعايات الهدامة من تحطيم الروح المعنوية لدى الجيش والشعب ،

ولم يحدث شيء من هذا في بريطانيا ، فقد كانت توجهات موسكو للشيوعية المحلية في بريطانيا ضعيفة كل الضعف ، وقد أدت الحملة على الترويج إلى اضطرابات عنيفة نشبت في بريطانيا ، واتقدت العواطف الشائنة ، وطالبت المعارضة بإجراء مناقشة في المجلس عن الوضع الحربي ، فتقرر إجراء هذه المناقشة في السابع من شهر أيار ، وحاول المستر تشمبرلين تهدئة العواطف المعادية ، لكنه قوطع بالاستهزاء ، ورد المستر تشمبرلين على المستر هربرت موريسون بقوله : «إني لم أكن أتمتع بصلاحيات كبيرة أثناء حملة الترويج ، وراح الخطباء يهاجمون الحكومة بعنف مشوب بالمرارة ، وقام المستر أيمري الذي قوبل بالهتافات العالية ليقول ما سبق وقاله كرومويل : «لقد أمضيت وقتاً كثيراً هنا لا ينسجم مع النفع الذي كنتم تفعلونه ، وأني أقول لكم الآن : «اخرجوا وخلصونا منكم ، بحق الله ، اذهبوا ...» .

وفي اليوم التالي أعلن المستر هربرت موريسون ، باسم المعارضة عن عزمه طلب الإسراع على الثقة ، وقام رئيس الوزراء ليعلن قبوله التحدي ، وقام المستر لويد جورج ليلقي خطاباً قصيراً وجه فيه ضربة قاضية على رأس الحكومة ؛ إلا أنه أبرأ ذمته بقوله : «لا أظن أن وزير البحرية يعتبر مسؤولاً عن ما حدث في الترويج» وقد قاطعته على الفور بقولي : «إني أتحمل كل المسؤولية عن كل ما قامت به الأميرالية متحملاً العبء كله» فحذرني المستر لويد من مغبة جعل نفسي ملجأ بقي الحكومة من الشظايا ، ثم التفت إلى المستر تشمبرلين وقال : «إن القضية أضخم بكثير مما نتصور ، لقد طلبت منا في السابق أن نضحكي ، وأنا أقول : «إن الشعب بأسره على أتم الاستعداد للتضحية إذا رأى على رأسه القيادة الصالحة ، وإذا رأى هذا الشعب أن الذين يتولون زمام الأمور يقومون بدورهم بأقصى ما يمكن من جهد» ، وأنا أقول بكل احترام : «إن من واجب رئيس الحكومة أن يقوم بتضحية كبيرة مقدماً بذلك مثلاً أعلى للشعب ، إذ ليس ثمة من شيء يكون أكثر إسهاماً من النصر في هذه الحرب من تضحيته بمركزه .»

وعندما طرحت الحكومة الثقة فازت بها بأغلبية واحد وثمانين صوتاً، بالرغم من امتناع ثلاثين نائباً محافظاً على التصويت، إلا أن النتيجة لم تقنع المستر تشمبرلين ولم تطب نفسه بعد الألم الذي أصابه.



جحافل هتلر اجتاحت هولندا وبلجيكا:

يقول تشرشل:

في اليوم العاشر من شهر أيار وردت الأخبار الهائلة بأن جحافل هتلر قد اجتاحت هولندا وبلجيكا، واجتازت حدودهما في عدة مواقع، واتجهت حركة الجيش نحو الأراضي المنخفضة وفرنسا...

وفي مكثي بالأميرالية وجدت بعض الوزراء الهولنديين الذين وصلوا من أمستردام، بعد أن هوجمت بلادهم دون أي سبب، وطلبوا منا أن نفعل شيئاً، ولحسن الحظ أن عمارة بحرية كانت قريبة فأصدرنا إليها الأمر بالتوجه فوراً وضرب العدو وإنزال أكبر عدد ممكن من الخسائر بقواته مع علمنا أن الأمر قد انتهى، وأصبحت البلاد في أيدي الألمان، وكانت الملكة لا تزال في البلاد، إلا أنها لن تتمكن من البقاء طويلاً.

وفي أثناء هذه المعركة الجديدة واصلتني رسالة تستدعيني للمثول أمام الملك في تمام الساعة السادسة، وما أن وصلت إلى القصر حتى سمح لي بالدخول على الفور، واستقبلني جلالتة ببشاشة ولطف كثيرين وأمرني بالجلوس، ونظر إلى وقال: «أعتقد أنك تعلم لماذا استدعيتك؟» وأردت أن أجابه في طريقته فأجبت: «لا أعتقد أنني أعلم يا سيدي» فضحك جلالتة وقال: «أريد أن أطلب منك تأليف الوزارة» وأجبت به بأني سأمثل لأمره في الحال.

ولم يشترط جلالتة على نوع الحكومة وقوميتها، وشعرت أن تكليفي ليس مشروطاً بتأليف حكومة قومية، إلا أنني كنت أفضل في هذه الظروف بالذات قيام حكومة قومية. ولكن إذا تعذر على التفاهم مع المعارضة، فأني عند ذلك لن أكون ممنوعاً من الناحية الدستورية من تأليف حكومة قوية تضم جميع القادرين على الوقوف إلى جانب بلادهم في هذه الظروف العصية شرط أن تكسب تأييد الأغلبية في المجلس، وأخبرت جلالتة أنني عازم على تقديم أسماء خمسة أو ستة وزراء ممن ستألف منهم الوزارة، قبل منتصف الليل.

ودعوت المستر تشمبرلين هاتفياً وطلبت منه تولي رئاسة المجلس، فوافق وجرى الاتفاق على إذاعة بيان استقالته في الساعة التاسعة، وقد قام بهذه المهمة بطريقة رائعة كريمة ودعا إلى تأييد خلفه والاتفاف حوله، وبعد ذلك تمكنت من تأليف الوزارة وأرسلت لجلالته قائمة بخمسة أسماء، كما وعدته أن أفعل، وقررت أن أتولى بنفسني مهام وزارة الدفاع، وهكذا تم لي تسلم القيادة في الدولة، وبقيت محفظةً بها طيلة خمس سنوات وثلاثة أشهر، بكل إخلاص وقوة، إلى أن انتهت الحرب واستسلم أعداؤنا دون قيد أو شرط.

وهكذا كانت نهاية الجزء الأول من مذكرات تشرشل يليه الجزء الثاني.



٦
الجزء الثاني من مذكرات تشرشل



الفصل الأول

معركة فرنسا

وهجوم ١٢٦ فرقة المانية عليها



منذ نشوب الحرب في أيلول عام ١٩٣٩ ، خصص الألمان قوتهم الرئيسية لغزو بولندا ، وكانت تقف على الحدود الغربية الممتدة من أكس - ليشابل إلى حدود سويسرا ، اثنتان وأربعون فرقة ألمانية ، وكانت هذه الحشود خالية من أية فرقة مدرعة ، وكان بوسع فرنسا أن تواجه هذه القوة بنحو من سبعين فرقة ، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك وقرروا أنه من المعتذر الهجوم على ألمانيا آنذاك ، أما الآن فقد تغير الوضع تمامًا ، فقد اغتنم العدو الفرصة التي منحت له خلال ثمانية أشهر ، وبعد أن تمكن من احتلال بولندا عبا ما يقارب المائة والخمسة والخمسين فرقة من بينها عشر فرق مدرعة ، وقد ساعده في ذلك الاتفاق المعقود بين هتلر وستالين ، والذي مكن هتلر من سحب وتخفيض قواته على الجبهة الشرقية إلى أقل عدد ممكن ، وقد وصف الجنرال هولدر تلك القوات البسيطة المتبقية أمام روسيا بأنها قوة صغيرة تصلح لجمع الضرائب فقط . وهكذا استطاع هتلر أن يخصص لهجومه الكاسح على فرنسا مائة وست وعشرين فرقة مجهزة بأقوى الأسلحة ، تدعها ثلاثة آلاف سيارة مصفحة وألف دبابة ثقيلة .

أما فرنسا فقد حشدت مائة وثلاث فرق ، بينها الفرق البريطانية الموجودة في فرنسا ، وإذا تقرر إشراك الجيوش البلجيكية والهولندية فسيزداد العدد بمقدار اثنين وعشرين فرقة إضافية ، ولما كان الهجوم الألماني الذي بدأ في العاشر من أيار عام ١٩٤٠ قد استهدف الجبهات الثلاث مجتمعة ، فقد بلغ مجموع القوات الحليفة مائة وخمس وثلاثين فرقة ، أي ما يوازي عدد الفرق الألمانية تقريباً ، ولو كانت هذه القوة الكبيرة منظمة تنظيمًا حسنًا ومدربة تدريباً تاماً لكان في إمكانها وقف الهجوم الألماني ، إلا أن الجيش الألماني آنذاك أصبح في وضع يمكنه من اختيار الوقت والاتجاه والقوة اللازمة لبدء هجومه ، وكان أكثر من نصف الجيش الفرنسي متمركزاً في القطاعات الجنوبية والشرقية من البلاد ، بينما بقيت إحدى وخمسون فرقة فرنسية بريطانية لتواجه الهجوم الكاسح في الشمال الذي تقوم به نحو من سبعين فرقة ألمانية ، وقد بدأ الألمان هجومهم بزحف الدبابات الحديثة التي لا تخترقها قذائف المدافع والطائرات ، وقد صدرت الأوامر إلى خمس فرق مدرعة وثلاث فرق آلية بعبور الأروحين إلى سيدان وموترمي .

أما الفرنسيون فقد واجهوا هذه الدبابات بدبابات من النوع الخفيف وقد بلغ عددها ألفين وثلاثمائة دبابة، وقد تضمنت فرقتهم الآلية المدرعة بعض الأنواع القوية، إلا أن معظم قوتهم المدرعة تلك كانت مجزأة ومتفرقة على عدة جبهات، أما بريطانيا التي كانت أول من اخترع الدبابة فقد أكملت تدريب أول فرقة مدرعة لها قبل أيام من بدء الهجوم، ولم تتمكن من إرسالها إلى فرنسا.

أما الطائرات الألمانية، فكانت تفوق الطائرات الفرنسية بالعدد والقوة، أما القوة الجوية البريطانية العاملة في فرنسا فكانت تضم عشرة أسراب من طائرات «الهايكين»، التي تمكنا من الاستغناء عنها، بالإضافة إلى تسعة عشر سرباً من أنواع مختلفة أخرى، أما طائرات الانقضاض، هذا النوع الجديد من الطائرات الذي بدأ في الظهور منذ غزو بولندا، فلم تكن فرنسا أو بريطانيا قد أنتجت بعد، وقد أثرت هذه الأنواع من الطائرات على كئيب المشاة الفرنسيين وحطمت من معنوياتهم بشكل كبير.



بدأ الهجوم الألماني ليلة التاسع - العاشر من شهر أيار عام ١٩٤٠، وقد سبق هذا الهجوم، غارات جوية على المطارات وطرق المواصلات والمنشآت العسكرية، وبدأ الهجوم عبر حدود بلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ، وتمكن الألمان من مباغتتهم في كل مكان، وكان جنود العاصفة وهم يحملون المدافع الخفيفة، يطلقون من جميع الجهات ليشعلوا الجبهة بالنيران.. وعندما بدأ الزحف الكبير على هولندا وبلجيكا صرختا تطلبان النجدة، أما الهولنديون فقد أركتوا إلى خطهم المائي وفتحوا جميع الثغرات التي لم يتمكن الألمان من الاستيلاء عليها، كما راح حرس الحدود يقاومون الغزاة، إلا أن الألمان كانوا قد اخترقوا الجبهة على عدة مواضع وأقاموا الجسور واستولوا على فتحاتها والمفاتيح التي تضبطها، بينما راحت الطائرات المغيرة تضرب بقوة، وأصبحت مدينة روتردام بعد ليلة واحدة كتلة من الانقاض، كذلك لاهاي وأوترخت وأمستردام...

وفي الرابع عشر من أيار، بدأت الأخبار السيئة تصلنا عن اختراق الألمان للجبهة في سيدان، ولم يتمكن الفرنسيون من الوقوف في وجه الجيش الألماني، ومقاومة الدبابات

وطائرات الانقضاض الهائلة ، وقد وصلت إلى مجلس الوزراء رسالة من الميسورينو ، يطلب فيها إرسال عشرة أسراب من الطائرات لمساعدته في إعادة تنظيم الخطوط ، كما وصلت رسائل أخرى إلى رؤساء الأركان تشرح الموقف وتقول أن الجنرالين غاملان وجورج يعتبران الوضع خطيراً جداً ، وقد ذهل الجنرال غاملان من سرعة الزحف الألماني ، وفي جميع الأماكن التي اشتبكت فيها الجيوش كانت قوة الهجوم لألماني تسيطر على الموقف في الحال ، أما الطائرات البريطانية فقد قاتلت ببسالة وقوة وحطمت الجسور الرئيسية في سيدان ، إلا أن الخسائر التي تعرضت لها الطائرات البريطانية كانت كثيرة إلى حد مخيف ، فمثلاً خسرنّا في يوم واحد حوالي سبع وستين طائرة أنزلتها المدفعية الألمانية المضادة للطائرات ، كما أنا أسقطنا حوالي ثلاث وخمسين طائرة ألمانية ، ولم يبق لدينا في ذلك اليوم سوى ٢٠٦ طائرة من أصل ٤٧٤ طائرة في فرنسا ... واتضح لنا أن الاستمرار على هذه الحال سيؤدي إلى نهاية القوة الجوية البريطانية ، وكان السؤال الآن ، ماذا في وسعنا أن نرسل من طائرات إلى فرنسا دون أن نترك بلادنا بلا دفاع ، وكانت نداءات فرنسا الملحة ، ورجبتنا في القيام بالتزاماتنا تدفعنا إلى إرسال المزيد ، إلا أننا سنصل إلى حد لا يمكننا تجاوزه لأنه سيكلفنا بذلك حياتنا .

وبحثت وزارة الحرب ، التي كانت تجتمع كل يوم ، هذا الوضع المخيف ، وكان ماريشال الجو داودينغ قد أعلمني أن باستطاعتنا الدفاع عن وطننا بخمسة وعشرين سرباً مقاتلاً من الطائرات ، حتى لو هاجمنا السلاح الجوي الألماني كله ، أما إذا انخفض هذا العدد ، فلا يمكننا الدفاع بعد ذلك ، وكانت الهزيمة لا تعني فقط تدمير مطاراتنا وقوتنا الجوية ، بل تعني تدمير مصانع إنتاج الطائرات الذي يتوقف عليها مستقبل بلادنا كله

وفي الساعة السابعة والنصف صباحاً من يوم الخميس في الخامس عشر من شهر أيار وصلتني مخبرة هاتفية إلى المنزل وأنا في فراشي من الميسورينو ، وكان يتكلم بالإنكليزية ، والاضطراب بادياً على صوته وهو يقول : « لقد هزمتنا ، لقد خسرتنا المعركة » فقلت له : « لا يمكن أن تهزموا بهذه السرعة !! » فأجاب : « لقد تحطمت الجبهة عند سيدان ، وهم الآن يتقدمون بالدبابات والآليات المدرعة » ، وأجبت على الفور بأني سأتي إلى فرنسا للتحديث معه .

لقد استطاع الألمان أن يقتحموا الجبهة، واندفعت قوات كبيرة بعد أن انضم للجيش الفرنسي التاسع، وفي السادس عشر منه توغلت القوات الألمانية ستين ميلاً وراء الجبهة، كما انتهى القتال في ذلك اليوم أيضاً، في هولندا بعد أن استسلمت القيادة العليا...

في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم نفسه، توجهت إلى فرنسا ومعني الجنرال ديل، نائب رئيس أركان حرب الإمبراطورية والجنرال إيساي، ووصلنا بعد ساعة إلى مطار «لابورجيه»، وظهر لي الوضع أسوأ بكثير مما كنت أعتقد، وقد قال الضباط الذين كانوا في استقبالنا أن الألمان سيصلون باريس خلال أيام معدودة، وهذا على أكثر تقدير، وتوجهت إلى سفارتنا وبعد أن استمعت إلى الأخبار، توجهت إلى الكي دورسيه، ودخلت إلى الغرفة حيث كان بانتظارنا رينو ووزير الدفاع ديلاييه والجنرال غاملان، وكان الجميع وقوفاً، ولاحظت على وجوههم دلائل التعب والاضطراب، ورأيت أمامهم خريطة قد رسم عليها بخط أسود جبهة الحلفاء، وقد أحدثت فيها ثغرة صغيرة مشؤومة عند سيدان.

وأوضح القائد باختصار تفاصيل ما حدث، فقد اخترق الألمان الجبهة إلى الشمال والجنوب من سيدان على بعد ستين ميلاً، وقد تمزق الجيش أمامهم وتحطم شر تحطيم، وبدأت السيارات تتجه بسرعة هائلة نحو أميان وأراس، معززة الوصول إلى البحر عند إينغيل أو قريباً، وربما غيرت هذه القوات وجهة سيرها، وتحولت نحو باريس، وقال: إن القوات المدرعة البالغة ثمانين فرق تزعج وراء السيارات وتوسع في أجنتها أثناء تقدمها بعد أن شطرت الجيش الفرنسي وفصلت بينه تماماً، وقد استمر الجنرال يحدثنا عن الوضع حولي خمس دقائق، ويعد أن أنهى حديثه ساد الوجوم والصمت لفترة طويلة، ثم سألته: «أين القوة الاحتياطية وأين قوات المناورات؟»، وأجابني غاملان وهو يهز برأسه: «لا يوجد عندنا قوات احتياط أو قوات مناورة...».

وساد الصمت فترة أخرى، وارتفع الدخان في الحدائق من المشاعل ورأيت الموظفين يحملون الوثائق والمستندات الهامة ويضرمون فيها النيران، استعداداً للجلء عن باريس.

وعلى الرغم من أن للتجارب الماضية ميزات عديدة، إلا أنها تنقص نقصاً هاماً هو في كون الأمور لا تتكرر على نفس الصورة مرتين، ولولا ذلك لكانت الحياة تسير بسهولة كبيرة، وفي السابق تحطمت جبهتنا وتمكن العدو من اختراقها، لكننا كنا دائماً نتمكن من

وصل الأشياء ببعضها ونخفف من حدة الهجوم، أما الآن فالتجربة كانت مختلفة، فقد انقطعت طرق المواصلات، وتم الاستيلاء على الريف القائم وراء الجبهة باندفاع هائل من للسيارات المدرعة، ولم يكن باستطاعتنا المقاومة لعدم وجود احتياطي إستراتيجي لدى الفرنسيين... لقد أجبوني بأنه ليس لديهم احتياطي، وقد أذهلني جوابهم هذا، إذ كيف يمكننا اعتبار هذا الجيش الفرنسي الكبير بعد الآن؟ ولم أستطع أن أتصور أن قائدًا يعهد إليه مهمة الدفاع عن جبهة تقدر مساحتها بخمسمائة ميل، ويبقى عاجزًا عن المناورة، إذ لا يمكن لأي قائد أن يدافع عن جبهة واسعة كالجبهة الفرنسية، خاصة بعد أن يندفع العدو بهذه القوة الهائلة ويحترق الجبهة، لذلك يتوجب على القائد أن يطلق فرقة الاحتياطية لمهاجمة العدو في نفس اللحظة التي تكون حدة هجوم العدو قد خفت.

إذن لماذا أقامت فرنسا خط ماجينو هذا؟ فهو بلا شك قد وفر استخدام قوات كبيرة من الجيش، وبنفس الوقت خلق مراكز اندفاعية، باستطاعة الجيش أن يستخدمها أثناء هجومه المعاكس بالإضافة إلى استخدامه لتلك المراكز لحشد قوات إضافية تساعد الجيش عند الضرورة، وهذه هي الطريقة الوحيدة لمواجهة مثل هذا الموقف، ولكنهم يقولون: إنه ليس عندهم احتياطي، وهنا لا بد أن أعترف أن قولهم هذا كان أكبر مفاجأة تلقيتها في حياتي، فلماذا لم يعرفوني بهذا الأمر من قبل، حتى ولو كنت منهمكًا في أعمالي في الأميرالية؟ بل لماذا لم تعرف الحكومة البريطانية بهذا الأمر من قبل، وخاصة وزارة الحرب؟ ولا أعتقد أن القيادة الفرنسية ما كانت لتكشف لنا عن هذا الضعف أو عن طريقة توزيع قواتها، فهذا العذر هو أقبح من الذنب، إذ إنه من حقنا أن نعرف، فالجيشان يخوضان معركة حياة أو موت في الجبهة... وعدت إلى النافذة لأراقب ألسنة اللهب تلتهم الوثائق والمستندات الخاصة بالجمهورية الفرنسية. وكانوا لا يزالون يقذفون بمزيد من المستندات إلى النيران المتأججة...

وعاد الجنرال غاملان إلى الحديث مرة أخرى، ويقول: إذا لم يكن من الضروري إعادة جمع القوات المشتتة لتضرب القوات الغازية، وقال: إن هناك ثمانين فرق أو تسع يمكننا سحبها من المراكز الهادئة في الجبهة عند خط ماجينو، كما أن هناك ثلاث فرق مدرعة لم تشترك بعد في المعركة، بالإضافة إلى ثمانين فرق أو تسع فرق متصل في طريقها من إفريقيا خلال أسبوعين، وفي هذه الحالة سيجتاز الألمان طريقهم عبر ممرين جبهتين فيمكن شن الغارات

المعاكسة عليهم ، ولن يتمكن الألمان من الصمود نتيجة ضغط الجبهتين عليهم ...

ومع أن أقوال الجنرال غاملان كانت منطقية ومعقولة ، إلا أنني شعرت بأن بقية الرجال لا يصدقون ما يقوله ، وسألت الجنرال غاملان عن الموعد الذي سيحدثه للهجوم ، وعن الطريقة التي سيتبعها في هجرته ، وكان رده : «أنا أقل منهم عددًا وعدة ، وأضعف منهم في أساليب الحرب ...» وبعد ذلك اكتفى بأن هز كتفيه ، ولم نتكلم بعد ذلك ، إذ لم يكن من ضرورة لذلك ... ثم أين تقف بريطانيا إزاء هذا الوضع ، بإسهامها الضعيف الذي لا يتعدى العشر فرق والتي لا يوجد بينها فرقة واحدة من الدبابات الحديثة ، وذلك بعد مضي ثمانية أشهر من إعلان الحرب؟؟



وفي الصباح ، قبل أن أغادر المكان ، وصليتي التفاوض من مجلس الوزراء في لندن لنقل أربعة أسراب من الطائرات المقاتلة إلى فرنسا ، ورجعت إلى السفارة لأطلب إرسال ستة أسراب أخرى ، تاريخًا خمسة وعشرين سرًا فقط للدفاع عن الجزر البريطانية كلها ، وهذا هو الحد النهائي ، وجاءتني الموافقة في المساء ، فتوجهت لتوي إلى منزل الميسورينو وأبلغته النبأ ، كما طلبت منه استدعاء الميسور ديلايديه ليسمع النبأ المقترح ، الذي بدا لي أنه سيرفع من معنويات أصدقائنا الفرنسيين ، وعند ما سمع الميسور ديلايديه بالخبر لم ينبس بكلمة واحدة ، واكتفى بأن قفز من مكانه وأمسك بيدي وعصرها وأمرات الفرح ترسم على وجهه ... وفي صباح اليوم التالي عدت إلى لندن ، وقد أخبرت أصدقائنا الفرنسيين ، قبل أن أغادر باريس ، أنهم ما لم يذبلوا جهنمًا فائقًا فإن مغامرتنا الكبرى في إرسال تلك الأسراب من الطائرات تصبح دون فائدة ، وقد قيل لي : إن خسائر العدو كانت أكبر من خسائرننا بخمسة أضعاف ، كما قيل لي أن فرنسا فقدت معظم طائراتها ... وخيل للجنرال غاملان أن الوضع قد أصبح متعبًا ، وقد أخبروني بعد ذلك أنه أعلن بأنه لن يتمكن من الصمود أكثر من يوم واحد فقط ، وأن باريس ستسقط بين ليلة وضحاها !! وفي نفس اليوم الذي وصلت فيه لندن ، واصلتني الأخبار أن الألمان دخلوا بروكسل وفي اليوم التالي دخلوا كامبرية ثم اجتازوا سان كانتان ، بينما كانت القوات الحليفة تراجع مشحبة ...

وفي منتصف ليل الثامن عشر - التاسع عشر ، قام الجنرال ييلوي بزيارة اللورد غوت في

القيادة العليا، ولم تكن شخصية هذا القائد تبعث على الارتياح والثقة، ومنذ تلك اللحظة بدأت فكرة الانسحاب إلى الشاطئ تراود بخيلة قائد الإعلام البريطاني، وقد أبرق إلينا يقول أن الوضع في فرنسا قد تغير ولم تعد المسألة مسألة خرق لخط الدفاع، بل أصبح الوضع يشكل صورة القلعة المحاصرة والمهددة بالسقوط.



ويبدأ المسير رينو بتغيير أعضاء وزارته وقيادته العليا، وعين المارشال بيتان نائباً لرئيس الوزراء، ونقل المسير ديلايه إلى وزراء الخارجية وأخذ عنه مهام وزارة الدفاع والحربية واحتفظ بها لنفسه، كما عين الجنرال ويغان قائداً أعلى بدلاً من الجنرال غاملان.

كان آخر أمر أصدره الجنرال غاملان هو أن تشق الجيوش الشمالية طريقها إلى الجنوب إلى نهر السوم مهما كلفها الأمر، وأن تهاجم مدرعات العدو التي قطعت طرق مواصلاتنا، وفي نفس الوقت يترتب على الجيش الثاني والجيش السادس أن يخترقا الصفوف باتجاه الشمال نحو ميزير، وقد أعجبت بهذه القرارات المتخذة، فقد كانت قرارات صائبة جداً.

وقد أثار اضطراب القيادة الشمالية، وهزيمة الجيش الفرنسي الأول وغموض الموقف العام، أثار القلق في نفوسنا، وبقيت في نفس الوقت جميع الإجراءات التي اتخذناها هادئة مرنة وجاءتنا رسالة من اللورد غورت تقول أنه يدرس إمكانية انسحاب جيوشنا إلى دنكرك، بحال اضطر إلى ذلك... ولم يكن باستطاعة رئيس الأركان الموافقة على مثل هذا الاقتراح الذي لم نكن نحن أيضاً نوافق عليه، فبعثنا برسالة إلى اللورد غورت، نعلمه بها بوجوب الاتجاه بالقوات البريطانية نحو الجنوب الغربي لتنضم إلى القوات الفرنسية في الجنوب، وفي نفس الوقت يحث البلجيكيين على العمل بنفس الخطة، وإذا لم يوافقوا عليه أن يخبرهم عن استعدادنا لإجلاء أكبر عدد ممكن من القوات من موانئ المانش، وقررنا في نفس الجلسة أن نرسل الجنرال ديل إلى مقر قيادة الجنرال جورج، الذي كنا على اتصال تلفوني دائم معه، بينما كانت اتصالاتنا مع اللورد غورت متقطعة وصعبة، وقد وصلتنا الأخبار بأن الذخيرة والمؤن لم تعد تكفي إلا لمدة أربعة أيام فقط.

وفي العشرين من أيار، بعد أن درسنا وضع جيشنا من جديد، قررنا بالجلسة الخاصة ما يلي: «يتوجب على الأيرالية أن تقوم بحشد أكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة، وذلك

كإجراء احتياطي، لنكون على استعداد للإبحار إلى الموانئ القائمة على طول الساحل الفرنسي، وفي نفس اليوم عقد المؤتمر الأول لجميع من يعينهم الأمر لدراسة قضية الجلاء الطارئ عبر القناة لقوات كبيرة جدًا، كما وضعت الخطة لإجلاء عشرة آلاف رجل عن موانئ كاليه ويولون ودينكرك، كل أربع وعشرين ساعة، وقد أسميت هذه الخطة «عملية دينامو» التي برهنت على أنها الطريقة الوحيدة التي أنقذت الجيش بعد عشرة أيام.



وفي ليلة العشرين من الشهر نفسه دخل الألمان مدينة إيفيل، بعد أن قطعت طرق مواصلات الجيوش الشمالية، وأصبح اتجاه قواتهم واضحًا الآن وكانت الفرق الآلية والمدفعية تتدفق كالسيل الجارف دون أن تلقى أية مقاومة من الفرنسيين، وكانت تتقدم مجتازة المدن والقرى بمعدل ثلاثين أو أربعين ميلاً في اليوم الواحد، وكان الضباط الألمان ينظرون إلى السكان ويتسمون بسخريّة وهم يلوحون لهم بأيديهم، وتتحدث الأخبار أن جماعات من الأسرى الفرنسيين كانت تسير معهم والبنادق لا تزال في أيديهم، وكان الألمان يجمعونها بين الفترة والأخرى ويحطمونها تحت الدبابات... وقد أذهلني هذا الفشل في الوقوف أمام هجمات المدرعات الألمانية التي تمكنت من تحطيم جيوش قوية بكاملها، كما أذهلني الانهيار السريع في المقاومة الفرنسية بعد أن تمكن الألمان من اختراق الجبهة، فقد كانت القوات الألمانية تسير على الطرقات الفرنسية الرئيسية بحرية تامة، ولم يد أن أي طريق قد أغلق في وجه الأعداء ولو في نقطة واحدة تدل على شيء من المقاومة...



الفصل الثاني

المسير نحو البحر



لقد كان هتلر الرجل الوحيد الذي يستطيع اختراق حيد بلجيكا وهولندا، وبلجيكا لن تطلب العون من الحلفاء إلا إذا هوجمت، لذلك بقي زمام المبادرة العسكرية في يد هتلر الذي وجه ضربه في اليوم العاشر من شهر آيار، وانتقلت الجيوش الفرنسية والبريطانية من وراء خطوطها إلى بلجيكا لمحاولة إنقاذها، بدلاً من البقاء عند خطوط الدفاع المحصنة، وقد كانت هذه المحاولة حسب خطة رسمها الجنرال غاملان والملقبة بالخطة «د»، وكان الفرنسيون قد تركوا نقطة الدفاع المقابلة للإردين، دون دفاع قوي، فتمكنت الجيوش الألمانية من الاندفاع بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ وقسمت خط الجيوش الفرنسية، وبعد ثمان وأربعين ساعة أصبحت الجيوش الألمانية تهدد بقية الجيوش المتمركزة بالشمال قاطعة خط مواصلاتها الجنوبية وعن البحر أيضاً، وكان على القيادة العليا الفرنسية، أن تأمر جيوشها بالانسحاب فوراً وبأقصى سرعة ممكنة متحملة الحسائر البالغة في المعدات، إلا أن الجنرال غاملان لم يواجه هذه الحقيقة المخيفة، بينما كان قائد الجيوش الشمالية، ييلوي، عاجزاً عن اتخاذ القرارات الهامة بنفسه، لذلك عمت الفوضى جميع الجيوش في الجبهة الشمالية المهددة.

وعندما شعرت هذه الجيوش بالخطر المحدق بها، تراجعت إلا أن العدو كان قد طوقها من الأيمن، فقامت بإنشاء خط دفاعي، لكنها لم بدت هذه الجيوش بالتراجع قبل هذا الوقت الذي تراجعت فيه، لكان باستطاعتها أن تصل إلى خطها القديم فتتمكن من النجاة، لكن هذه الجيوش تأخرت وفقدت ثلاثة أيام بين أخذ ورد فاستكمل العدو حركة التطويق! ورأت وزارة الحرب في بريطانيا أن القتال الفوري في الجنوب هو الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيش البريطاني، لكن اللورد غورت، لم يوافق على هذه الفكرة وبإمكانية نجاحها فالخطة المقترحة من وزارة الحرب تقضي بإشغال العدو على عدة جبهات لتتمكن من خرق جبهة واحدة لتنفيذ خطة التراجع، وفي هذا الوقت تغيرت القيادة العليا في فرنسا وصرف الجنرال غاملان وخلفه في القيادة الجنرال ويغان، وأدى هذا التغيير في القيادة إلى التأخير ثلاثة أيام أخرى، واقترح الجنرال خطة مشابهة لخطة سلفه واضطرونا إلى قبولها مرغمين، وحاولنا بكل جهد أن نفذها مخلصين إلى أن انقطعت طرق المواصلات أمامنا، بعد أن صد

الألمان هجمائنا الضعيفة واحتلوا أراس وانهارت الجبهة البلجيكية، وأوشك الملك ليوبولد على الاستسلام، وفقدنا كل أمل في الانسحاب إلى الجنوب، ولم يبق أمامنا إلا البحر، وفي الحال، أقام اللورد غورت رأس حسر حول دنكرك محاولاً شق طريقه بكل قوته، وكنا في هذه الأيام بحاجة إلى كل ما عرف عنا من نظام وطاعة ودقة في القيادة ...



وهنا سنعرض قصة كثر الجدل حولها، فقد ذكر الجنرال هولدر رئيس أركان الجيش الألماني، أن هتلر قد تدخل في هذا الوقت شخصياً ولأول مرة لأنه شعر بالخوف على أليته المدرعة لأنها أصبحت في وضع خطر للغاية، فهي الآن في أرض وعرة محاطة بالأقنية ولا يمكنها التقدم بشكل سريع، وبنفس الوقت لا يمكنه احتمال أي خسارة في معداته، فهو بحاجة إليها في المرحلة الثانية من حملته، واعتقد أن سلاح الطيران سيتمكن من السيطرة ومنع التراجع والانسحاب عن طريق البحر، لذلك أرسل أوامره بوقف أليته المدرعة وتراجعها في بعض الأماكن، وهكذا أصبح في مقدور البريطانيين الانسحاب والوصول إلى دنكرك، هذا حسب قول هولدر نفسه، وعلى كل حال فقد تمكنا من التقاط رسالة ألمانية في صباح الرابع والعشرين من آيار، تأمر بوقف الهجوم على دنكرك، ويقول هولدر أيضاً: إنه رفض التدخل في تحركات الجيوش التي كانت تحت أمرة رونشتادت والتي كانت تحمل الأوامر الصريحة بمنع العدو من التقدم والوصول إلى البحر، وقال: إنه كلما أسرع في تحقيق النصر كان أسهل فيما بعد التعويض عن الدبابات والمدرعات المفقودة.

ولم يلبث هتلر أن أصدر أمراً بإيفاد ضابط ارتباط شخصي إلى الجبهة، ومضى الجنرال هولدر يقول:

« لم أعرف كيف اقنع هتلر بضرورة عدم تعريض قواته المدرعة إلى الخطر ومن المرجح أن يكون كايثل قد أوحى له بهذه الأفكار عن طريق القصص التي كان يقصها عليه ».

وقد صرح قادة آخرون بقصة مشابهة وأشاروا إلى أن هتلر قد أصدر أوامره هذه لأسباب سياسية، منها فصح المجال أمام إنكلترا لطلب السلام بعد الهزيمة التي لحقت بفرنسا، وقد ظهرت بعد انتهاء الحرب بعض الوثائق التي صدرت عن مقر قيادة

رونشتادت على شكل يوميات دونت في ذلك الوقت أما هذه الوثائق فتروي القصة بشكل مختلف تماماً ! فالأوامر صدرت عند منتصف ليل الثالث والعشرين من أيار من مقر القيادة العامة، تحمل توقيع براوخيتش تذكر فيها أن الجيش الرابع سيقى تحت قيادة رونشتادت ليقوم بالرحلة الأخيرة من معركة التطويق، وفي صباح اليوم التالي، عندما وصل هتلر لزيارة رونشتادت، أخبره أن الآليات المدرعة، التي توغلت بعيداً قد ضعفت قوتها، وهي بحاجة إلى فترة من التوقف لاستعادة نشاطها كي تتمكن من توجيه الضربة القاضية للعدو الذي يقاتل بضرارة، وكان رونشتادت يتظر هجمات شديدة من الحلفاء في الشمال والجنوب، وهي الخطة التي اقترحها ويغان، وقد وافق هتلر على وجوب توقف السلاح المدرع لتجهيزه للمعركة الحاسمة المقبلة، ومع ذلك، فقد وصل في صباح اليوم التالي الأمر من براوخيتش، القائد العام، باستمرار تقدم المدرعات، وهنا رفض رونشتادت الأمر الموجه إليه، بعد أن اطمأن إلى موافقة هتلر الشخصية، ولم ينقل هذا الأمر إلى قائد الجيش الرابع «كلوغه» بل طلب منه أن يستمر في تجميع القوات المدرعة، وقد احتج «كلوغه» على هذا التأخير، ولكن رونشتادت لم يصدر أوامر القيادة العليا إلا في صباح يوم السادس والعشرين وأضاف أنه يجب ألا يهاجموا دنكرك بالذات... وقد ذكرت هذه اليوميات عن احتجاج قادة الجيش الرابع على هذا التخصيص وكتب رئيس أركان حربه يقول :

«أن الوضع في الموانئ كان على الشكل التالي : فالبواخر الكبيرة كانت تقترب من الأرصفة، وتمتد الألواح الخشبية إلى الشاطئ وبسرعة عجيبة كانت أسطحه البواخر تكتظ بالرجال، أما أسلحتهم وعتادهم الحربي فيتركونه وراءهم، لكننا لم نكن نريد أن نرى هؤلاء الرجال أنفسهم يعودون مرة أخرى وقد تسلحوا بسلاح جديد ليقوموا بجولات جديدة ضدنا» .

ومن هذه اليوميات يتبين أن المدرعات قد توقفت بناء للأوامر التي صدرت عن رونشتادت لا عن هتلر، ولابد أن تكون هناك وجهة نظر خاصة، إلا أن القادة الألمان أجمعوا على أن هذه الأوامر قد أضاعت فرصة عظيمة عليهم .



لم تكن القوات الألمانية تضغط بشدة على خط الدفاع البلجيكي، ولكنها ما أن بدأت

ضغطها المتزايد حتى انهيار الخط وتمكن الألمان من تخطيطه على جانبي كورتاني، التي لا تبعد عن أوستند ودنكرك أكثر من ثلاثين ميلاً، وما لبث ملك بلجيكا أن يثس من الوضع الحاضر فقرر الاستسلام.

واتخذ اللورد غورت قراره الحاسم بالتخلي عن خطة الجنرال ويغان القاضية بالزحف نحو الجنوب ونحو الشمال، وقرر بدلاً عنها بعد اقتناعه التام بأن إشراف الحكومتين البريطانية والفرنسية قد انتهى على ميدان المعركة، وكل سيطرة للقيادة الفرنسية العليا قد زالت، لذلك قرر أن يستبدل فكرة الهجوم نحو الجنوب، بسد الثغرة التي ستحدثها استسلام بلجيكا في الشمال، وأن يزحف باتجاه البحر، وهكذا أصدر أوامره إلى الفرقتين الخامسة والخمسين بوجوب الانضمام إلى اللواء البريطاني الثاني لسد الثغرة في الجبهة البلجيكية، كما نقل إلى الجنرال بلانشار الفرنسي عزمه على تغيير الخطة الأولى ووافق الجنرال وقرر الانسحاب إلى الخط الواقع وراء قناة ليز غربي ليل، وقرر إقامة رأس جسر حول دنكرك.

وفي الصباح الباكر من اليوم السادس والعشرين من شهر أيار، قام غورت وبلانشار برسم خطة الانسحاب نحو البحر، ولما كان على الجيش الفرنسي أن يقطع مسافة أطول، لذلك مهدت قوات الحملة البريطانية الطريق بينما بقيت القوات الأخرى في خطوط الدفاع في الجبهة حتى ليله الثامن والعشرين من أيار، وكان اللورد غورت يتصرف حسبما يراه مناسباً على مسؤوليته الخاصة، إلا أننا في الوزارة كنا قد توصلنا إلى نفس النتيجة حسب المعلومات التي حصلنا عليها، لذلك أصدرنا له برقية تأييد للإجراءات التي قام بها طالين منه التوجه إلى البحر بالاشتراك مع القوات الفرنسية والبلجيكية، ثم بدأ حشد أكبر عدد ممكن من المراكب والسفن.

وفي هذه الأثناء، استمرت عملية إقامة رؤوس الجسور حول دنكرك، كما تقرر أن يحفظ الفرنسيون بالأماكن الواقعة بين «غريفلاين» و«بيرغ» بينما يحافظ البريطانيون على القناة عبر فيرنز إلى نيوبورت والشاطئ وتلقى اللورد غورت من الوزارة تأكيداً للأمر الذي صدر إليه في إجلاء أكبر عدد ممكن من الرجال، وكنت قد أخبرت المسيو رينو أن هدفنا هو

سحب القوات البريطانية ، كما طلبت منه أن يصدر أوامر مماثلة ، وكانت حركة المواصلات قد أصبحت ضخمة حتى إن قائد الجيش الفرنسي الأول أصدر أمره في السابع والعشرين من أيار إلى جنوده يقول : «إن المعركة تدور الآن دون تراجع حتى خط ليز» .

أصبح الخطر يهدد فرقاً بريطانية أربعة ، بالإضافة إلى الجيش الفرنسي الأول كله ، بالعزلة والانقطاع ، وراحت (الكماشة) الألمانية تحاول الضغط بكل قوتها على جيوشنا ، وكانت هذه اللحظة من اللحظات الحاسمة التي تلعب فيها وسائل النقل الميكانيكية دورها البارز ، فما أن أصدر اللورد غورث أمره بالتراجع حتى كانت الفرق الأربع تتراجع بسرعة مذهلة في ليلة واحدة ، وتمكنت بقية الفرق البريطانية من الاحتفاظ بالممر المؤدي إلى البحر بكثير من الجهد ، وبعد معارك دامية تمكن العدو من إغلاق (الكماشة) بعد أن تم تأخيرها ثلاثة أيام بفضل الفرق البريطانية الثانية ، وتم إغلاق ذراعي الكماشة بصورة تشبه تلك العملية الروسية العظيمة حول ستالينغراد سنة ١٩٤٢ ، وقد تم انسحاب الجيوش البريطانية والفرنسية ، خلال هذه الفترة ، وتمكنت من النجاة عدا اللواء الخامس من الجيش الفرنسي الذي فقد ...



قبل عشرة أيام طلبت من المستر تشمبرلين درس إمكانية استمرارنا في الحرب وحدنا ، والآن ما لبثت أن عرضت الأمر بصفة رسمية على مستشارينا العسكريين ، وقد وضعت الأسئلة بطريقة تترك المجال أمام رؤساء الأركان لإبداء آرائهم بحرية تامة ، مهما كانت تلك الآراء ، وبالرغم من ثقتي التامة بأنهم سيطلبون الاستمرار في الحرب ، إلا أنني وجدت من الحكمة أن أحتفظ بسجلات خطية عن مثل هذه الآراء ، كما أردت أن أؤكد للبرلمان أن آراءنا بالاستمرار في الحرب تدعمها آراء الخبراء العسكريين المحترفين . وهنا أسرد نص السؤال بحرفيته مع رد رؤساء الأركان عليه :

١ - لقد أطلعنا على التقرير عن « إستراتيجية بريطانيا في حال حدوث تطور معين » على ضوء المهمة التي كلفنا بها رئيس الوزراء في رسالته التالية :

« في حال عجزت فرنسا عن الاستمرار في الحرب ، وفي حال اتخذت موقف الحياد ، وفي حال احتفاظ الألمان بوضعهم الحالي واستسلام الجيش البلجيكي بعد مساعدة الحملة البريطانية على الوصول إلى البحر ، وفي حال التقدم بعروض من شأنها أن تضع بريطانيا تحت رحمة ألمانيا بسبب اقتراحات نزع السلاح ووقف القواعد البحرية عن العمل في جزر أوركني وغيرها ، فما هو الأمل في استمرار الحرب ضد ألمانيا ، وربما ضد إيطاليا أيضًا ؟ وهل سيتمكن الأسطول والسلاح الجوي ، من حمايتنا ضد غزو ألماني خطير ، وهل سيتمكن قواتنا التي سنحشدنا في هذه الجزر من مقاومة الغارات الجوية عليها ، مع العلم أن هذه القوات تضم وحدات لا يبلغ عدد أفرادها العشرة آلاف ! شرط أن نأخذ بعين الاعتبار أن إطالة مدة المقاومة ستشكل خطرًا كبيرًا على ألمانيا التي ستكون منصرفة إلى السيطرة على الأجزاء التي احتلتها في أوروبا .

٢- هذا وقد توصلنا إلى نتائج سنذكرها في الفقرات التالية :

٣- يمكن لأسطولنا البحري أن يتعاون مع سلاحنا الجوي في الدفاع ومنع ألمانيا من القيام بهجوم كبير عن طريق البحر .

٤- إذا افترضنا أن ألمانيا استطاعت أن تنفوق على قواتنا الجوية ، فنحن نعتقد أن الأسطول سيتمكن من المقاومة لفترة محدودة فقط .

٥- إذا لم يتمكن أسطولنا من المقاومة ، وإذا ما تمكن العدو من التغلب على سلاحنا الجوي ، وإذا حاولت ألمانيا أن تغزونا ، فلن تتمكن قواتنا الساحلية من الدفاع ومنع إنزال قوات برية على الشواطئ ، وفي هذه الحال ستكون قواتنا البرية غير قادرة على الصمود أمام غزو ألماني كبير .

٦- فإذا ما تمكنت ألمانيا من إحراز تفوق جوي ، فباستطاعتها غزو بلادنا وإخضاعها عن طريق الجو فقط .

٧- لن تتمكن ألمانيا من التفوق علينا في الجو ، إلا إذا تمكنت من القضاء على سلاحنا الجوي برمته ، وإذا ما تمكنت من تخطيط جميع مصانع الطائرات في كوفن تري وبرمنغهام .

٨- قد تقع الغارات الجوية على مصانع الطائرات في الليل وفي النهار ، ونحن نرى أنه بإمكاننا أن نلحق بالعدو خسائر فادحة أثناء قيامه بغارات في النهار ، ومهما حاولنا فلن نتمكن من حماية جميع مصانع طائراتنا خاصة أثناء غارات العدو الليلية ، فعلى أن نحول بينه وبين تنفيذ أهدافه قدر إمكاننا .

٩- إن نجاح العمليات الجوية في القضاء على صناعة الطائرات ، لا تعتمد على القنابل والتخريب الذي ينجم عنها ، بل يعتمد أيضًا على التأثير المعنوي على العمال الذين سيتوقف عليهم وحدهم الرغبة في الاستمرار في العمل بالرغم من الاضطرابات والمخاوف .

١٠- إذا استمر العدو في غاراته الليلية على مصانع طائراتنا ، فقد ينجح في إلحاق الأضرار المادية والمعنوية بنا ، وسيتوقف العمل في مصانعنا على الفور .

١١- علينا أن نؤكد من أن الألمان متفوقون علينا في عدد الطائرات بنسبة أربعة إلى واحد ، بالإضافة إلى أن مصانع طائراتهم أكثر توزيعًا وقوة من مصانعنا .

١٢- ومن ناحية ثانية ، فإمكانتنا نحن أيضًا توجيه ضربات قوية على مصانع العدو ، ما دامت لدينا قوة كبيرة من قاذفات القنابل ، التي ستلحق بغاراتها على مصانعهم الكثير من الأضرار المادية والمعنوية وتوقف قسم كبير منها عن العمل .

١٣- وبالإجمال ، تبدو ألمانيا لأول وهلة أنها تملك زمام الأمور بيدها ، ولكن النتيجة تتوقف على مقدرة جنودنا وسكاننا المدنيين على الصمود ، بفضل ما تتمتع به من روح معنوية عالية تمكنتنا من موازنة ألمانيا التي تبدو أنها متفوقة علينا .

لقد كتب هذا التقرير في أحلك الأوقات ، وقبل عملية إنقاذ دنكرك وقد وقع على التقرير رؤساء أركان الحرب الثلاثة ، وهم : «نيو وال - باوند - واير ونسايد ، ونوابهم الثلاثة : ديل - فلبليس ويرس ، وعندما قرأت هذا التقرير بعد سنوات ، أريد أن أقر على ما كان يحتويه من خطورة وغموض ، إلا أننا كنا قد حزمنا أمرنا وقررنا المضي يدا واحدة وقلبا واحداً .

وقد أصدرنا التعليقات العامة التالية :

مصري للغاية :

« إن من دواعي امتنان رئيس الوزراء ، في هذه الأيام السوداء ، أن يرى زملاؤه الوزراء وهم محتفظون بروحهم المعنوية لعالية ، خلال الفترات الصعبة التي يعيشونها ، وعلينا ألا تقلل من أهمية هذه الأحداث وحظورتها وحراجتها ، وعلينا أن نبرهن عن عزمنا وتصميمنا الأكيد على المضي في هذه الحرب ، حتى نحطم إرادة العدو الراغب في السيطرة على أوروبا وإخضاعها لنفوذه وسيطرته .

وعلى ألا نتسامح بالفكرة لقائلة: إن فرنسا ستقوم بعقد صلح منفرد مع ألمانيا، ولكن مهما حدث على هذه القارة الأوروبية فعلى ألا نشك في واجباتنا ، وسنستخدم كل ما نملكه من قوة للدفاع عن بلادنا وإمبراطوريتنا وقضيتنا .



وفي صباح اليوم الثامن والعشرين استسلمت بلجيكا ، وقد وصلت الأنباء إلى اللورد غورث قبيل الاستسلام بساعة واحدة ، وكان هذا الانهيار متوقعا قبل ثلاثة أيام ، وقد استطاعت القوات البريطانية أن تسد هذه الثغرة التي كان متوقعا حدوثها ، واستطاعت قوات الحملة البريطانية الجلاء ، كما تمكن نصف الجيش الفرنسي الأول من الوصول إلى دنكرك سالما حيث تم نقل رجاله بسلام ، لكن خمس فرق لم يكتب لها النجاة بعد أن أطبقت عليها الكماشة الألمانية ، إلا أنهم صمدوا أمام الضغط الهائل واستسلموا في القتال حتى مساء الحادي والثلاثين من أيار ، واضطروا إلى الاستسلام بعد أن نفذ ما لديهم من غذاء وعتاد ، وهكذا استسلم نحو من خمسين ألف جندي فرنسي للأعداء ، وقد تمكن هؤلاء من الصمود بقيادة الجنرال مولنيه الباسل وأتاحوا بذلك الفرصة أمام رفاقهم للنجاة عن طريق دنكرك .

وقد مرت بمحنة قاسية خلال الأيام المخيفة ، ولم أكن أجروا على التدخل ، إذ أن التدخل سيؤدي إلى زيادة الخطر على الرجال بدلاً من تخفيفه عنهم ، ولا شك أن التزامنا المخلص لخطة الجنرال ويغان قد رادت من خطورة الموقف ، إلا أن قرار اللورد غورث .

الذي وافقت عليه وأيدناه، والقاضي بالزحف نحو البحر قد نفذ بدقة متناهية بفضل عبقرية القائد ومساعدوه، وسيبقى هذا الحادث كأسطورة رائعة من أساطير البطولة في تاريخ بريطانيا العسكري .



الفصل الثالث

إنقاذ دنكرك



منذ العشرين من أيار ، بدأ حشد البواخر والقطع الصغيرة تحت قيادة الأميرال رامسي قائد موقع ووفر ، وفي مساء السادس والعشرين من الشهر نفسه أعلنت الأميرالية ابتداء عملية «دينامو» ووصلت أول قوة جلت عن دنكرك إلى الوطن ، وبعد أن فقدنا ميناء بولون وكاليه ، لم يبق عندنا سوى السواحل الرملية القريبة من حدود بلجيكا وما تبقى من ميناء دنكرك ، وقد خيل لنا أن أكبر عدد يمكننا إنقاذه في ذلك الوقت لن يتعدى الـ ٤٥ ألف رجل خلال يومين ، وقد اتخذت إجراءات الطوارئ للحصول على أكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة للقيام «بمهمات خاصة» وهذا يعني نقل نصف قوات الحملة البريطانية ، وكان عمل السفن الصغيرة يقتصر على الشواطئ الرملية ، بينما تعمل بقية السفن الكبيرة في ميناء دنكرك نفسه ، وقام ضباط الأميرالية بالبحث عن الزوارق الصغيرة في جميع الأحوال القائمة بين تيدلنغتون وبراتلينغسي ، فتمكنوا من جمع أربعين زورقاً بخارياً ولنشا ، كما جمعت كافة القوارب واليخوت والزوارق وزوارق صيد السمك والمواعين وكل ما كان على شواطئ البحر من وسائل النقل ، وفي ليل السابع والعشرين من أيار اندفع سيل هائل من هذه القطع الصغيرة نحو شواطئ دنكرك لإنقاذ جيشنا الحبيب .

وبعد أن تأكدت للأميرالية أن الأمر لم يعد سرّياً أطلقت العنان لكل حركة من حركات الإنقاذ وسمحت لكل من يملك قارباً أو زورقاً مهما كان نوعه أن يبحر إلى دنكرك ، وعمل الجميع في هذا الجو الرائع من الحماس الوطني على إنقاذ ما لا يقل عن مائة ألف جندي من جنود الوطن من الشواطئ إلى السفن الرأسية في عرض البحر ، تحت وابل من الغارات الجوية العنيفة ، والقصف الذي لم ينقطع من طائرات العدو .

في هذه الأثناء ، كانت القوات الإضافية تعزز المواقع الأمامية حول دنكرك وبدأت النجندات تصل إلى خطوط الدفاع الأمامية ، وكان من المقرر أن تشارك ثلاثة ألوية في عملية الدفاع ، لكن الفرنسيين حملوا عنا القسم الأكبر من مهمة الدفاع عن الجبهة ، فقررنا الاكتفاء بلواءين فقط ، وكان الألمان يطاردون جنودنا أثناء انسحابهم فينشب القتال المرير بين جنودنا ومطارديهم خاصة حول الجناحين في نيوبورت وبييرغر ، ومع استمرار الجلاء كان العدد ينخفض وتتقلص الخطوط الدفاعية ، ووقفت الألوف من الجنود موقف الأبطال أمام

القصف الجوي المستمر مدة أربعة أو خمسة أيام مريعة، وثبت أن مزاعم هتلر حول منع عملية الانسحاب بواسطة سلاحه الجوي لم تكن صحيحة بالإضافة إلى أنها كانت غير معقولة وفاشلة، فقد تبين أن القصف الجوي المستمر على حشودنا الكبيرة على الشواطئ لم يلحق بهم أضراراً كبيرة، وفي البداية عندما بدأت أولى الغارات الصاعقة، ذهل جنودنا من أن تلك الغارة لم تقتل أيًا منهم تقريباً، فقد كانت تلك الشواطئ صخرية لتغير الوضع وأضحت النتائج مهلكة، إلا أن الشواطئ الرملية بطبيعتها جعلت من نفسها مكاناً أميناً يقيهم شر الغارات الوحشية.

وقد أذهل سلاح طيراننا العدو لشدة بأسه ونشاطه، فقد كانت المعارك الجوية التي دارت في سماء دنكرك تجربة للكفاءات الجوية البريطانية والألمانية، واحتفظت قيادتنا الجوية بطائرات مقاتلة ملأت سماء المعركة بصورة مستديمة، بأذلة جهداً عظيماً في مجابهة العدو الذي يفوقها في العدد، وكانت طائرتنا تغلب على الطائرات العدو بسرعة مذهلة وتنزل بها خسائر فادحة وتطردها خارج سماء المعركة، وقد استمرت هذه المعارك الهائلة يوماً بعد يوم إلى أن حقق سلاحنا الجوي النصر الكبير، وما إن تشاهد الطائرات العدو حتى تهاجمها أسرابنا وتلتحم معها في معارك ضارية وتسقط منها العشرات، وهكذا استخدمنا في هذه المعركة العنيفة كل ما نملكه من طائرات احتياطية في الوطن، وكان الطيار البريطاني يقوم بأكثر من أربع غارات يومياً، ولذلك حصلنا على نتائج واضحة ومرضية. فقد كان العدو المتفوق علينا ينهزم أمامنا أو يقتل ويتخاذل ويضعف، لقد كانت المعركة فاصلة، ولم يكن جنودنا على السواحل يشاهدون هذا الصراع الهائل في الجو، فالمعركة كانت مشتتة بعيداً عن أنظارهم، وكانوا يجهلون ما يفعله نسورنا في الجو، وكل ما يشعرون به هو هذه القنابل المنهمرة على الشواطئ التي يرسسها العدو الذي يتمكن من الإفلات والوصول إلى الشواطئ، ولسوء الحظ، سيطر شعور من الغضب والثقة على سلاحنا الجوي البطل لأن الجنود لم يشاهدوه في سماء المعركة، ولم يعلموا شيئاً عن الخسائر الهائلة التي كان يلحقها بالعدو، وقد وصل بعض الجنود إلى دوفر وموانئ التيمز وهم يشتمون زملاءهم الطيارين، جهلاً منهم لتلك الحقيقة المشرفة والبطولة النادرة، لذلك قررت أن أذيع تلك الحقائق في البرلمان.

أما في البحر فقد ساد النظام الكامل على ظهر السفن والبواخر ، وكان البحر هائجاً مما ساعد على استمرار الهدوء والنظام ، وراحت الزوارق تعمل بهمة لتقلل الرجال من الشواطئ إلى البواخر غير عابئة بالغارات الرهيبة التي كانت تمطرهم بوابل من قنابلها المميتة ، وكان عدد هذه الزوارق الكبير هو وحده الذي تحدي الغارات الجوية ، وثبت أن « أسطول البعوض » الجبار لا يغرق .



وفي الحادي والثلاثين من شهر أيار بلغ القتال في دنكرك ذروته ، وقد نقل خلال يومين فقط ما يزيد عن ١٣٢ ألف رجل ، انتقل معظمهم من الشاطئ في زوارق صغيرة تحت وابل من القنابل بل والمدافع ، وقد بذلت القاذفات المعادية أكبر مجهود لها في اليوم من حزيران ، وكانت تركز غاراتها أثناء عودة مقاتلاتنا للتزود بالوقود ، وقد خسرنا عدداً ضخماً من بواخرنا نتيجة لتلك الغارات ، وبلغ مجموعها مجموع ما غرق في الأسبوع الماضي بكامله ، وبلغت خسائرنا في ذلك اليوم إحدى وثلاثين سفينة بالإضافة إلى إحدى عشرة سفينة أخرى أصيبت إصابات طفيفة ، وزاد العدو من ضغطه وهو يأمل في اختراق خطوط دفاعنا إلا أنه لم يتمكن بفضل مقاومة قواتنا الخليفة الخلفية الرائعة .

ومضت المرحلة النهائية لعملية الجلاء بكثير من الدقة والمهارة ، وأصبح بإمكاننا رسم الخطط سلفاً ، بدلاً من اضطرارنا إلى الاعتماد على الظروف والأحداث التي كانت تتغير في كل لحظة ، وعندما حل فجر اليوم الثاني من حزيران لم يبق في ضواحي دنكرك سوى أربعة آلاف بريطاني ومعهم سبعة مدافع مضادة للطائرات و١٢ مدفعاً مضاداً للدبابات ، ظلوا بالاشتراك مع القوات الفرنسية التي كانت لا تزال تحافظ على خط الدفاع الرئيسي وقرر الأميرال رامسي النزول دفعة واحدة إلى الميناء في تلك الليلة ، إذ لم يعد ممكناً الانسحاب إلا أثناء الليل ، وأبحرت من إنكلترا في هذه الليلة أربع وأربعون باخرة بالإضافة إلى الزوارق الصغيرة المحتشدة ، كما اشترك في هذه العملية أربعون سفينة أخرى فرنسية بلجيكية ، وتم نقل قوة المؤخرة البريطانية كلها قبل حلول منتصف الليل .

لكن هذه لم تكن النهاية في دنكر ك ، فقد كنا على أتم الاستعداد لنقل المزيد من القوات الفرنسية الموجودة في الميناء ، لكن عندما اضطرت بواخرنا إلى الانسحاب في تلك الليلة ، كان على الشواطئ عدد كبير من الجنود الفرنسيين لا يزالون مشتبكين مع العدو في قتال عنيف ، وكان علينا أن نحاول مرة أخرى بالرغم من الإعياء المسيطر على بحارتنا من جراء الجهد الهائل الذي بذلوه دون توقف خلال الأيام الماضية دون أن يذوقوا طعمًا للراحة والنوم ، وفي اليوم الرابع من حزيران أنزلنا في إنكلترا (٢٦١٧٥) فرنسيًا كان بينهم واحد وعشرون ألفًا في سفن بريطانية ، أما الباقون والبالغ عددهم بضعة ألوف ، فقد واصلوا القتال عندما وصل العدو إلى ضواحي البلدة بعد أن بلغ بالجنود الإعياء واحتملوا أقصى ما يمكن للطاقة البشرية أن تحتمله بحيث تمكنوا من تغطية انسحاب زملائهم ، فسقطوا أسرى في أيدي الأعداء .

وأعلنت الأميرالية أخيرًا في تمام الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والعشرين من بعد ظهر يوم الرابع من شهر حزيران انتهاء عملية «دينامو» ، وقد تم نقل (٣٣٨٠٠٠) جندي بريطاني وحليف إلى الجزر البريطانية .



الفصل الرابع

التسابق نحو المفانم



كانت علاقتي الشخصية مع موسوليني في المرتين اللتين اجتمعت فيهما معه عام ١٩٢٧، وثيقة، ولم أكن لأعرض حكومتي على مقاطعته حول موضوع الحبشة، أو لأثير نقمة عصابة الأمم عليه، إلا إذا كنا على استعداد لخوض معركة ضده حتى النهاية.

وفي هذه الأثناء، وبعد الكارثة التي ألمت بنا في فرنسا، وجدت أنه يترتب علي بصفتي رئيساً للوزارة أن أبذل ما في وسعي لإبقاء إيطاليا خارج الحرب، وبالرغم من ثقتي بعدم جدوى هذه المحاولة إلا أنني لم أتردد في استخدام كل ما لدي من نفوذ وطاقات، فبعد ستة أيام من تسلمي للحكم في بريطانيا بعثت بنداء إلى موسوليني، وقد سمحنا بنشر النداء والرد عليه بعد عامين في ظروف مغايرة عن تلك الظروف، وكان تاريخ ندائي هذا هو السادس عشر من أيار عام ١٩٤٠ وهذا نصه:

من رئيس الوزراء إلى السيور موسوليني:

الآن بعد أن أصبحت رئيساً للوزارة ووزيراً للدفاع، فقد رجعت بذاكري إلى اجتماعتنا الماضية في روما، فإني أشعر بالرغبة في نقل عبارات حسن النية بوصفك رئيساً للشعب الإيطالي، عبر ما يبدو أنها ثغرة تتسع بسرعة، هل فات الوقت لصدر نهر الدماء من الاندفاع بين الشعبين البريطاني والإيطالي؟ إن في إمكاننا أن نلحق ببعضنا إصابات قوية مؤلمة، وأن يضرب بعضنا البعض دون رأفة، وأن نحيل البحر الأبيض المتوسط إلى ظلام بتراينا وخصامنا، فإذا كانت هذه رغبتك، فلنكن كذلك، ولكنني أعلن بأنني لم أكن يوماً من الأيام عدواً لعظمة إيطاليا أو عدواً للمشرع الإيطالي الذي منحنا القوانين والشرائع أن من العبث معرفة وجهة هذه المعارك الدائرة الآن في أوروبا، ولكنني متأكد من شيء واحد هو أنه مهما حصل في القارة الأوروبية، فإن بريطانيا ستمضي بثبات إلى نهاية الطريق، حتى لو اضطرت إلى البقاء لوحدها كما جرى في السابق، كما أفي متيقن من أن المساعدات الأميركية لنا ستزداد، بل أننا سنتلقى العون من الأميركيين أنفسهم.

وأني أرجو أن تصدق، أن الدافع الذي دفعني إلى توجيه هذا النداء إليك، لم يكن الخوف أو الضعف، فهذا النداء سيسجل على صفحات التاريخ، فعبر الأجيال المقبلة وفوق الهتافات، سيبقى الهتاف الوحيد قائماً بالاشتراك الوارثان للحضارتين اللاتينية

والمسيحية في صراع دموي ضد بعضهما البعض ، وإني أناشدك أن تصغي إلى هذا النداء بكل إجلال واحترام قبل أن تصدر إشارتك المخيفة وعلى كل حال أن هذه الإشارة المخيفة لن تصدر عنا أبداً ... » .

وكان جواب موسوليني على هذا النداء قاسياً جداً ، ولكنه لم يخل من الصراحة ، وهذا نص الجواب :

من السنيور موسوليني إلى رئيس الوزراء :

« أجيب على الرسالة التي بعثت بها إلي ، أنك بلا شك مطلع على الأسباب الخطيرة التي حدثت ببلدنا إلى الوقوف في معسكرين متعاكسين ولا أرى سبباً للرجوع إلى الماضي ، ولكنني أذكرك بالدور الذي قامت به حكومتك عام ١٩٣٥ في فرض العقوبات على إيطاليا التي أرادت أن تحتفظ لنفسها بقطعة صغيرة من أرض إفريقيا دون أن تلحق الأضرار بممتلكاتكم أو مصالحكم أو ممتلكات أو مصالح غيركم ، كما أريد أن ألفت نظرك إلى الحالة الراهنة من العبودية الحقيقية التي تجدد إيطاليا نفسها فيها وفي بحرها الخاص بها ، وإذا كانت حكومتك تريد المحافظة على كلمتها وتوقيعها ، لذلك أعلنت الحرب على ألمانيا ، فيمكنك إذن فهم حقيقة هذا الشعور بالنسبة لإيطاليا أيضاً التي هي الأخرى تريد المحافظة على كلمتها ومعاهدتها مع ألمانيا ، مهما كانت الظروف والاعتبارات » .

وبعد وصول هذا الرد من موسوليني لم نعد نشك في أنه لا يريد إلا الحرب ، فهو سيستظر الفرصة المناسبة ، وقد وجد في هزيمة فرنسا الفرصة الذهبية لإعلان الحرب على بريطانيا وفرنسا معاً ، وقد ذكر تشيانو أن موسوليني سيعلم الحرب خلال شهر واحد وفي أقرب وقت يراه مناسباً بعد الخامس من حزيران ، إلا أن الموعد تأجل إلى العاشر منه بناء لطلب خاص من هتلر نفسه .

وقد حاولت الولايات المتحدة التدخل لمنع إعلان الحرب من جهة إيطاليا ، وبذلت جهوداً هائلة في هذا السبيل ، إلا أن الدكتاتور الإيطالي رفض كل عرض تقدمت به الولايات المتحدة ، وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين من بعد ظهر اليوم العاشر

من حزيران ، أبلغ وزير الخارجية الإيطالية سفير بريطانيا أن إيطاليا ستعتبر نفسها في حالة حرب مع المملكة المتحدة منذ منتصف تلك الليلة ، كما وجهت مثل هذا الإشعار إلى حكومة فرنسا أيضًا ، وعندما نقل تشيانو هذا الخبر إلى السفير الفرنسي قال هذا وهو يتجه إلى الباب : « وأنتم أيضًا ستجدون أن الألمان هم سادة قساة » ، وأعلن السنيور موسوليني من شرفة قصره إلى الحشود المتجمهرة أن إيطاليا قد أعلنت الحرب على بريطانيا وفرنسا .

وبدأ الإيطاليون معركتهم بأن راحوا يهاجمون القوات الفرنسية في جبال الألب ، وأعلنت بريطانيا الحرب على إيطاليا في الحال ، وصدرت الأوامر بتوقيف خمس بواخر إيطالية كانت في جبل طارق كما أخطر الأسطول بوجوب توقيف كل باخرة إيطالية يجدها ، وقامت أسراب طائراتنا بالإغارة على تورين وميلانو .

أما فرنسا فلم تتمكن من حشد أكثر من ثلاث فرق بالإضافة إلى عدد مماثل من الحاميات الجبلية ، وذلك لصد أي محاولة للغزو من قبل الإيطاليين عبر الألب وساحل ريفيرا ، وكانت الجيوش الإيطالية تقدر بأثنين وثلاثين فرقة تحت قيادة الأمير أومبرتو ، وفي نفس الوقت شرع الألمان بتطويق الفرنسيين عبر نهر الرون ، وصمدت الفرق الفرنسية المقاتلة أمام الإيطاليين ، حتى بعد أن سقطت باريس وليون في أيدي الغزاة الألمان ، وعندما اجتمع موسوليني وهتلر بعد ذلك لم يجد الدوتشي ما يفخر به أمام صديقه ، إذ لم يتمكن الإيطاليون من تحقيق أي نصر في فرنسا رغم محاولاتهم المتكررة .

وكان مقررًا أن يلقي الرئيس الأميركي خطابًا يوم العاشر من حزيران ، واستمعت إلى خطابه العظيم حوالي منتصف الليل وأنا لا أزال في غرفة العمليات الحربية في الأميرالية ، وعندما توجه الرئيس روزفلت بهذه العبارة الجارحة لإيطاليا : « في هذا اليوم العاشر من حزيران عام ١٩٤٠ ، ارتفعت اليد المسكة بالخنجر وطعنت ظهر جارتها » ، شعرنا جميعًا بالرضا والارتياح ، فقد كان خطابه رائعًا يحمل في طياته بريق الأمل نحونا . وبعثت على الفور برسالة أشكر له فيها عواطفه .

وبعد سقوط فرنسا بدأ التكالب على المغنم ، ولم يكن موسوليني الوحش الوحيد الجائع ، فقد لحقه الدب الذي جاء يركض مع ابن آوي .

لقد كان سير العلاقات الإنكليزية- الروسية يسير إلى حد قطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا، خاصة بعد أن غزا الروس فنلندا، وكانت ألمانيا وروسيا تعملان معاً إلى الحد الذي تسمح به خلافاتها العميقة القديمة، وراح ستالين وهتلر يعملان بنفس الأسلوب من الدكتاتورية المتشابهة إلى حد كبير، وكان مولوتوف يشي بشدة على إجراءات هتلر وسياسة ألمانيا العسكرية، وعندما قام الألمان بهجومهم على النرويج صرح مولوتوف أن الحكومة السوفيتية تقدر كل التقدير لجميع الإجراءات التي أرغمت ألمانيا على هجومها هذا، وقال: إن الإنكليز قد تجاهلوا تماماً حقوق الدول المحايدة، ثم أضاف متمنياً النجاح والتوفيق لألمانيا في إجراءاتها الدفاعية، وفي يوم العاشر من حزيران أبلغ هتلر زميله ستالين عن ابتداء الهجوم الألماني الكاسح على فرنسا وعلى البلاد المنخفضة المحايدة، وكتب شولنبرغ يقول: «لوقد استحسّن مولوتوف هذا الإجراء، عندما قمت بإبلاغه النبأ، وقال أنه من الواجب على ألمانيا حماية نفسها ضد أي هجوم إنكليزي- فرنسي مشترك تقوم به هاتان الدولتان، وأضاف أنه لا يشك مطلقاً في انتصارنا».

وفي الرابع عشر من حزيران، أي يوم أن سقطت باريس، أرسلت موسكو إنذارها الأخير إلى ليتوانيا تتهمةا والدول البلطيقية الأخرى بالتآمر على روسيا، وتطالبها بإجراء تغييرات شاملة في الحكومة، وبيع بعض التنازلات العسكرية، وفي اليوم التالي قام الجيش الأحمر بغزو تلك البلاد التي لم تتمكن من المقاومة، ثم تعرضت لانتفا وأستونيا لنفس الطريقة وفرضت عليها حكومات جديدة موالية لروسيا، كما فرضت عليها حاميات سوفيتية في أراضيها، ولم تلبث جميع تلك الدول أن انضمت إلى الاتحاد السوفيتي في الثالث في شهر آب.

ووجه الروس إنذاراً إلى رومانيا طلبوا فيه منها التخلي عن بساريا والجزء الشمالي من بوكوفينا لمصلحة الاتحاد السوفيتي، وطلبوا أن يصلهم الرد في اليوم التالي، وقد انزعجت ألمانيا أشد الانزعاج لهذا التصرف من قبل روسيا، لما يترتب على هذا العمل من إضرار بمصالح ألمانيا في رومانيا، إلا أنها اضطرت للموافقة طبقاً لارتباطها بمعاهدة رينتروب- مولوتوف عام ١٩٣٩ الذي اعترفت فيه ألمانيا بحق روسيا بتطبيق سياستها في جنوب شرق

أوروبا، وبناء على ذلك أوعزت ألمانيا إلى رومانيا بالموافقة فوراً على المطالب الروسية، وهكذا انسحبت القوات الرومانية من المقاطعتين المذكورتين وانتقلت إليها القوات الروسية، وبذلك أصبحت القوات السوفيتية متمركزة على طول سواحل البلطيق وعلى مصب نهر الدانوب .



الفصل الخامس

مأساة فرنسا



عندما أذعنا عدد الذين تم إنقاذهم من دنكرك ، ساد البلاد شعور من الراحة والاطمئنان ، لقد ساد شعور من الارتياح بعد فترة طويلة من القلق الذي سرعان ما تحول إلى نوع من الإحساس بالنصر ، فإن إنقاذ ربع مليون جندي شاب من خيرة جنودنا يعتبر نصرًا عظيمًا بعد سنوات طويلة من الهزيمة ، وقد عاد هؤلاء إلى الوطن وهم لا يحملون شيئًا سوى بنادقهم والحراب ويضع مئات من المدافع الرشاشة ، وقد كان الجميع يتمتعون بمعنويات عالية ، وكانوا على ثقة تامة من أنهم سيتغلبون على عدوهم إذا ما أتاحت لهم فرصة ثانية للاشتباك معه .

لكن معركة دنكرك كانت قد خسرتنا كل ما نملكه من معدات ، لا سيما تلك التي أنتجتها معاملنا مؤخرًا ، وأرسلت بها إلى ميدان المعركة في فرنسا ، وستمضي عدة أشهر قبل أن تتمكن من إنتاج وتعويض تلك الخسارة الفادحة ،

لكن العواطف الجياشة في الولايات المتحدة ، وخاصة تلك التي كانت تتأجج في صدور القادة البارزين هناك ، حتمت عليهم التفكير بالموضوع جديًا ، وسرعان ما أصدر الرئيس الأميركي أوامره إلى وزارتي البحرية والبحرية ، كما طلب الجنرال مارشال من نائبه إعداد قوائم بموجودات الجيش الأميركي من سلاح احتياطي ، وفي خلال ثمان وأربعين ساعة كانت القوائم الكاملة جاهزة ، وفي الحال وافق الجنرال مارشال عليها ، وطلب إرسالها إلى بريطانيا وفرنسا ، وتضمنت القائمة الأولى نصف مليون بندقية من مجموع مليوني بندقية يعود تاريخ صنعها إلى عامي ١٩١٧ و ١٩١٨ و بقيت مختزنة حوالي عشرين عامًا ، وقد أرسل مع كل بندقية ٢٥٠ طلقة ، كما أرسل معها أيضًا تسعة مدمر من عيار (٧٥) ومليون قذيفة وثمانين ألف رشاش وأنواعًا أخرى من الأسلحة ، وشرعت جميع مخازن الجيش الأميركي بتجميع الأسلحة وتجهيزها وشحنها ، وقد وصل إلى الميناء في الحادي عشر من حزيران اثنتا عشرة باخرة بريطانية لتبدأ بنقل شحنات الأسلحة إلى بريطانيا وفرنسا .

لقد كان هذا العمل الذي قامت به أميركا عملاً رائعاً من أعمال الإيمان والقيادة ، فقد حرمت نفسها من تلك الأعداد الهائلة من الأسلحة لترسلها إلى بلاد يعتبرها الكثيرون من أبناء البلاد أنها قد منيت بالهزيمة .

كانت لا تزال لدينا في فرنسا فرقة جبلية خاصة بقيت وراء السوم وكانت لا تزال في حالة ممتازة ، كما كانت هناك فرقنا المدرعة الأولى والوحيدة وكنية الدبابات اللتان أرسلتا إلى كاليه للمشاركة في عملية الإنقاذ ، ولم يحل شهر حزيران حتى كانت الفرقة هذه قد خسرت أكثر من ثلثي رجالها ، فصدرت الأوامر إليها بوجوب انسحابها إلى ما وراء نهر السين لإعادة تنظيمها ، وفي نفس الوقت جمعنا تسعة أنواع من فرق المشاة التي لم تكن تملك سوى البنادق ، أي أنها كانت شبه عزلاء .

وفي هذا الوقت بدأت المرحلة الأخيرة من معركة فرنسا ، وبدأ هجوم ألماني جديد اتسم بالعنف والقوة خاصة المدرعات التي وفروها لهذه المعركة الفاصلة والتي تدفقت بمجموعها الآن على الجبهة الفرنسية التي كانت ترنح من شدة الضعف ، وحاول الجيش الفرنسي المقاومة للحفاظ على حدود نهر السوم ، لكن فرقتين ألمانيتين تمكنا من اختراق صفوفه واندفعت نحو روان فعزلت جناح الجيش الفرنسي الأيسر والذي يضم فرقنا الجبلية ، عن بقية أجزاء الجيش ، وصدرت الأوامر إلى الجنرال فورشون بوجوب الانسحاب باتجاه روان ، لكن هذه الأوامر لم تنفذ بسبب بدء انحلال القيادة الفرنسية ، فقدمنا عدة احتجاجات وبيانات إلى القيادة الفرنسية بهذا الشأن لكن دون جدوى

وتمكنت فرقنا من التراجع بعد قتال مرير ضار باتجاه سان فاليري وهي تأمل بالجلء عن طريق البحر ، لكن الضباب الكثيف حال دون جلاءها ، ووصل الألمان إلى الشواطئ الصخرية وسدت سبل النجاة أمام فرقنا الباسلة بعد أن أصبح الشاطئ تحت سيطرة رشاشاتهم ، واستسلم اللواء الفرنسي وارتفعت الرايات البيضاء فوق البلدة ، فاضطرت فرقنا الجبلية الباسلة إلى الاستسلام ووقع ثمانية آلاف بريطاني وأربعة آلاف فرنسي في الأسر وكان قائد الفرقة الألمانية المدرعة التي أسرتهم ، هو الجنرال رومل بالذات .



تلقيت في الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر الحادي عشر من حزيران رسالة من الميورو رينو يطلب فيها مقابلتي في «بريار» على مقربة من أورلبان بعد أن انتقلت العاصمة من باريس ، فاستقلت طائرتي بعد الظهر وسافرت يصحبني المستر إيدن وزير الخارجية في ذلك

الوقت والجنرال ديل رئيس الأركان والجنرال إيساي ، وكانت رحلتي هذه هي الرحلة الرابعة إلى فرنسا .

وبدأنا الاجتماع في تمام الساعة السابعة ، فطلبت من الحكومة الفرنسية الاستمرار في الدفاع عن باريس وقلت لهم مؤكداً ضرورة بدء حرب الشوارع والقتال من بيت إلى بيت لاستنزاف قوة الجيش الغازي ، وقد ذكرت المارشال بيتان بتلك الليالي التي قضيناها سوية في قطاره في مدينة «بوفيه» بعد الكارثة التي حلت بالجيش البريطاني في عام ١٩١٨ ، وذكرته كيف تمكن من إنقاذ الوضع في عملية مشابهة ، وقد ذكرت المارشال بأقوال كليمنصو حين صرح بقوله : «سأقاتل أمام باريس ، وفي داخلها ، ووراءها» وقد أجابني المارشال بيتان بكل اعتزاز وهدوء أنه كان تحت تصرفه في تلك الأيام قوات تبلغ بعددها ستين فرقة ، أما الآن فليس لديه أي منها ، كما ذكرني أن الفرق البريطانية كانت تبلغ بعددها الستين فرقة في تلك الأيام أيضاً ، كما أضاف أن تهديد مدينة باريس لن يغير شيئاً من النتيجة المرتقبة...

وعرض علينا الجنرال ويغان الوضع العسكري بالنسبة إلى المعركة «المائعة» الدائرة على مقربة منا ، وأثنى ثناء كبيراً على الجيش الفرنسي ورسالته ، وطالبنا بإرسال نجدات عسكرية عاجلة وفي طليعة مطالبه إرسال جميع ما لدينا من أسراب المقاتلات ، واستطرد قائلاً : «أن هذه اللحظة حاسمة ، لذلك لا يجوز الإبقاء على أي سرب من الطائرات المقاتلة في إنكلترا» وقد أجبت على الفور بقولي : «إن هذه اللحظة ليست باللحظة الحاسمة وستأتي تلك اللحظة حين يقوم هتلر بهجومه الجوي على بريطانيا العظمى ، وإذا تمكنا من الاحتفاظ بسيطرتنا على الجو ومن إبقائنا على البحار مفتوحة ، وهذا ما سنقدر عليه حتماً ، فعندئذ سنعود لاستعادة كل ما فقدناه» ، لقد كان لدينا خمسة وعشرون سرباً من الطائرات ، وقد قررنا الاحتفاظ بها ولن نفرط بسرب واحد منها مهما كلف الأمر ، فنحن قد قررنا الاستمرار في الحرب إلى أجل غير معلوم ، وأما التخلي عن هذه الأسراب فمعناه القضاء على أملنا الوحيد في الحياة...

وبعد قليل وصل الجنرال جورج الذي اطلع على خلاصة حديثنا السابق ، وبعد أن عرض ملخصاً للوضع القائم في الجبهة ، أكد ضرورة ما سبق وطلبت البدء في حرب

الشوارع وحرب العصابات ، فالجيش الألماني ليس بالقوة التي يبدو عليها حين مجابهته بجيوش مماثلة ، فلو حاول كل لواء من الجيش الفرنسي الاصطدام مع لواء مماثل من الجيش الألماني ، واستعمل في اصطدامه كل ما يملكه الجيش الفرنسي من حيوية ونشاط لتمكن من التغلب على عدوه أو عرقلة تقدمه السريع على الأقل ، وكان ردهم المتخاذل أن الأوضاع أصبحت مخيفة على الطرق التي امتلأت بأفواج اللاجئين الذين تطاردتهم نيران رشاشات الطائرات العدو ، وألقوا هذا بيانات عن حالة السكان وعن انهيار الجهاز الحكومي والسيطرة العسكرية ، وقال الجنرال ويغان بأنهم قد يضطرون إلى طلب الهدنة ، وقد أجبتة بقولي : « إذا وجدت فرنسا ، في هذه المحنة ، أنه من الخير لها استسلام جيشها فعليها أن تبادر إلى إعلان ذلك ولا تردد بسيينا ، فنحن قد صممنا على المضي في حربنا وعلى القتال إلى الأبد ، إلى الأبد والأبد » ، وعندما أعدت لهم قولي أن على الجيش الفرنسي أن يستمر في القتال أينما كان وحشما استطاع لإنهاك قوة مائة فرقة ألمانية ، أجاني الجنرال ويغان على الفور : « حتى لو قاتلنا ، فسيبقى لديهم مائة فرقة أخرى تقوم بمهاجمتكم واحتلال بلادكم ، وماذا تستطيعون أن تعملوه بعد ذلك ؟ وأجبتة : « إن مستشاري العسكريين يرون أن طريقة صد أي هجوم ألماني على بريطانيا هي في محاولة إغراق أكبر عدد ممكن منهم في البحر ، أما الباقي فيمكننا تحطيمهم على الشاطئ » .



الفصل السادس

مشاكل الدفاع



مشاكل الدفاع:

في هذا الوقت من صيف عام ١٩٤٠ ، أصبحنا منفردين تمامًا بعد هزيمة فرنسا ، ولم يكن في إمكان دول «الدمينونات» أو الهند أو المستعمرات أن تمدنا بالمساعدات اللازمة التي كنا في أشد الحاجة لها ، وكانت الجيوش الألمانية الضخمة المنتصرة المدربة والتي توفر لديها السلاح الاحتياطي الضخم ، والمستودعات والمصانع التي غنمتها بكل بساطة ، أخذت هذه الجيوش تستعد للمعركة الفاصلة .

أما إيطاليا فوقفت بقواتها الكثيفة الجرارة ، بعد أن أعلنت علينا الحرب ، تبحث في شوق عن طريقة لتدميرنا في البحر المتوسط ومصر .

كذلك وقفت اليابان في الشرق الأقصى تنظر إلينا نظرة غريبة يتعذر علينا تفسيرها وتطالبنا في إلحاح وتهديد بإغلاق طريق بورما في وجه المساعدات إلى الصين ، كما كانت روسيا تقدم إلى هتلر مساعدات هامة من المواد الأولية ...

أما إسبانيا التي احتلت منطقة طنجة الدولية ، فقد تغدر بنا بين آونة وأخرى ونطالبنا بجبل طارق وربما استجذبت بألمانيا لمساعدتها في احتلاله أو في إقامة بطاريات المدفعية الهائلة لتطويق أسطولنا عبر المضيق ، وفي هذا الوقت كانت الحكومة الفرنسية التي أصبح بيتان رئيسًا لها ، قد انتقلت إلى فيشي ، وأصبح من المتظر بين لحظة وأخرى أن تعلن الحرب علينا بعد أن أصبحت ميالة إلى فكرة أوروبا النازية ، كذلك أصبح الأسطول الفرنسي في قبضة الألمان في طولون ، وهكذا وجدنا أننا لسنا في حاجة إلى المزيد من الأعداء .

ومع أن معنوياتنا لم تضعف ، إلا أن السؤال الذي ظل يراودنا هو : كيف يمكن لنا أن نجتاز هذه الصعوبات القائمة ؟ لقد كان من المعروف أن جيشنا في الوطن لا يحمل سلاحًا أكثر من البنادق ، وستمضي فترة من الزمن قبل أن تتمكن مصانعنا من التعويض على ما خسره من عتاد في ذلك ... أليس من العجيب بعد كل هذا ألا يكون العالم كله على يقين من أن ساعتنا الأخيرة قد دنت ؟؟

وانتشر الرعب في الولايات المتحدة وسائر الدول الأخرى الحرة ، وأخذ الأميركيون

يتساءلون في اهتمام: هل من واجبهم أن يجازفوا بمواردهم المحدودة الضئيلة إرضاء للمشاعر الطيبة وحدها وإن كانت المخاطرة مؤرستاً منها؟

أليس من الأجدي أن يذلوا أي جهد وأن يوفرُوا كل سلاح لملاقاة ضعف استعدادهم، وكان التغلب على هذه الأسانيد، يتطلب منطقاً مستقيماً وعلى جانب من الثقة، ولا ريب في أن الشعب البريطاني مدين لرئيس الولايات المتحدة وكبار القادة والمستشارين؛ لأنهم على الرغم من اقتراب موعد انتخابات المرة الثالثة للرئاسة لم يتخلوا عن ثقتهم القوية في تصميم بريطانيا وقدرتها على النضال، وليس من شك في أن تصميم بريطانيا القوي الذي لم ينله أي ضعف أو وهن كان عاملاً من عوامل رجحان كفتنا في القتال.

إن هذا الشعب الذي ظل في سنوات ما قبل الحرب يسير في طريق المسالمة وعدم التفهم، ويخوض غمار المهازل الحزبية، ويفرق إلى أبعد الحدود في لجة السياسات الأوروبية بلا خوف... ها هو الآن يلاقي مصير تقصيره في التأهب والاستعداد، وثمرة اتكاله على التوايا الحسنة والخوافز الكريمة، ولكن العالم يراه في الوقت نفسه مصمماً على أن تصبح هذه البلاد قطعة من الخراب قبل أن تبدو جزيرته خائنة ذليلة...

وهذه بلا جدال إحدى صفحات التاريخ الرائعة، ولكنها ليست الصفحة الوحيدة به، فعندما استولى الإسبرطيون على أثينا، أصرت قرطاجة على الصمود والاستبسال حتى الموت أمام روما، والتاريخ حافل بصفحات كثيرة عن شعوب استماتت في النضال، ودول شجاعة تفيض بالكبرياء... أثرت أن تغنى وتموت والايبقى لها أثر.

ولم يكن هناك في ذلك الحين سوى أقلية معدودة من البريطانيين والأجانب تقف على الأهمية الإستراتيجية لموقعنا الجغرافي المنعزل، ولم يكن كثيرون قد عرفوا في مدى سنوات ما قبل الحرب إننا كنا نحافظ على مقومات دفاعنا البحري والجوي، وقد مضى على الجزر البريطانية ما يقرب من ألف عام لم تشهد أرضها نيران غزو من الجو، وظل كل بريطاني في قمة الكفاح محتفظاً بهدوء أعصابه، راضياً كل الرضا بالتضحية بحياته في سبيل بلاده، وسرعان ما أخذ الأعداء والأصدقاء في سائر بلاد العالم يدركون أن هذه هي طبيعتنا الأصلية... وماذا يكمن خلفها؟ أنه الأمر الذي يمكن أن يظهر في الشدائد..

وكانت هناك ناحية أخرى ، فقد تعرضنا خلال شهر حزيران لخطر كبير ... فقد رأينا آخر ما لدينا من قوات احتياطية تسحب ليقضي عليها في محاولة يائسة في فرنسا ، وأن قواتنا الجوية تتضاءل شيئاً فشيئاً في هذه الغارات التي نمضي بها إلى القارة أو في نقلها إلى هناك ، ولو كان هتلر موهوباً ، أو متمتعاً بحكمة خارقة ، لأبطأ في هجومه على الجبهة الفرنسية مدة ثلاثة أسابيع أو أربعة بعد معركة دنكرك على خط نهر السين ، ليتم استعداداته للهجوم على بريطانيا ... ولو حدث هذا لأصبحنا في وضع غيف لا خيار لنا فيه ، فلما أن نتخلى عن فرنسا وفي هذا تعذيب لنا ، وألم لفرنسا ، ولما أن ننشر قواتنا ونشرها مع ما في هذه القوات من ضرورة قصوى لمستقبلنا وحياتنا ، إذ كلما حفزن الفرنسيين على المضي في القتال ، نحتم علينا نحن أن نزيد في العون لهم ، وهذا يؤدي إلى اشتداد الصعوبات في طريق إعدادنا للدفاع عن بريطانيا نفسها ، ولاسيما بالنسبة للأسراب الخمسة والعشرين من طائراتنا المقاتلة التي يتوقف مصير كل شيء عليها ، وبالطبع كان مستحيلاً أن نتخلى عن هذه الأسراب ، ولكن رفضنا سيؤدي بالتأكيد إلى إغضاب حليفنا الباسلة مما يعكر صفو علاقاتنا ، وعلى هذا فقد رأينا عددًا من كبار قادتنا ، ينظرون إلى مشكلاتنا الهينة نوعاً ما ، بعد أن أصبحنا وحلنا ، نشعر بشيء من الراحة ، وكأن عبئاً ثقيلاً قد نزل عن كواهلهم ، وأصبح وضعنا كوضع مدرب أحد النوادي العسكرية الذي أخذ يخاطب لاعباً قد تهاوت معنوياته بقوله : « أيّ ما كان الأمر فقد بلغنا المعركة الفاصلة ، وسيكون نادينا ميدانها » .



لم تكن القيادة الألمانية العليا ، حتى هذه الفترة قد استهانت بقيمة ما عليه مركزنا من قوة ، وقد ذكر تشيانو أنه قابل هتلر في برلين في ١٧ تموز عام ١٩٤٠ وتحدث مع الجنرال فون كايثل طويلاً ، كما تحدث هتلر نفسه عن غزو لبريطانيا ، فأكد له أن الرأي لم يستقر نهائياً على أي شيء وقد ذكر أن عملية النزول إلى البر في إنكلترا غير مستحيلة إلا أنها صعبة جداً ، ويجب أن تقوم بها ألمانيا وهي في غاية الحذر ، إذ إن أخبارنا عن الترتيبات العسكرية في الجزيرة ، وطرق الدفاع عن شواطئها قليلة وغامضة ومثبته في صحتها ، وأضاف كايثل أن ما يبدو سهلاً وجوهرياً هو شن هجوم جوي مركز على المطارات والمصانع ومراكز

المواصلات الرئيسية في بريطانيا العظمى ، ومن المحتمل أن يعرف كل إنسان أن السلاح الجوي البريطاني في منتهى القوة ، وذكر كايثل أن هذا السلاح الجوي يتألف من حوالي ألف وخمسمائة طائرة مستعدة للدفاع والمهجوم المضاد ، كما اعترف أن الغارات التي يقوم بها السلاح الجوي البريطاني قد تزايدت كثيرًا ، وأن من ناحية إصابة الأهداف من الجو فهم في غاية المهارة ، وكان عدد الطائرات المغيرة في كل مرة يصل إلى الثمانين لكن بريطانيا تعاني نقصًا كبيرًا في الطيارين ، وليس في وسعها أن تستعوض عن هؤلاء الذين يهاجمون المدن الألمانية الآن ، بالطيارين الجدد الذين يتقصصهم التدريب إلى حد كبير .

وأصر كايثل على ضرورة توجيه ضربة إلى جبل طارق لقطع شرايين المواصلات البريطانية وشل حركتها ، ولم يشر كايثل أو هتلر إلى مدة الحرب أو أجلها ، وكان هملر وحده الذي ذكر عرضًا أن الحرب يجب أن تنتهي قبل ابتداء شهر تشرين الأول .

هذا هو التقرير الذي وضعه تسيانو في مذكراته ، وقد عرض على هتلر استجابة لطلب الدوتشي العاجل إمداده بحوالي عشر فرق من قواته ووحدة جوية تتكون من ثلاثين سرًا للمساهمة في الغزو وقد اعتذر هتلر عن قبول القوات البرية في لياقة ، ووصلت بعض الأسراب الجوية الإيطالية ، لكنها لم تصب نجاحًا في مهمتها كما سرى .

وقد ألقى هتلر في ١٩ تموز خطاب القائد المنتصر في الرايشتساغ ، وبعد أن تنبأ بأني سألجأ إلى كندا ، قدم ما يمكن أن يسمى عرضًا للصالح ، وقد أرقق عرضه هذا بمذكرات دبلوماسية أرسلت عن طريق السويد والولايات المتحدة والفايتكان . ويدأ من الطيعي بعد أن خضعت أوروبا كلها لإرادته ، سيكون في غاية السرور إذا تمكن من الحصول على موافقة بريطانيا على كل ما فعله ، ولم يكن العرض في الحقيقة يتناول السلام ، وإنما يتناول الاستعداد لتقبل إذعان بريطانيا للتخلي عن كل ما خاضت الحرب من أجله .

وفكرت في أول الأمر في إثارة الموضوع بصفة رسمية في البرلمان ، ولكن زملائي الوزراء رأوا أن مثل هذا العمل يؤدي إلى التشويش حول موضوع كنا جميعًا متفقين حوله ، وتقرر عوضًا عن ذلك أن يكلف وزير خارجيته بالرد على عرض هتلر في إذاعة موجهة في يوم ٢٢ تموز يرفض فيها دعوة هتلر ... وأذيع الحديث الذي «قذف جانبًا» بدعوة هتلر

«للاستسلام لإرادته» ثم قارن بين أوروبا المحتلة، وأوروبا التي نقاتل في سبيل حمايتها، وأعلن أننا لن نتوقف عن القتال حتى نضمن وجود الحرية.. وفي خلال ذلك كانت الصحف البريطانية والإذاعة قد رفضت أي حديث عن الصلح، دون تدخل من حكومة جلالة، وأنا بدافع من نفسها بعد الاستماع إلى خطاب هتلر من الإذاعة.

ويذكر تشيانو في مذكراته أنه «عندما أذيع أول رد بريطاني، الذي كان متسماً بالبرودة، على الخطاب في الساعات الأخيرة من ليلة ١٩ تموز... ساد بين الألمان شعور بخيبة الأمل، بيد أن هتلر كان يتطلع إلى التفاهم مع بريطانيا العظمى، فقد كان يدرك أن الحرب مع البريطانيين ستكون قاسية تفيض بالدماء. وهو يدرك تماماً أن الناس في كل مكان يكرهون سفك الدماء. أما موسوليني فيخشى من ناحية أخرى أن يجد الإنكليز في خطاب هتلر الماكر للغاية مبرراً للبدء في المفاوضات، وهذا مما يحز في نفس موسوليني لأنه يرغب في الحرب الآن أكثر من أي وقت مضى، ولأنه كان الأمر فلم يكن موسوليني في حاجة إلى الغضب أو الثورة، فسيتاح له أن يخوض كل أهوال الحرب التي يطمحها.

وقد قدم رؤساء أركان الحرب بواسطة الجنرال إيساي اقتراحاً في أواخر شهر حزيران ليزور المناطق المهددة في السواحل الجنوبية والشرقية، وتلبية لهذا الاقتراح خصصت يوماً أو يومين من كل أسبوع لقيام بهذه الزيارة المحبوبة، وكنت أنام عندما تفرض الظروف في قطاري الخاص الذي تهيأت لي فيه كل أسباب الراحة ليتاح لي أداء أعمالي العادية بكل انتظام.. مع العلم أنني كنت أتصل دائماً (بهوايتهول). وقد قمت بزيارة «التاين» و«الهامير» وغيرهما من الأماكن المهددة بإنزال محتمل، وشاهدت مناورة للفرقة الكندية في كنت، وقمت بالكشف عن الخطوط الدفاعية الداخلية في هارويتسن ودوفر، وكانت إحدى زيارتي الأولى للفرقة الثالثة التي يقودها الجنرال مونتغمري وهو ضابط لم أكن قد التقيت به، وقد صحبتني زوجتي في هذه الزيارة للفرقة المذكورة المربطة على مقربة من برايتون. وكانت هذه الفرقة قد أعطيت أهمية خاصة من ناحية الإعداد، وكانت على وشك الإبحار إلى فرنسا عندما انهارت المقاومة الفرنسية.

وقد أقام الجنرال مونتغمري مركز قيادته في ستيتنج، وأراني مناورة صغيرة كانت

الحركة الرئيسية فيها مناوره قامت أساسًا على تحركات حاملات مدافع برن الرشاشة التي لم يكن في استطاعته أن يستخدم منها حينذاك سوى سبع أو ثمانى حاملات . ومضت بنا السيارة بعد ذلك على الساحل عبر «شورهام» و «هوف» إلى أن وصلنا إلى جبهة برايتون المعروفة التي لي فيها الكثير من الذكريات القديمة . وقد تناولنا عشاءنا في فندق «اليون» الملكي الذي يقع على الناحية المواجهة لرصيف الميناء الداخلي . وكاد الفندق أن يكون مقفراً من الناس بسبب عمليات الانسحاب الأخيرة، ومع ذلك فكان هناك من يستنشق الهواء الطلق ويتنزه على الشاطئ، وفي الميادين وقد سرتني أن أرى طائفة من «حرس قاذبي القنابل» يمهدون مركزاً المدفعهم الرشاش في أحد أكشاك الرصيف . فذكرني ذلك بما كنا نفعله في طفولتنا ونحن نعبث بالمخلفات القديمة . وكان الجورائعا جميلاً، وتحدثت إلى القائد أحاديث مثمرة ... والحق أني كنت شديد السرور بهذه الزيارة .

وفي منتصف شهر تموز اقترح على وزير الحربية إحلال الجنرال بروك محل الجنرال أيرونسايد في قيادة الجيوش ، وفي ١٩ تموز حينما كنت أطوف لاستطلاع القطاعات المعرضة للهجوم زرت القيادة الجنوبية ورأيت التجربة الواقعية التي ساهمت فيها اثنتا عشرة دبابة تقريباً ، وبقيت في السيارة طيلة بعد الظهر مع الجنرال بروك الذي كان يتولى قيادة تلك الجبهة، ولاشك أن سجل ماضيه كان رائعاً ، فقد قاد المعركة الفاصلة عند «ايرس» أثناء عملية الانسحاب إلى دنكرك، ثم تمكن بما أوتي من حنق وصلابة ، وفي وسط عوامل في منتهى الصعوبة والقوة ، عندما كان يقود القوات الجديدة التي أرسلناها إلى فرنسا خلال الأسابيع الأولى من شهر حزيران ، تمكن من إنقاذ حملته ، وكانت تربطني به صلة أيضاً عن طريق أخوية البطلين اللذين كانا لي صديقين في بداية حياتي العسكرية .

على أن هذه العلاقات والذكريات لم يكن لها أي تأثير على وجهة نظري في موضوع حيوي كهذا الذي يتصل باختيار القائد العام ولكنها وثقت الصلات بيني وبين الآن بروك في غضون الحرب . وقطعنا ما يقارب الأربع ساعات معاً في السيارة في ذلك اليوم من تموز عام ١٩٤٠ ، وكنا على اتفاق تام بشأن كافة وسائل الدفاع في داخل الوطن . وبعد المشاورات الضرورية مع الآخرين وافقت على اقتراح وزير الحربية بتولي بروك القيادة العامة

خلفاً للجنرال أيرونسايد الذي واجه إحالته إلى التقاعد بما اشتهر عنه من اعتزاز في جميع الظروف التي تمت بها أعماله العسكرية.

و ظل بروك في القيادة سنة ونصف تعرضنا فيها لخطر الغزو ، فنظم القوات تنظيمًا حسنًا ، وعندما صار فيما بعد رئيسًا لأركان حرب القوات الإمبراطورية استمر التفاهم بيننا رائعًا حتى انتهينا إلى النصر ، وسأورد بعد قليل المكاسب التي حققتها من استشارته في إجراء تغييرات حاسمة في القيادات في مصر بالشرق الأوسط في شهر آب عام ١٩٤٢ ، وما كان لها من خيبة أمل في موضوع قيادة عملية الغزو عبر القنال (المانش) في عملية السيد الأكبر (أوفر لورد) عام ١٩٤٤ . وقد أدى خدمات جليلة في المدة الطويلة التي عمل فيها رئيسًا للجنة رؤساء أركان الحرب ، في معظم سني الحرب ورئيسًا لأركان حرب القوات الإمبراطورية ، لا للإمبراطورية البريطانية فحسب بل للحلفاء جميعًا ، وسأحكي في هذه القصة بعض الاختلافات في وجهات النظر التي حدثت فيما بيننا أحيانًا ، وأقص كذلك كثيرًا من المسائل التي اتفقنا فيها وهي تؤكد مدى صداقتنا كل التأكيدات .



وفي هذا الشهر وصلت إلينا كميات وافرة من السلاح الأميركي عبر الأطلنطي من غير أن تمس بسوء . وبينما كانت البواخر تقترب من سواحلنا بما تحملها من عتاد لا يقدر بثمن ، كانت هناك قطارات خاصة أعدت لتحملها من الموانئ ، وقد مكث الحرس الوطني في كل مقاطعة وكل بلدة وكل قرية متلهفًا على تسلم هذه الأسلحة ، وأكب الرجال والنساء على العمل بكل قواهم لتجهيز هذه الأسلحة وجعلها صالحة للاستعمال . وهكذا أصبحنا في نهاية شهر تموز شعبًا مسلحًا على أهبة الاستعداد لمواجهة أي غزو يقوم به المظليون . نعم لقد أصبحت بريطانيا أشبه ما تكون «بخلية نحل» وإذا قدر لمقاومتنا أن تنهار ، وهو احتمال بعيد ، فإن حشدا من الرجال والنساء ، سيظل شاكي السلاح وقد استطعنا بوصول الدفعة الأولى من البنادق الأميركية إلى حرسنا الوطني بصرف النظر عن ضائكة كمية الطلقات التي لم تزد عن خمسين طلقة لكل قطعة ، استطعنا أن نزود جيشنا العامل بثلاثمائة ألف بندقية بريطانية .

وبدا كثير من الخبراء يجهزون بكل سرعة مدافع الخمسة والسبعين ملميمتراً التي وصلت إلينا، ومع كل مدفع منها ألف قذيفة، ولم يكن بحوزتنا معدات لإيصال المدافع بعرباتها كما أنه لم توجد لدينا الوسائل العاجلة لإنتاج عدد أكبر من القذائف على الرغم من أن المدافع المختلفة الأحجام تعقد العمليات الحربية، إلا أنني صممت منذ البداية على استخدامها. وأصبحت هذه المدافع منذ وصولها إلينا وطيلة عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ جزءاً مهماً في قوتنا العسكرية المدافعة عن الوطن. كما قمنا بعمل ترتيبات خاصة تعد مبتكرة درنا عليها عدداً من الرجال لإدارة هذه المدافع وربطها في سيارات الشحن لنقلها من مكان إلى آخر، وعندما تقاتل دفاعاً عن كيانك فإن وجود مدفع خير من عدمه. وقد مكث المدفع الفرنسي من طراز ٧٥ ملميمتراً سلاحاً فعالاً بالرغم من قدمه بالنسبة للمدافع البريطانية الحديثة من طراز ٢٥ رطلاً والمدافع الألمانية (هاوتزر).

وعندما مضت أشهر تموز وآب دون أن تنزل بنا الكارثة الساحقة، هذان بعض الشيء وازدادت ثقتنا في مقدرتنا على خوض غمار حرب طويلة قاسية، وكنا نشعر بقوتنا تزيد يوماً عن يوم. فكل فرد في المجموع يعمل بكل طاقته ليل نهار، ويمضي إلى نومه بعد ذلك شاعراً بنهار أعماله، واثقاً بأن الوقت أصبح في صالحنا، وإننا سنتصر في الحرب دون شك.

وازدحم الشواطئ الآن بمختلف أنواع الوسائل الدفاعية وتم تنظيم البلاد كلها في مجموعات ووحدات دفاعية وغذا السلاح يتدفق من المصانع، ولم يكتمل شهر آب حتى أصبح في حوزتنا مائتان وخمسون دبابة جديدة. ويدأنا نجني ثمار المساعدة الأميركية وأخذ رجال الجيش البريطاني العامل وزملائهم من رجال الجيش الإقليمي يقومون بتدريباتهم في ساعات الصباح الباكر حتى المساء، وبهم لفقة إلى لقاء العدو، وازداد عدد جنود الحرس الوطني إلى ما فوق المليون، وعندما كان يقصصهم السلاح كانوا يعملون إلى استخدام أسلحة الصيد والرياضة والمسدسات الخاصة وأحياناً الفؤوس والمجارف. ولم يتكون في بريطانيا طابور خامس، وأن صادفت قوات الأمن بعض الجواسيس، أما القلة الشيوعية الموجودة في بلادنا فقد تلاشت أصواتهم على حين أقدم الشعب كله على بذل كل ما يستطيع من تضحيات غالية.

وعندما زار فون رينتروب روما في أيلول قال لتشيانو: «إن الدفاع الإقليمي عن إنكلترا لا وجود له بلا شك، وأن فرقة ألمانية واحدة يمكنها أن تؤدي إلى انهيار كامل فيها» إن قوله هذا يكشف عن جهله الفاضح بنا، وعلى كل فقد تساءلت في قرارة نفسي: ماذا يكون لو تمكن مائتا ألف ألماني من جنود العاصفة التجمع على شواطئنا؟ لاشك بأن المذبحة ستكون رهيبة مروعة لدى الفريقين. إذ لم يكن هناك مجال للرحمة أو الشفقة، فقد كان الألمان على استعداد لاستخدام الإرهاب، وكنا من ناحيتنا على استعداد للمضي في المقاومة إلى أقصى حد ممكن. وقد قررت تطبيق المثل السائر: «بوسعك دائمًا أن تمضي بشخص آخر معك بعيدًا عن هذه الدنيا» وقد قدرت أن أهوال هذا المنظر ستقضي بالنهاية إلى ترجيح كفة الولايات المتحدة، لكن كل هذه العواطف لم توضع موضع التجربة والاختبار، وفوق مياه المانش ومياه بحر الشمال الزرقاء ربضت عشرات العبارات البحرية المتهلفة على القتال ساهرة الليل بطوله، بينما كان طيارو المقاتلات يحلقون في السماء أو يقفون إلى جانب طائراتهم استعدادًا لتلقي أي إشارة تصدر إليهم.

حقًا لقد كانت تلك الفترات جديرة بالحياة أو الموت. إذا وقفت على حقيقة القوات البحرية فقد وقفت على معرفة لها شأنها وروعها. فاقترحام جيش لمياه المحيطات والبحار، بالرغم من وجود أساطيل قوية وعمارات بحرية هائلة أمامه، عمل حربي معجز، وقد أضاف البخار كثيرًا من القدرات إلى إمكانيات الأسطول في الدفاع عن بريطانيا العظمى. ففي عصر نابليون كانت الرياح تستطيع الدفع بقواربه المسطحة القعر إلى الخلف، لكن ما حصل بعد ذلك قد ضاعف من تفوق الأساطيل القوية ومقدرتها على تحطيم الغزاة وهم في الطريق. وأدى كل تعقيد في الأجهزة الحديثة بالنسبة إلى الجيوش إلى أن أصبحت مهمتها أكثر صعوبة ومشقة، وإلى أن صارت المتاعب التي تواجه قيادتها في تزويدها بالعتاد والذخائر بعد إنزالها أمرًا فوق الطاقة، وفي أزمة الحرب السابقة التي اهتز فيها مصيرنا كانت لنا قوة بحرية متفوقة، ولم يستطع العدو كسب معركة بحرية واحدة هامة ضدنا، لقد عجز عن مجابهة قوة طراداتنا وبالطبع كانت ثمة فرص أكثر من أن تعد تتصل برداءة الطقس وخاصة في حال تكاثف الضباب، على أنه على فرض قيام هذه الفرص المعادية لنا واستطاع

العدو النزول إلى شواطئنا في مكان أو أكثر ، فإن مشكلة تزويد هذه القوات بما يلزمها وتغذيتها بأية تجمعات أخرى ، هذه المشكلة تظل مستعصية الحل . هكذا كان الوضع في الحرب العالمية الأولى . أما الآن فقد دخل عنصر الطيران . فما هو تأثير هذا التغيير الرئيسي على الغزو ؟ من الظاهر أن العدو إذا تمكن من السيطرة على مضائق دوفر ، بقوته الجوية المتفوقة ، فإن خسائرننا في المدمرات ستكون كبيرة للغاية ، وقد تكون أيضًا قاضية علينا ، ولن يوجد إنسان لديه الرغبة في الإتيان ببوارج ضخمة أو طرادات كبيرة إلى مياه تسيطر عليها القاذفات الألمانية ، وبالفعل لم نضع أي بواخر ضخمة إلى الجنوب من «فيرث أوف فورت» أو إلى الشرق من «بلايموث» ، ولكننا جهزنا في هارويش ونور ودوفر وبورتسموث وبورتلاند دوريات دائمة البقطة تتألف من سفن حربية خفيفة ، وقد أخذ عددها يتكاثر باستمرار ، ولم يأت شهر أيلول حتى صار العدد أكثر من ثمانمائة ، ولم يكن في الإمكان بعد ذلك تدميرها إلا بواسطة قوة جوية متفوقة معادية تحاول العمل على عدة مراحل .

وهنا يد السوال : لمن كان المتوق في الجو ؟ لقد كنا نقاتل الألمان في معركة فرنسا وهم متفوقون علينا في العدد بضعفين أو بثلاثة أضعاف ، وبالرغم من ذلك فقد ألحقنا بهم خسائر تعادل النسبة السابقة ، وفي سماء دنكرك وقد فرض علينا الاحتفاظ بدوريات مستمرة لتغطية إنقاذ جيشنا ، كنا نحاربهم بكسب وغنم على الرغم من تفوق عددهم بنسبة أربعة أضعاف أو خمسة ، وتوقع مارشال الجو الأعلى داودنج ، قدرتنا على قتالهم وصد هجماتهم بنجاح ، فوق مياهنا وشواطئنا ومقاطعاتنا المكشوفة ، حتى لو تفوقوا علينا بنسبة سبعة أو ثمانية أضعاف .

وقد كانت قوة السلاح الجوي الألماني في ذلك الحين حسب معلوماتنا الصحيحة تعادل ثلاثة أضعاف ما نملكه ، وبالرغم من أن هذا التفاوت كبير بالنظر إلى القتال مع أعداء شجعان أقوياء كالألمان . فقد توصلت إلى النتيجة التي سبق التوصل إليها ، وهي أن في سماعنا وفوق بلادنا ومياهنا نستطيع الانتصار على السلاح الجوي الألماني ، وإذا صح هذا فإن بحريتنا هي الأخرى ستبقى محظوظة بسيطرتها على البحار والمحيطات وستقوى على إحباط محاولات الأعداء الذين يحاولون شق طريقهم إلينا .

وبقي عامل ثالث في الإمكانيات والاحتمالات ، فلو تمكن الألمان بما عرف عنهم من

مقدرة. وبعد في النظرة - من تجهيز حملة كبيرة بطريقة سرية تحوي قطعاً خاصة للإنزال لا تحتاج إلى موانئ أو أرصفة، وإنما تقوم بعملية الإنزال للدبابات والمدافع والسيارات المدرعة في أي نقطة مناسبة على الشاطئ، فهل يقدرّون بعد ذلك على تزويد هذه القوات بالمؤن؟ ومع أنه لم يكن لدينا أي مبرر يحملنا على الاعتماد بوجود مثل هذه المخترعات لدى العدو، إلا أن قواعد الحساب الصحيحة تقضي باحتمال الخسائر تماماً كالأرباح.

وتطلب منا إيجاد المعدات التي لزمنا في عملية غزو نورماندي، بذل جهد كبير متواصل بالإضافة إلى التجارب والعون المادي الضخم من جانب الولايات المتحدة الأميركية طوال أربع سنوات، وبالحقيقة لم يكن الألمان بحاجة إلى هذا العدد الكبير من المعدات في مثل هذا الوقت، إلا أنهم كانوا يملكون معابر قليلة في العدد.

وهكذا أوجبت علينا مشكلة غزو بريطانيا في صيف عام ١٩٤٠ وفي الخريف من نفس العام، تفوقاً جويّاً ضخماً وإمكانية ضخمة في السيطرة على المياه الإقليمية بالإضافة إلى كمبات هائلة من معدات الإنزال. لكن السيطرة على البحار كانت إلى جانبنا، كما كان لنا التفوق الجوي، وكنا على ثقة. وقد ثبت لنا فيما بعد صحة هذا الاعتماد بأن الألمان لم يقوموا ببناء قطع بحرية ضرورية للإنزال.

هذه هي أسس تفكيري عام ١٩٤٠ وكان هناك الكثير من الحديث حول هذا الموضوع بالذات والكثير من القلق في شهر تموز لدى الدوائر الحكومية وخارجها، وبالرغم من عمليات استطلاعها المستديمة عن سفن النقل الألمانية في البلطيق أو في مرافئ الراين والشلدات، وقد كنا على يقين كذلك من أن أية بواخر أو صنادل من ذوات المحرك الآلي لم تعبر المضائق إلى بحر المانش، فبالرغم من كل هذا فقد كان شغلنا الشاغل هو التجهيز والاستعداد الكامل لمواجهة أي غزو وسحقه. وكنا نعتد اعتماداً كلياً على تفكيرنا هذا في وزارة الخرية وفي القيادة العسكرية.

وكانت خطة الألمان التي كشف عنها، تعتمد على وجوب الغزو عبر القنال بسفن متوسطة الحجم تتراوح حولتها بين أربعة آلاف طن وخمسة آلاف، بالإضافة إلى قطع

صغيرة أخرى، والآن نحن نعلم أنهم لم يكونوا يتطلعون إلى المضي بجيوشهم من مرافئ البلطيق أو بحر الشمال في سفن كبيرة، كما أنهم يفكرون بالغزو في موانئ بسكاي، وهذا لا يعني أنهم كانوا منصفين حين اختاروا الساحل الجنوبي كهدف لغزوهم، وإن كان كل منا على خطأ، فعملية غزو الساحل الشرقي كانت ذات قيمة أكبر لو تمكن العدو من أن يؤمن السبل والوسائل لتلك المحاولة، وطبعاً لم يكن هناك من مجال لغزو الساحل الجنوبي إلا بعد أن تمر البواخر الضرورية جنوباً عبر مضيق دوفر، بعد أن تتجمع في المرافئ الفرنسية القائمة على القتال، وطوال شهر تموز لم نر أثر الشيء من هذه التحركات.

وبالرغم من كل هذا فقد ترتب علينا أن نستعد لكافة الظروف والاحتمالات، وإلا نوزع قواتنا المتحركة في الوقت ذاته، وأن نقوم بجمع قواتنا الاحتياطية وحشدتها، وفي الإمكان حل هذه المشكلة المستعصية والسائغة في نفس الوقت، فالأحداث تتوالى من أسبوع لآخر والساحل البريطاني المعروف بكثرة تعاريجه يبلغ طوله أكثر من ألفي ميل، باستثناء أيرلندا، والسيل الوحيد للدفاع عن محيط متسع كهذا قد يتعرض أي جزء منه أو جزءان منه في وقت واحد لهجوم مفاجئ ناجح يحتم علينا إنشاء مراكز للمراقبة والمقاومة حول الشاطئ، أو الحدود غايتها عرقلة الزحف الأجنبي مع إيجاد أكبر قوة ممكنة من الاحتياطي، في الوقت نفسه تضم جنوداً مدربين وعاملين في وحدات متحركة، يمكنها الوصول إلى أي مكان يقع عليه هجوم مفاجئ في أقصر مدة ممكنة، ثم البدء في هجوم معاكس.

وعندما وجد هتلر نفسه محاطاً في مراحل الحرب الأخيرة بالأعداء، وواجه نفس المشكلة، وقع في أخطاء كبيرة خين عاجلها، فلقد أقام شبكة من المواصلات تشبه نسيج العنكبوت، لكنه نسى العنكبوت نفسه، ولما كانت قصة تشتيت القوات الفرنسية الخاطئة التي أدت إلى الكارثة، واقتضت ثمناً فادحاً لا تزال حاضرة في ذهني، فإنني قد صرفت جهدي كله منذ البداية إلى حشد قوات المناورة، وقد رسخت هذه السياسة في نفسي إلى أقصى حد يمكن تسمح به مواردنا المتضاعفة.

وقد التقت آرائي بوجهات نظر البحرية، وأرسل إلى الأميرال باوند بياناً مفصلاً في ١٢

تموز أعده بالاشتراك مع رؤساء أركان حربه ، الذي كان قائماً على هذه الأسس النظرية ، وقد فصل البيان بالطبع جميع الصعوبات التي علينا مواجهتها وقال الأميرال باوند في إجماله للخطبة : « ربما يصل إلى شواطئنا ما يقارب المائة ألف جندي دون أن تكون لدينا القوات البحرية الكافية لقطع الطريق عليهم ووقفهم » .

إلا أن الإبقاء على خط مواصلات لتموين هذه القوات أمر مستحيل عملياً إذا استطاع السلاح الجوي الألماني أن يتغلب على سلاحنا الجوي وأسطولنا في نفس الوقت ، وإذا ما قام العدو بعملية كهذه فربما كان التقدم نحو لندن بسرعة والاعتماد في تموينه على البلاد التي يحتلها في طريقه ، على حين يرغب الحكومة على الخضوع والاستسلام ، وقد اقتنعت بهذا الاحتمال اقتناعاً تاماً ، وتغير الوضع تغيراً حاسماً في شهر آب ، فقد تأكد لمخابراتنا الماهرة أن هتلر قد أصدر تعليماته بالإعداد لعملية « أسد البحر » ، وأن هذه العملية في دور الإعداد الفعلي في هذا الوقت ، ويدل لنا بشكل نهائي أن الرجل سيقدم المغامرة وكانت الجبهة التي سيهجم عليها تختلف تماماً ، وقد تكون ثانوية بالنسبة للساحل الشرقي الذي كنت أنا قد وجهت إليه بالغ العناية مع رؤساء أركان الحرب الأميرالية ، وسرعان ما بدأ عدد كبير من الصنادل ذوات المحرك الآلي ، والزوارق البخارية يعبر مضائق دوفر أثناء الليل زاحفاً بالقرب من الشاطئ الفرنسي ، ليتجمع شيئاً فشيئاً في سائر الموانئ الفرنسية الممتدة من كاليه إلى بريست ، وكانت الصور الفوتوغرافية التي ترد إلينا كل يوم تظهر لنا هذه الثقافات بدقة وعناية ، ورأينا أنه من العسير علينا أن نزرع ألغامنا على مقربة من الساحل الفرنسي ، ومضينا فوراً إلى مهاجمة هذه المراكب المتحركة بوحداثنا الصغيرة ، وركزت قيادة قاذفات القنابل هجومها على موانئ الغزو ، وسرعان ما انهالت علينا الأنباء عن احتشاد جيش أو جيوش ألمانية ضخمة استعداداً للقيام بهذا الغزو على قطاع الساحل المعادي ، وعن تحركات واسعة النطاق على السكك الحديدية واحتشادات ضخمة في خليج كاليه ونورماندي وظهرت إلى حيز الوجود أعداد وفيرة من بطاريات المدافع القوية البعيدة المدى ، متشرة على طول الساحل الفرنسي القائم على القتال ، وكان يترتب علينا أن نجابه الخط الجديد ونقل اعتمادنا على هذه الخطوة إلى خطوة أخرى ونهيم كافة السب لتيسير نقل احتياطنا المتحرك الذي

يتضاعف عدده إلى الجبهة الجنوبية ومضى الوقت وقواتنا المتزايدة عددًا والمقدمة كفاءة وسرعة في التحرك، تطمئننا إلى قدراتها وفعاليتها، ولم ينقض النصف الأخير من شهر أيلول، حتى كان في استطاعتنا أن نحشد ست عشرة فرقة من أحسن الفرق نظامًا وإعدادًا على الساحل الجنوبي بينها ثلاث فرق مدرعة عدا أجهزة الدفاع الساحلية المحلية، وقد أصبح في مكنتها القيام على القور بأي عمل عسكري يوكل إليها ضد أية عملية للغزو أو الإنزال، وأصبحت لنا قوة ضاربة أو مجموعة من القوى الضاربة التي كان الجنرال بروك وحده القادر على تحريكها عندما تحين الساعة، فهو أكثر سيطرة عليها من كل من عداه.



جرى كل ذلك بالرغم من عدم ثقتنا بأن جميع المداخل ومصببات الأنهار المنتشرة من كاليه إلى نيرشيلنج وهيلجولاند، وكل ما أمامه من جزر تقع بالقرب من الساحلين الهولندي والدنمركي، لا تخفي قوات معادية هائلة أخرى من نوع صغير أو متوسط، وقد خطر في بالنا أن الهجوم سيبدأ من هارويش حول بورغماوث ويورتلاند إلى بليموث مع تركيز خاص على مقاطعة «كنت» أيضًا، ولم توجد لدينا أية برامهن أخرى إيجابية على أن موجة ثالثة من الغزو قد لا تتسق وتتوافق في الزمن مع الموجتين الأوليين، وتشن من موانئ البلطيق خلال مضائق سكاغراك في سفن كبيرة، ولا شك في أن مثل هذا الغزو جوهرى بالنسبة لخطط الألمان لتحقيق النجاح، إذ تعتبر الوسيلة الوحيدة لوصول الأسلحة الثقيلة التي تم إنزالها، أو لإقامة مستودعات تموين كبيرة.

ودخلنا في ذلك الحين فترة من التوتر الشديد، واليقظة الدائمة وكان علينا طيلة الوقت أن نحرص على وجود قوات كبيرة في الشمال من «دوش» حتى «كروماريني»، كما قمنا بعمل الترتيبات اللازمة لسحب جزء منها في حالة وقوع الغزو في الجنوب، وكان في مقدرتنا بفضل الشبكة الرائعة الداخلية من سكك حديدنا، وبفضل استمرار سيطرتنا على الجوفي سماء وطننا، أن نسحب أربع فرق أو خمس من الشمال لتعزيز الدفاع عن الجنوب في حالات الضرورة القصوى خلال أيام الرابع والخامس والسادس من بدء تحرك العدو.

وأجرينا دراسة دقيقة لأوضاع القمر والمد والجزر وتيقنا من أن العدو سيؤثر عبور البحر في الليل والنزول إلى الأرض عند الفجر، وهانحن أولاً نعرف أن ما تيقنا به كان على صواب أيضاً، ولم نجد لدينا ذرة من الشك في مقدورتنا على تحطيم كل ما يسر للعدو النزول في أكمة دوفر البحرية أو في القطاع الساحلي الممتد من دوفر إلى بور تسهاوث وإلى بور تلاتند، وكانت أفكارنا جميعاً - نحن الذين نتولى القيادة - تسير في اتجاه وتوافق تأمين مما يثير الإعجاب لتوجيه ضربة إلى عدونا تخلف دويًا في كافة أنحاء العالم، ولم يكن في استطاعة أي إنسان إلا أن يحس بالحماسة، ويشعر بالتأثر من هذا الجو الذي يولي بعزم هتلر وعتاده .

وكان من بيتنا من يتحرق شوقاً إلى قيام هتلر بمحاولته، يحدوهم إلى ذلك العوامل المجردة التي تؤكد لهم مدى تغير مجرى الحرب لو مني هتلر بتدمير محاولته وتحطيم أمانيه . وكنا قد انتهينا خلال شهري تموز وآب من السيطرة الجوية على سماء بريطانيا، وكانت قواتنا متفوقة تماماً وبصورة خاصة في سماء القطاعات الواقعة في الجنوب الشرقي لبلادنا، وأخذت المعدات الدفاعية الدقيقة، والمراكز المنيعة والحصون الشاهية وحواجز مكافحة الدبابات، وحواجز الطرق إلى غير ذلك غملاً كل مكان، وتوجهت سواحلنا بالإجراءات الدفاعية والبطاريات كما توفر لدينا عدد من المدمرات العاملة في الأطلنطي مع ما في هذا الإجراء من ثمن باهظ تكبدته قوافلنا التجارية في الأطلنطي، كما شيدنا عدداً آخر منها ليزيد استحكام الدفاع عن السواحل، وقد أحضرنا بارجة التدريب (ستوريون) وإحدى الطرادات إلى بلايموث، وظل أسطولنا في ذروة قوته، وفي قدرته أن يعمل مع تجنب كثير من الأخطار .

وبهذا كنا على أتم الاستعداد لمواجهة أي شيء، وأخيراً اقترب موسم الزوابع الاستوائية المعروفة في شهر تشرين الأول، وكان شهر أيلول هو الشهر الذي يتحتم على هتلر أن يواجه فيه ضربته إذا واثته الجرأة الكافية حيث يكون في صالحه ظواهر المد والجزر والقمر في أواسط الشهر المذكور .

وأرى أن الوقت قد حان لأنقل بالقارئ إلى معسكر الأعداء، حتى أطلععه على مدى استعداداته وخططه، كما وقفنا عليها في هذه الآونة .

الفصل السابع

عملية أسد البحر



لم تكذب تشب الحرب في ٣ من أيلول عام ١٩٣٩ ، حتى بدأت البحرية الألمانية ، كما تشير الوثائق المصادرة بعد الحرب ، عدا الدراسات اللازمة لغزو بريطانيا . وقد رأت عكس ما ارتأيناه ، أن السبيل الوحيد هو إتمام الغزو عبر المياه الضيقة لبحر المانش ، ولم يقدر الألمان أي احتمال آخر ، ولو كنا قد علمنا بالحقيقة هذه آنذاك لاسترحنا كثيرا حيث يواجه الغزو عبر المانش أكثر سواحلا تحصينا ، وهي الجهة البحرية القديمة المواجهة لفرنسا حيث الموانئ المحصنة ، وحيث قواعد المدمرات الرئيسية ، وأغلب المطارات ومحطات الإشراف الجوي للدفاع عن لندن ، ولم تكن نعتمد في أي جزء من أجزاء الجزيرة اعتمادنا على هذا الجزء في المسارعة إلى العمل بقوة ضخمة وبجميع قواتنا المسلحة الثلاث ، وكان الأميرال رايدر موجهها كل اهتمامه للإعداد في حال قيام الأسطول الألماني بغزو بريطانيا ، وفي نفس الوقت طلب تركيز الكثير من الأوضاع ، وفي مقدمتها الإشراف الكامل على سواحل فرنسا وبلجيكا وهولندا وموانئها ومصبات أنهارها ، وهذا هو سبب نوم المشروع طيلة فترة ما قبل الحرب ...

وفجأة برزت الافتراضات بصورة تثير الاستغراب ، وتمكن رايدر بالرغم من بعض وساوسه من التقدم إلى الفوهرر مساء معركة دنكرك واستسلام فرنسا بمشروع نال إعجابه ، كما تحدث في الحادي والعشرين من أيار مع هتلر في الموضوع ذاته وفي العشرين من حزيران تحدث إليه لا عن اقتراح الغزو ، فإن إعداد التفاصيل المتعلقة بالمشروع لن يتم بطابع العجلة . وكان هتلر بدوره تساوره الظنون في النجاح فعقب قائلا ، أن يقدر تماما الصعوبات المحتمومة التي سيواجهها مشروع كهذا ، وكان هتلر يتعلق بالأمل الواهي من أن إنجلترا قد تطلب الصلح وتنشده ، ولم تنتبه القيادة الألمانية إلى فكرة الغزو إلا في آخر أسبوع من حزيران . وفي الأسبوع الثاني من تموز صدرت الأوامر الأولى بتجهيز خطة للغزو كأنه أمر محتمل الوقوع ، وتقضي هذه الأوامر بأن الفوهرر قد علق غزو إنكلترا على توفر بعض الشروط الخاصة وفي طليعتها السيطرة الجوية .

وأصدر هتلر في ١٦ تموز توجيهها منه يقول : إنه بالرغم من المأزق العسكري الحرج لإنكلترا فإنها لم تظهر أية رغبة في التفاهم ، ومن أجل هذا عازمت على إعداد عملية النزول في

إنكلترا لتنفيذ في الوقت المناسب . وينبغي أن تتم الترتيبات اللازمة للخطة كلها قبل منتصف شهر آب ، وكانت الإجراءات العملية لتنفيذ هذه الإشارة قد بدأت في كل مكان . فقد كانت خطة الأسطول الألماني تنسم بالميكانيكية بوجه عام ، فتحت ستار نيران المدفعية الساحلية من كاليه في اتجاه دوفر ، وتحت حماية مدفعية قوية على طول الساحل الفرنسي المقابل للمضيق ، كانت خطة البحرية تقضي بإقامة نطاق ضيق عبر المانش في أقصر مسافة ممكنة وأحاطته من الجانبين بسياج من الألغام مع قيام الغواصات بحماية خرجية . وكان من المتفاهم عليه أن ينقل الجيش في مراكب عبر القنال على أن نمونه سلسلة طويلة من الإمدادات . وإلى هنا ينتهي دور الأسطول الألماني . وعلى قيادة الجيش معالجة بقية المشكلة .

فإذا قدرنا أنه كان في استطاعتنا بفضل تفوقنا البحري الهائل أن نقضي على حقول الألغام المذكورة بالقطع البحرية الصغيرة تحت ستار قوة جوية ماهرة وضرب الغواصات المحتشدة من الجانبين لحماية الحقول لا تضح لنا أن هذه الخطة كانت خطة متداعية منذ بدايتها ، وكان في استطاعة أي إنسان يعرف أنه بعد انهيار فرنسا لم يكن هناك مقر من امتداد أجل الحرب وتزايد الأخطار إلا إذا اضطرت بريطانيا إلى التسليم . وكان الأسطول الألماني قد تأثر بمعركة النرويج ولم يعد في إمكانه ، بوضعه الحالي ، أن يقدم إلى الجيش إلا بمساعدة جزئية ضئيلة ، ومع ذلك فقد جهز الأسطول خطة ولم يكن في إمكان أحد يقول أن حسن الحظ قد هبط عليه فجأة . وكانت القيادة العليا الألمانية قد اعتبرت غزو إنكلترا في بادئ الأمر شيئا يثير القرف في الفانوس ، ولم تكن قد دبرت أية خطط أو استعدادات لتنفيذه ، كما لم يتلق جنودنا تدريبا على العمليات الخاصة به . لكنه بعد أن توالى أسابيع من نشوة الانتصارات الرائعة وجلدت القيادة في نفسها الجرأة والشجاعة للقيام بأية مهمة ، ولم يكن اقتحام البحر بأمان مسؤولية تتعلق برجال القيادة من الناحية الإدارية ولكنهم كانوا على ثقة من أن الجيش إذا بلغت قواته الضخمة شاطئ بريطانيا في سلام وأمان فإن مهمة أحرار النصر على بريطانيا تصبح أمرا يسيرا .

وقد شعر الأميرال رايدر في شهر آب بوجود الانتباه إلى أن عبور القنال يتضمن مخاطرة كبيرة ، وإلى إمكانية فقدان الجيش كله في هذه المحاولة .

وعندما تولى الأسطول مهمة نقل الجيش العابر، أصبحت البحرية الألمانية تدور في حلقة مفرغة من القنن المستمر، وقابل قادة الأسلحة الثلاثة القومهر في ٢١ من تموز، فأبلغهم أن الحرب قد شارفت على المرحلة الفاصلة إلا أن إنكلترا لا ترغب في الاعتراف بذلك، وما زالت تأمل أن تدور عجلة القدر، ثم تحدث عن الإمدادات التي تصل إلى إنكلترا من الولايات المتحدة، كما أشار إلى احتمال تبدل في العلاقات السياسية في ألمانيا وروسيا. واستطرد قائلاً: إن تنفيذ عملية «أسد البحر» الخطة الأكثر جدوى في التعجيل بنهاية الحرب. وبعد حديث طويل من الأدميرال، بدأ هتلر يكشف خطورة ما تخفيه عمليات عبور المانش بما فيه من تيارات ومد وجزر، وبما في البحر من غموض. ثم وصف عملية «أسد البحر» بأنها عملية في منتهى الجرأة والمغامرة واستطرد يقول: «وبالرغم من قصر المسافة، فإن العملية ليست مسألة اجتياز نهر، لكنها اقتحام بحر كبير يسيطر العدو عليه. وليست العملية إجراءً فردياً في العبور، كما حدث في النرويج، إذ لم تكن هناك عناصر المفاجأة، ولكننا هنا سنواجه عدواً مستعداً للدفاع وقد صمم على القتال وفرض سيطرته على المنطقة البحرية التي يجب علينا استخدامها، وستقتضينا عملية الجيش نحواً من أربعين فرقة وربما يكون نقل الإمدادات أصعب شيء في هذه العملية، إذ ليس في مقدورنا أن نعتمد على أي نوع من المؤن يتيسر لنا الحصول عليه داخل إنكلترا، وكان الأساس الأول في نجاح الغزو هو السيطرة الكاملة في الجو واستخدام مدفعية قوية في مضيق دوفن والحماية عن طريق الألغام...» ثم تابع هتلر حديثه بقوله: «والطقس عامل حيوي أيضاً، فهو في بحر الشمال وفي المانش يشتد في النصف الثاني من شهر أيلول، كما يتكاثف الضباب في منتصف شهر تشرين الأول، لذلك يتحتم علينا أن نضمن قيام تعاون بين الطيران والأسلحة الثقيلة. فهذا التعاون من الطيران يعتبر من الطيران عملاً هاماً وحاسماً في تحديد الموعد.

وقد نشب نقاش حاد تخلله شيء من العنف بين أركان الجيش الألمان حول عرض الجبهة، وعدد المراكز التي يجب أن تهاجم، وقد طلب الجيش أن تتم سلسلة من عمليات الإنزال على طول الساحل الجنوبي لإنكلترا الذي يمتد من دوفر إلى «لايم ريجيز» إلى القرب من بورتلاند، وطالب بإنزال قوات مساعدة في رامسجيت إلى الشمال من دوفر، وأعلن

أركان البحرية الآن أن أصلح مكان للعبور هو المكان الواقع ما بين فورلاند الشمالية وجزيرة وايت . وعلى هذا الأساس جرى تجهيز مائة ألف جندي لإنزالهم في هذه المنطقة على أن يلي ذلك مائة وستين ألف جندي آخرين في أماكن أخرى تمتد من دوفر غربا إلى خليج لايم . وأعلن الجنرال هود رئيس الأركان أنه من المحتم إنزال أربع فرق على الأقل في منطقة برايتون ، كما طالب بإنزال قوات إضافية بين ريل ورامسجيت على أن يجري توزيع ثلاث عشرة فرقة أن أمكن وفي وقت واحد في أماكن متعددة على طول الجبهة ، كما طلب سلاح الطيران سفنا كافية لتنقل اثنين وخمسين مدفعا من المدافع المضادة للطائرات مع حملة الإنزال الأولى .

لكن رئيس أركان البحرية بين استحالة القيام بعمليات واسعة وسريعة كهذه العمليات ، قرر أنه لا يستطيع عمليا حراسة أسطول الإنزال في هذه المسافة الممتدة من البحر ، وإن على الجيش اختيار أفضل مكان ضمن هذه الحدود المذكورة ، إذ ليس لدى الأسطول قوة لحماية أكثر من عملية عبور واحدة في وقت واحد ، حتى لو كانت لنا السيادة على الجو ، وهو يرى أن أضيق مكان في مضائق دوفر هو أكثرها سهولة من ناحية الحماية بطلب نقل المائة والستين ألف جندي في المرحلة الثانية في عملية واحدة وهذا يحتاج إلى ألف سفينة تبلى حمولتها مليون طن ، ثم أضاف رئيس أركان البحرية أنه حتى في حالة توفر هذا العدد الخيالي فإن موانئ الإبحار لا تستطيع استيعاب مثل هذا العدد الضخم ، أما ما يمكن عمله فهو القيام بنقل الفصائل الأولى من الفرق الأربع لتشييد رؤوس جسور ضيقة على أن تقوم بنقل الفصائل الباقية في اليومين التاليين ، وذلك دون ذكر أي معلومات عن الفرق الست الباقية المتوجب إنزالها لنجاح العملية ، وأشار أيضا إلى أن الإنزال على جبهة واسعة يعني إيجاد فرق في أوقات المد العالي بين مختلف الأماكن المختارة يتراوح بين الثلاث ساعات والخمس ساعات ونصف ، وعلى هذا يتوجب أن نختار بين أمرين : أما أوضاع المد غير المناسبة في بعض الأماكن وأما الرجوع عن فكرة إنزال القوات في مناطق مختلفة في وقت واحد . وكان الرد على هذا الاعتراض من الصعوبات . ومروا وقت طويل ضاع خلال تبادل المذكرات .. وأخيرا التقى هولدر ورئيس أركان البحرية في اجتماع بينهما لأول مرة عقد في ١٩ آب ، وقال

هولدر في هذا الاجتماع : «إني أرفض اقتراحات الأسطول رفضاً قاطعاً، فمن وجهة نظر الجيش تعتبر العملية بهذا الوضع انتحارية . إذ أن إرسال القوات بالشكل الذي اقترحتتموه معناه إلقاءها في مفرمة اللحم ، تمام كمل نلقي اللحم في المفرمة . » وأجابه رئيس أركان البحرية بقوله : إنه هو أيضا لا يمكنه قبول فكرة النزول على جبهة واسعة ، إذ إن ذلك لا يعني إلا شيئا واحدا ، هو التضحية بالجنود أثناء عبورهم ، وتم الوصول ، أخيرا ، إلى حل وسط قام به هتلر نفسه ولم يقتنع الجيش أو البحرية . فقد صدر الأمر من القيادة العليا في السابع والعشرين من شهر آب يقضي بأن على عملية الجيش أن تسق والحقائق التي توجهها شروط الحمولة المحدودة في البواخر وسلامة العبور والإنزال . وقد تم بئذ فكرة النزول في منطقة ريل رامسجيت ، ولكن تقرر أن تمتد الجبهة من فولكستن إلى بوجور . وهكذا لم يتم الاتفاق النهائي قبل نهاية شهر آب ، فكل شيء بالطبع متوقف على النصر والتفوق في المعركة الجوية الناشبة منذ ستة أشهر .

وتم تجهيز الخطة النهائية على ضوء طول الجبهة التي جددت في النهاية كما عهد بالقيادة العسكرية إلى رونشتادت ، لكن النقص في عدد السفن قلل من عدد القوات فأضحت ثلاث عشرة فرقة أساسية ، واثنتي عشرة فرقة أخرى احتياطية ، وتم الاستقرار على إبحار الجيش السادس عشر من المرافئ الواقعة بين بولون وروترهام ، وأن تنزل بالقرب من هايت وهيسنجر وأيستبورن ، على أن يبحر الجيش التاسع من المرافئ الواقعة بين بولون والمافر وأن يهاجم المناطق بين برايتون دوريتج . وقد جهزت الخطة على أساس الاستيلاء على دوفر من ناحية البر وأن يزحف الجيشان بعد ذلك على الخط الممتد من كانتربري إلى أشفورد فيفيلد وأرونديل ، كما تنزل إحدى عشرة فرقة في المراحل الأولى فقط ، وتمنت القيادة العليا الألمانية أن تتمكن القوات المهاجمة في الأسبوع الأول من التقدم إلى جريفسن وريفيت ويورفيلد وبورتسماوث ، أن يقف الجيش السادس الاحتياطي على أهبة الاستعداد لتعزيز القوات المهاجمة أو لتوسيع رقعة الهجوم إذا قضت الظروف إلى ديهاو ، ولا ريب أن القيادة الألمانية لم تنظر إلى الجنود الشجعان المسلحين أحسن تسليح افتقارها إلى سفن للنقل ولسلامة العبور .

ووقع عبء المرحلة الثقيل في الهجوم على أركان البحرية ، ولم يكن في حوزة ألمانيا ما يزيد على حمولة مليون ومائتي ألف طن من السفن المجهزة تجهيزا كاملا ونقل القوات الغازية يحتاج إلى أكثر من نصف هذه الحمولة ، كما يؤدي إلى الكثير من المشكلات الاقتصادية . وعندما حل شهر ايلول تمكنت القيادة البحرية من أن تعلم أنها استطاعت أن تضع يدها على ١٦٨ باخرة مجموع حمولتها سبعمائة ألف طن و ٤١٩ قاطرة وسفن لصيد الأسماك و ١٦٠٠ زورق بحري . وكان بالإمكان نقل هذا الأسطول العتيد بعد تجهيزه باخرة مجموع حمولتها سبعمائة ألف طن و ٤١٩ قاطرة وسفن لصيد الأسماك في اليوم الأول من ايلول عملية اندفاع الملاحه الضرورية للغزو جنوبا كانت قواتنا الجوية تراقبها وترصد تحركاتها وتقصفها بعنف على طول الجبهة من أنتويرب إلى الهافر . وسجلت أركان البحرية الألمانية أن دفاعنا المستمر من الساحل وتركيز غارات طائراتنا على مرافق أببحار سفن عملية «أسد البحر» ومواصلة أعمال الاستكشاف توحى جميعها بأننا على علم بالغزو القريب .

وذكرت تقارير أركان البحرية الألمانية أيضا ، أنه ما زالت الطائرات البريطانية من قاذفات للقنابل وطائرات لبث الألغام تواصل أعمالها بصفة دائمة ، وعلينا أن نفر أن غارات الطائرات البريطانية كانت موفقة وإن لم تكن فاصلة في عرقلة نقل السفن الألمانية إلى المرافى . وبالرغم مما حدث من تدمير وتعويق فقد استطاعت البحرية الألمانية إتمام الجزء الأول من مهمتها الخضيره ، ولم تتجاوز خسائرها العشرة في المئة من مجموع قوة الغزو الكاملة ، وهي نسبة أقل بكثير مما قدرته القيادة الألمانية ، أما ما تبقى على أهبة الاستعداد ، فلم يكن بأقل من الحد الأدنى الذي قدرت القيادة حتمية وجود للقيام بالمرحلة الأولى من العملية ، وقد ألقى الجيش والأسطول الألماني العبء كله عاتق السلاح الجوي ، وكانت حماية الممر بما يلازمها من بث الألغام التي بمثابة الأسوار موكلة إلى السلاح الجوي الألماني ضد التفوق الظاهر لعمليات المدمرات البريطانية والسفن الصغيرة . أي أن الخطة كانت قائمة على إلحاق الهزيمة بالطيران الإنكليزي والسيطرة المطلقة لألمانيا على الجو ، لا فوق المانش وجنوب شرقي آسيا فقط ، بل فوق مناطق العبور والإنزال كذلك . وهكذا أوكل السلاحان الألمانيان القديان مهمة الخطة إلى مارشال الرايخ غورنغ .

وقد رحب غورنغ بقبول هذه المهمة ، لثقتة المطلقة بالتفوق العددي للطيران الألماني ، إنه لن تخفي أسابيع معدودة من القتال الشديد حتى تنزل الهزيمة المتكررة بالدفاع البريطاني ، ويتم تدمير مطاراته في كنت وسكس ومن ثم تسيطر ألمانيا على المانش . وقد ظن غورنغ أيضا أن قصف إنكلترا من الجو وخاصة العاصمة لندن سيدفع بالشعب البريطاني المنحل الذي يفضل العافية إلى الرضوخ وطلب الصلح ، هذا بالإضافة إلى أن نذر العزو كانت قد بدت في الأفق القريب لكن البحرية الألمانية لم تجاربه في تفاؤله هذا وكانت شكوكها عميقة الجذور ؛ لأن عملية «أسد البحر» لا يمكن إلا أن تكون إجراء أخيرا ، فأوصت في شهر تموز بتأجيلها حتى ربيع عام ١٩٤١ ، ألا إذا أجبرت الغارات الجوية وحرب الغواصات الرهيبة الإنكليز على مفاوضة الفوهرر بالشروط التي يفرضها ، أما الفيلد مارشال كايتل والجنرال يودل فقد كانا مغتبطين من تفاؤل قائد الجو الأعلى غورنغ .

لقد عاشت ألمانيا أياما مجيدة رائعة انتشى فيها هتلر بخمرة النصر قبل أن تذلل له فرنسا في هدنة كومبين ، وسار الجيش الألماني الظافر تحت أقواس النصر وعبر الكاب إيسيه ، فهل بقي هناك شيء يعجزون عن تنفيذه ؟ فلم التردد إذن في الأقدام على مجازفة مضمونة ؟ وهكذا فإن الأسلحة الثلاثة التي تشترك في إنفاذ عملية «أسد البحر» ولفتت نظر كل منهما إلى الجانب المضيء في الدور الذي سيقوم به وترك الجانب المظلم إلى السلاحين الآخرين .

وبمرور الأيام تضاعفت الشكوك وقامت العراقيل ، وكان قرار هتلر الصادر في ١٦ تموز قد حدد إنهاء جميع الاستعدادات قبل منتصف شهر آب لكن كافة الأسلحة وجدت أن تنفيذ هذه الخطة في الوقت المحددة غير ممكن : وقبل هتلر في نهاية شهر تموز بتحليل موعد ١٥ أيلول كموعده مبكر للغزو ، بينما أجل قراره الأخير القاضي بتحليل موعد البدء في العمل حتى تتضح نتائج معركة الجو التي حمى وطيسها ..

وأبلغت البحرية في ٣٠ آب القيادة العليا ، أن استعدادات أسطول الغزو يستحيل أن تتم في ١٥ أيلول بالنسبة للإجراءات المضادة التي أقدمت عليها بريطانيا وعلى هذا تأجل البدء في الغزو حتى ٢١ أيلول مع اشتراط عشرة أيام كإنداز مسبق ، وهذا يعني ضرورة إصدار الأمر الأول في ١١ أيلول ، وأبلغت البحرية مرة أخرى في العاشرة من أيلول القيادة

العليا مدى الصعوبات الكثيرة التي تجابهها نتيجة لرداءة الطقس وأعمال بريطانيا المضادة ، وبالرغم من أن التجهيزات البحرية المطلوبة قد تتم فعلا قبل ١١ أيلول ، إلا أن الشرط الأساسي الذي يحتم السيطرة المطلقة على جو القنال لم يتحقق بعد . وقد أدى ذلك إلى أن أصدر هتلر قراره في ١١ أيلول بتأجيل صدور الأمر التمهيدي لثلاثة أيام أخرى ، وبذلك يكون الغزو قد تأجل إلى الرابع والعشرين ، كما تأجل مرة ثانية في الرابع عشر ثلاثة أيام أخرى وفي السابع عشر من أيلول تأجل إصدار هذا الأمر إلى أجل غير مسمى لأسباب هامة في نظرهم ونظرنا أيضا .

وقد علمنا من الأخبار الواردة إلينا في ٧ أيلول أن تحركات السفن الصغيرة مازالت مستمرة في الغرب وفي الجنوب في اتجاه المرافئ الواقعة بين هو مستند والهافر ، ولما كانت هذه المرافئ تحت وطأة الغارات البريطانية القاسية فقد كان من المعقول ألا تتقل إليها السفن الكبيرة إلا قبيل الغزو ، وتضاعفت القوة الضاربة للسلاح الجوي الألماني بين أمستردام وبريست حتى بلغت مائة وستين قاذفة قتال وصلت من الترويج إلى هذه المنطقة ، كما رأينا مجموعات من طائرات الانقضاض ذات المدى القصير في المطارات الأمامية الواقعة في خليج كاليه وقد اعترف أربعة من الجواسيس الألمان الذين تم اعتقالهم قبل مضي بضعة أيام من نزولهم من أحد زوارق التجذيف على الساحل الجنوبي والشرقي من إنكلترا أنهم جاؤوا ليكونوا على استعداد في أية لحظة أثناء الأسبوعين القادمين ، وليرسلوا بتقارير خاصة عن تحركات الوحدات البريطانية الاحتياطية في أيوبس ولندن وريدينج وأوكسفورد . وكانت أوضاع القمر والمدين الثامن والعاشر من شهر أيلول مناسبة للغزو من الساحل الجنوبي الشرقي ، لذلك قرر رؤساء أركان الحرب عندنا أنهم يتوقعون الهجوم في أية لحظة ، وأن على قواتنا المدفعية أن تقف على أهبة الاستعداد لمواجهة أي طارئ عاجل .

ولم يكن في القيادة العامة حينذاك جهاز يستطيع إعلان حالة الطوارئ المحددة له ثمان ساعات إلى عمل فوري ، ومع ذلك فقد صدرت كلمة السر «كرومويل» التي يقصد بها أن عملية الغزو محتملة في أية لحظة ، صدرت الكلمة إلى القوات في الساعة الثامنة من مساء السابع من شهر أيلول ، وإلى القيادتين الجنوبية والشرقية ، للعمل الفوري السريع للفرق

الساحلية الألمانية ، وجميع الوحدات في منطقة لندن ، وإلى الفيلقين الرابع والسابع من قوات الاحتياط التابعة للقيادة.

وتكررت الكلمة إلى جميع القيادات الأخرى ، للعلم بها فقط ، في جميع أنحاء المملكة المتحدة ، وعندما وصلت هذه الكلمة إلى قادة الحرس الوطني في بعض أنحاء البلاد ، قاموا بدافع من أنفسهم باستدعاء قوات الحرس لدق أجراس الكنائس . ولم أكن أنا وروساء أركان الحرب قد علمنا بأن كلمة «كرومويل» قد استخدمت فعلا ، ولذا فقد صدرت أوامرنا في الصباح التالي بضرورة إيجاد مراحل انتقالية يتضاعف فيها الحذر في المناسبات المقبلة دون إعلان أن الغزو قد حصل ، وفي استطاعة كل إنسان أن يتخيل ما أثاره هذا الحادث من هرج ومرج وفوضى ، وإن لم يشر إليه سواء في الصحف أم في البرلمان ... وعلى كل فقد كان هذا الحادث إشارة لتدريب لكل من يعينهم الأمر .

والآن وبعد أن تبعنا مراحل إعداد القيادة الألمانية العليا حتى وصلت إلى القمة ، فقد أصبح في مقدورنا أن نعرف كيف تغير الموقف من الزهو بالانتصار المبكر إلى قيام حالة من الشك ، ثم إلى فقدان كل ثقة في النتيجة ، وقد شاهدها القائد البحري رايدر في شهري تموز وآب وحاول ما استطاع تثقيف زملائه من قادة البحر والجو وتبصيرهم بمتاعب الحرب البرمائية الواسعة النطاق ومشقاتها ، فقد أحسس الأميرال بضعفه واحتياجه إلى عامل الوقت لاستكمال المعدات ، وإن كان تنفيذ الخطة الواسعة النطاق التي وضعها هولدر هي أنزال قوات ضخمة في وقت واحد في منطقة مترامية الأطراف ، وكان غورنغ بخياله الجامح مصر في الوقت نفسه على إحراز النصر الساحق بقواته الجوية وحدها ، وأبى أن يساهم بدور متواضع في الإعداد لخطة مشتركة تهدف إلى تخفيض قوات المقاومة بحرية وجوية في جبهة الغزو .

ويتضح من الوثائق والسجلات أن القيادة الألمانية العليا لم تعمل بانسجام وتعاون في سبيل الهدف المشترك ولم تواجه مشاكل الأسلحة المختلفة بالوعي الناجح السليم . فقد كان الاحتكاك فيما بينهما واضحا منذ البداية ، وطالما كان في مقدور هولدر أن يلقي بالمسؤولية على كاهل رايدر فإنه لا يحاول أن يوجد الانسجام بين خططه الشخصية وبين الإمكانيات

العلمية ، وكان من المحتم أن يتدخل هتلر ، وقد تدخل بالفعل لكن تدخله لم يعمل على تحسين العلاقات بين القوات المسلحة ، وكانت سمعة الجيش في ألمانيا قد ارتفعت إلى ما فوق السحب ، وكان القادة العسكريون يتظرون بتعال إلى زملائهم من قادة البحرية .

وقد يكون من الصعب على أي إنسان أن يقاوم الأدلة التي تنهض على تأكيد أن الجيش الألماني لم يكن راضيا عن وضعه تحت إشراف البحرية في عملية رئيسية كهذه ، وعندما سئل الجنرال يودل بعد انتهاء الحرب عن هذه الخطط أجاب ، وهو نافذ الصبر « كانت خططنا تشبه تمام الخطط التي وضعها يوليوس قيصر » .

وربما يكون في هذا القول الصادر عن جندي ألماني موثوق به بالنسبة لعمليات البحرية ، ما يلقي الضوء على أن الجندي الألماني لم تضعف في ذهنه المشكلات الخاصة بعمليات الإنزال والأخطار الناجمة عن نقل قوات بحرية كبيرة وتوزيعها على ساحل قد أجيد الدفاع عنه .

أما نحن في بريطانيا فضلا عما كنا نعانيه من نقص ، فقد خبرنا البحر ووقفنا على مشكلاته ، فالبحر منذ قرون عديدة جزء من كيانتنا ، وتقاليده لا تستثير بحارتنا فحسب بل الشعب البريطاني بأسره . ولعل هذا التفهم هو الذي مكنتنا أكثر من أي عامل آخر من النظر إلى خطر الغزو بكل ثقة وهدوء . وقد خضع التخطيط الذي وضعناه لإشراف رؤساء أركان الحرب الثلاثة برئاسة وزير الدفاع مما أدى إلى إيجاد نظام متناسق ككتلة واحدة وإلى التعاون التام الذي لم نر له مثيلا في الماضي وإلى التعرف المتبادل إلى كافة المضاعف . وعندما آن الأوان لبدا نحن في عمليات غزو عظيمة وساعة النطاق من البحر ، كان عملنا آنذاك متركزا على أساس وطيد من الاستعداد الشامل لأداء العمل ومن الإحاطة الكاملة بكل الاحتياجات التكميلية للأقدام على مشروعات واسعة لها هذه الدرجة الكبرى من الخطورة .

ولو كان للألمان في عام ١٩٤٠ قوات برمائية جيدة التدريب مستكملة مختلف المعدات الحربية البرمائية الحديثة لما قدر لمهمتها النجاح أمام قواتنا البحرية والجوية ، فكم بالأحرى والألمان لم يكن لديهم شيء من ذلك لا من ناحية المعدات ولا من ناحية التدريب وهما

عاملان ضروريان في مثل هذه الحرب . وكلما زادت رغبة القوهرر والقيادة العليا في المغامرة ضعفت آمالهم فيها ، ولم يكن في استطاعتنا أن نصل إلى معرفة أوضاع بعضنا البعض وتقديرات كل منا ، ولكن كلما مر أسبوع ابتداء من أواسط تموز وانتهاء منتصف أيلول كان الغموض الذي يكثف الموقف بالنسبة للبحرية البريطانية والألمانية وللقيادة العليا الألمانية ورؤساء أركان الحرب البريطانية وبالنسبة للقوهرر ولؤلف هذا الكتاب ينجلي رويدا رويدا . ولو قدر لنا الاتفاق على نفس المستوى في القضايا الأخرى لما وجدت ضرورة لقيام حرب ، فقد اتفقنا بادئ ذي بدء على أن المصير سيتقرر في الجو ، كان السؤال الذي يعرض لنا ولهم في وقت واحد هو كيف تنتهي هذه المعركة الدائرة في الجو ؟ وكان تأثيرها قد بولغ في تقديره في تلك الأيام ؟ أو أنه سينهار تحت وطأتها ويفرض على حكومته الاستسلام . وكان ماريشال الرايخ ذا أمل كبير وثقة بالنتيجة بينما كنا نحن على خلاف ذلك .



الفصل الثامن

معركة بريطانيا



ذكرنا سابقاً أن مصيرنا أصبح مرتبطاً بإحرازنا النصر الجوي ، وأن القادة الألمان قد أدركوا أن نجاح عملية غزوهم لبريطانيا يتوقف على السيطرة الجوية في سماء القتال ، وفي بعض الأماكن على الساحل الجنوبي لبلادنا ، على أنه لم يكن في مقدور الألمان القيام باستكمال استعداداتهم في مرافئ الأبحار ، وحشد سفن النقل ، وتطهير المعابر من الألغام ثم القيام بيبث الغام أخرى دون أن تكون لديهم الوقاية من غارات السلاح الجوي البريطاني .

أي أن الأمر الفصل كان للسيادة الجوية في سماء مناطق العبور والإنزال ومن أجل هذا كان لابد من تدمير السلاح الجوي الملكي وسائر المطارات الممتدة على طول الطريق بين لندن والبحر ، ونحن نعلم الآن من الوثائق التي حصلنا عليها أن هتلر أبلغ الأميرال رايدر في ٣١ تموز : «أنه إذا لم يتمكن سلاحنا الجوي من القيام بعملية تدمير المطارات العدو بالإضافة إلى موانئه وقوانه البحرية خلال مدة ثمانية أيام ، فإن عملية الغزو ستأجل بالضرورة حتى أيار من العام المقبل » . وهذه المعركة التي كان علينا أن نخوض غمارها ، على أني لم أحس بخوف لحظة واحدة . ولو عن طريق التصور . من التجربة العظمى التي كنا نواجهها ، وكنت في الرابع من حزيران قد أدليت للبرلمان ببيان هذا نصه :

«إن الجيش الفرنسي العظيم قد اضطر إلى التراجع ، واضطرت كل أموره نتيجة الهجوم الذي قامت به بضعة ألوف من السيارات المدرعة فهلا يدافع عن قضية الحضارة بضعة ألوف من الطيارين بمهارتهم وإخلاصهم !! وأرسلت إلى سمطس في ٩ حزيران الثاني أقول : وأنني أرى الآن بوضوح أن هتلر بشكل قاطع سيشن هجوماً على هذه البلاد ، فيدمر سلاحه الجوي في هذا الهجوم» .

والآن جاءت الظروف مواتية ...

ولاشك أن كتباً كثيرة قد صدرت لتوضح مدى الصراع الجوي بين السلاحين البريطاني والألماني ، وهو الصراع الذي يكون معركة بريطانيا ، وقد استطعنا الآن التعرف إلى آراء القيادة الألمانية العليا ، وإلى ردود الفعل لديها في المراحل المتباعدة ، ويظهر أن خسائر الألمان في بعض المعارك الرئيسية ، كانت أقل بكثير مما خيل إلينا ، وأن تقارير الجانبين في وقتها كانت تتسم بكثير من المغالاة ، ولكن لم يكن هناك خلاف على الخطوط الرئيسية

لذلك الصراع المعروف الذي كانت تتوقف عليه حياة بريطانيا وحرية العالم قاطبة .

كان السلاح الجوي الألماني قد التحم في معركة فرنسا بكل ما لديه من قوة أضحي في حاجة إلى الراحة بعد هذا القتال ، تمامًا كما حدث للأسطول الألماني بعد معركة النرويج ، كذلك كان الأمر بالنسبة لنا إذ أن ثلاثة أسراب من مجموع كل أربعة من أسراب طائراتنا المحاربة كانت قد أسهمت في وقت أو آخر في معارك القارة ، ولم يكن في مقدور هتلر إلا أن يعتقد أن بريطانيا سترحب بعرض للصالح ، بعد انهيار فرنسا .

وكان هتلر يشبه في ذلك المارشال بيتان وفييجان وغيرهما من القادة الفرنسيين العسكريين والسياسيين ، الذين لم يدركوا ما لدى دولة تقوم في جزيرة من موارد مستقلة وما حبتها الطبيعة به من شمم . لقد كان من شأنه شأن هؤلاء الفرنسيين الذين استهانوا بعزيمتنا وإرادتنا ، وقضى هتلر شهر حزيران في تخوير الأوضاع لشمس مع الأحوال التي وجد نفسه فيها تدريجيًا ، وفي خلال ذلك كان الطيران الألماني يقضي فترة من التقاهة وإعادة التنظيم استعدادًا للمهمة الجديدة ، ولم يكن ثمة شك في خطر هذه المهمة ، إذ كان على هتلر أن يختار واحدة من اثنتين ، أما أن يغزو إنكلترا ويحتلها أو يخوض غمار حرب طويلة الأمد ، تطوي على كثير من الأخطار والمشكلات ، على أن احتمال نصر جوي يقضي على المقاومة البريطانية كان مائلًا في أذهانهم مما يجعل الغزو الفعلي أمرًا غير محتم إلا باحتلال بلاد مغلوبة على أمرها . واستطاعت القوة الألمانية الجوية خلال شهر حزيران ومطلع شهر تموز أن تنظم نفسها وتبث النشاط والحيوية في صفوفها ، وأن تتشرب في جميع المطارات الفرنسية والبلجيكية التي يحتمل بدء الهجوم منها ، واستطاعت الغارات الاستطلاعية والتجريبية الوقوف على حقيقة المقاومة التي ستجابهها ومدى طاقتها .

وشرعت في ١٠ تموز بشن أولى هجماتها الضخمة الكبيرة التي تعد بحق بدء معركة بريطانيا، وهناك تاريخان مهمان يرتفعان أيضًا في هذه المعركة هما ١٥ آب و ١٥ أيلول ، وكانت ثمة مراحل ثلاث متتابعة ومتداخلة في الوقت ذاته حين الغزو الألماني ، وقد اتسعت المرحلة الأولى بين ١٠ تموز و ١٨ آب بالتركيز على القوافل البريطانية في المانش وعلى الموانئ الجنوبية الواقعة بين دوفر وبلايموث حيث تقرر حصر سلاح الطيران البريطاني وإيقاعه في

معركة حاسمة والقضاء عليه، وكذلك تدمير الموانئ التي تقرر النزول فيها . وفي المرحلة الثانية الواقعة بين ٢٤ آب و٢٧ أيلول كان من المحتمل تهديد الطريق إلى لندن وذلك بتعطيم السلاح الجو البريطاني ومنشآته لتأمين الهجمات المتواصلة العنيفة على العاصمة وقطع طرق المواصلات من الشواطئ المهددة بالغزو . أما غورنغ فلا شك أنه كان يرى في هذه الغارات غرضاً أكبر وهدفاً أبعد وهو أحداث الاضطراب الكامل في أكبر مدن العالم وشل حركتها، وإيقاع الفزع الأكبر في بريطانيا حكومة وشعباً، واضطرابها أخيراً إلى الخضوع لإرادة ألمانيا، واتجه أمل الجيش الألماني والأسطول إلى الرغبة في أن يكون غورنغ مصيباً فيما رآه، ولكن مع مرور الوقت، وتغير الأحوال رأي قادة السلاحين أن السلاح الجوي البريطاني لم يقض عليه، وأن أملهم في عملية «أسد البحر» قد تبدو في سبيل تحقيق ما أراده غورنغ من تدمير لندن، وأخيراً عندما اتبنتهم خيبة أمل في كل شيء، وعندما تأجل الغزو إلى أجل غير معلوم لأن الشرط الحيوي الأساسي وهو السيطرة على الجو لم يتحقق، بدأت المرحلة الثالثة والأخيرة . فقد تبدد حلمهم في النصر الذي بدا كسراب خادع وسلاح الطيران البريطاني ما زال حياً، مما حدا بغورنغ في شهر تشرين الأول أن يقوم بشن غارات عمياء رعاء على لندن وغيرها من مراكز الإنتاج الصناعي .

ليس هناك وجه للمقارنة بين طائرتنا المقاتلة وطائراتهم، فالطائرات الألمانية أسرع وأقدر على الارتفاع، أما طائرتنا فأقدر على المناورات وأفضل تسليحاً، وكان طيارو ألمانيا على ثقة من تفوقهم العددي، كما كانت الانتصارات التي أحرزوها في بولندا والنرويج والأراضي المنخفضة (هولندا) وفرنسا تشعرهم بالعزة والكبرياء . أما طيارونا فكانوا واثقين بنفوقهم الشخصي، وكانوا يتحلون بتلك العزيمة التي تعتبر من صفات الشعب البريطاني وتبدو في وقت الأزمات والعواصف . وقد كان الألمان متمتعين بميزة إستراتيجية هامة، أحسنوا استغلالها . فقد توزعت قواتهم وانتشرت في جبهة واسعة للغاية، وكان في وسعها أن تشن هجمات علينا بأعداد كبيرة مع اتخاذ كافة الوسائل لشثيت أفكارنا حتى لا يتسنى لنا أن نعرف مواقعهم الحقيقية، وكان الطيران الألماني قد جمع في شهر آب ٢٦٦٩ طائرة بينها ١٠١٥ قاذفة قنابل، و٣٤٦ طائرة من طائرات الانقضاض . وأصدر الفوهرر في ٥ آب أمراً

يحمل الرقم ١٧ يقضي بتوسيع جبهة الحرب الجوية ضد بريطانيا ، ولم يكن غورنغ واثقاً من عملية «أسد البحر» ، بل ركز اهتمامه على الحرب الجوية «المطلقة» ولم تكن هذه القيادة تعتبر تحطيم سلاحنا الجوي المهدف الأساسي بل تعتبر تحول الحرب الجوية بعد بلوغها النضوة إلى شن الهجوم الشامل على بوارجنا وسفنتنا . وقد عبرت هذه القيادة عما تشعر به من أسف لأن غورنغ لا يهتم كثيراً بتركيز غاراته على الأهداف البحرية ، كما أحتقها التأجيل المتكرر للغارات الجوية . وفي ٦ آب أبلغت القيادة البحرية القيادة العامة بأن بث الألغام في بحر المانش أصبح من المتعذر القيام به نتيجة لضغط التهديد البريطاني المتواصل في الجو . وقد تركز القتال الجوي المتواصل طيلة شهر تموز ومطلع شهر آب على قاعدة «كنت» البحرية وساحل القتال ، وقد تأكد غورنغ ومستشاروه أن غاراتهم قد شغلت كل أسرابنا المقاتلة في ميدان المعركة في الجنوب ، فقرروا القيام بغارة في وضوح النهار على مدنا الصناعية الواقعة في الشمال ، وكانت المسافة تعد طويلة على مقاتلاتهم من الطراز الأول وهي (المسرز شميث ١٠٩) فاضطروا إلى المغامرة بطائراتهم القاذفة على أن تصحبها طائرات (المسرز شميث ١١٠) وهذه بصرف النظر عن مقدرتها على الطيران إلى مسافات أبعد ، فهي غير مجهزة بأسلحة القتال ، وهو أمر له أهميته في هذا الوقت ، ومع ذلك فقد نجحت المغامرة .

وهكذا قامت في الخامس عشر من آب نحو مائة قاذفة قنابل ، وأربعون طائرة مسرز شميث ١١٠ ، بشن هجوم على مدينة ناينيسان ، وفي الوقت نفسه كانت أكثر من ثمانمائة طائرة تشن هجوماً على قواتنا الجنوبية لحصرها في منطقتها ، إذ خيل لهم أنها متجمعة في هذه المنطقة . لكن التوزيع الذي وضعه داودنج لطائراتنا المقاتلة بدأ يظهر أثره ، فقد كان داودنج يفكر في مثل هذا الخطر فسحب سبعة أسراب من طائرات «الهاريكين» و«الستيفير» من معركة الجنوب المحتدمة للاستعجاء قليلاً ولحماية الشمال في نفس الوقت ، وقد أحس رجال هذه الأسراب ببالغ الأسى لابتعادهم عن ميدان مضطرين ، إذ أكدوا لقيادتهم أن القتال لم يجهدهم ولم ينل من نشاطهم . وها هم أولاً يفاجؤون بما لا يتخطر على بالهم ، فقد أصبح في مقدورهم أن يلتقوا بالمهاجمين بعد اجتيازهم الساحل واستطاعوا إسقاط أربعين طائرة ألمانية أغلبها من قاذفات القنابل الثقيلة من طراز (هينكل ١١١) التي تنقل الواحدة

منها أربعين رجلاً مدبراً، ولم يصب طيارونا بأي جراح سوى اثنين. وليس هناك مجال للشك في سعة أفق المارشال داوونج وتفكيره السديد في توجيه الطائرات المحاربة مما يستحق عليه كل ثناء وتقدير، ولكن عظمة هذا الرجل تتجلى في احتفاظه بهذه القوة من طائراتنا المحاربة في الشمال أثناء الأسابيع الطويلة من اشتعال الحرب في الجنوب. وهذا النوع من القيادة يعد مثلاً على العبقرية في فن الحرب.

وأعقب هذا اليوم الفاصل أن أضحت مدن الشمال في مأمن من الغارات الجوية وبعد يوم ١٥ آب اليوم الذي بلغ فيه الصراع الجوي أشده، فقد حدثت خمس معارك رئيسية على جبهة مساحتها خمسمائة ميل، كان حقاً يوماً رائعاً، فقد التحمت جميع أسرابنا الاثنين والعشرين في موقعة في الجنوب، وبعضها عاود المعركة مرتين أو ثلاثاً، وكانت خسائر الألمان في الجنوب والشمال قد بلغت ستاً وسبعين طائرة، مقابل أربع وثلاثين من جانبنا. ولا شك في أن هذا الرقم يعد كارثة بالنسبة للسلاح الجوي الألماني.

وليس هنا مجال للشك في أن قادة الجو الألمان قد هالتهم هذه الهزيمة الساحقة التي انطوت على أسوأ النذر بالنسبة للمستقبل، وكان السلاح الألماني قد ركز اهتمامه في الإغارة على ميناء لندن، ذي الأرصفة الطويلة التي تقف عليها مختلف أنواع البواخر، وإذلال كبرياء المدينة باعتبارها من أكبر مدن العالم وأوسعها، على أن تحديد الهدف لا يهم الطيار مما يجعل مهمته أسهل وأيسر.



قام اللورد بيفربروك خلال تلك الأسابيع الطويلة من القتال المتواصل والقلق الذي لا نهاية له، بمساعدات واضحة، فمن الضروري إدخال تجديد على أسرابنا المقاتلة وتزويدها بطائرات مضمونة، وقد حال ضيق الوقت دون الأخذ والرد والإطالة في البحث والشرح بالرغم من ضرورة ذلك في كل نظام هاديء رتيب. وكانت طباع اللورد بيفربروك مناسبة كل المناسبة للضرورة الملحة، فلقد كانت حيويته ونشاطه من بواعث الإقبال على العمل، وقد اغتبطت لذلك كثيراً فقد اعتمدت عليه ووثقت في مساعدته فلم تحب هذه الثقة مرة

واحدة ، وها قد دنت الساعة لإظهار عبقريته واستعداده الشخصي مع ما يصحبها من قدرة على الإقناع تمكنه من تذليل شتى الصعاب. وكنا نلقي في جحيم المعركة بكل مواردنا ، فقد تدفقت علينا الطائرات الجديدة أو ما تم إصلاحه من أسرابنا التي اغتبطت حينما طالعتهها هذه الأعداد الكبيرة غير المتوقعة ، وأخذت ورش الصيانة والإصلاح تضاعف من جهدها وقوة طاقتها . حيث نذ تجلت لي قيمة الرجل وأهميته فدعوته في الثاني من شهر آب بعد موافقة الملك إلى الاشتراك في عضوية وزارة الحرب ، وفي الوقت نفسه كان ولده الأكبر ماكس أتيكن قد تصدر قيادة الطائرات المقاتلة وأحرز انتصاره السادس .

وكان أرست ييفن وزير العمل والخدمة الوطنية من الوزراء الذين حرصت على الإكثار من لقاءتهم في تلك الفترة الحرجة نظراً للمهمة الحيوية التي كان يقوم بها من إدارة اليد العاملة في البلاد وبعث الحيوية والنشاط فيها . وكان جميع العمال في مصانع الذخيرة مستعدين لتلقي توجيهاته ، وانضم هو الآخر إلى عضوية وزارة الحرب في شهر آب . وضحى العمال الثقايون بأرباحهم وحقوقهم التي أحرزوها بعد جهد طويل والتي كانوا يولونها أعظم الرعاية ، ضحوا بها من أجل المصلحة الوطنية وهم يرون بقية الثروات والامتيازات والممتلكات التي يملكها الغير قد ضحوا بها هم الآخرون . وكنت أنا على وفاق تام مع ييفر بروك وييفن في أسابيع الأزمة التي خضناها ، وقد وقع خلاف بين الرجلين فيما بعد ، وهذا مما يؤسف له فقد نتج عن اختلافهما كثير من الصدام ، أما في تلك المرحلة من الكفاح الذي بلغ ذروته ، فقد كنا جميعاً نعمل يداً واحدة ، وليس في مقدوري إلا أن أثني كل الثناء على ولاء المستر تشمبرلين وثبات جميع الزملاء وكفائتهم ، فإلى الجميع تحياتي .

ولم يدرك غورنغ حتى نهاية شهر آب أي أثر سعى للصراع الدائر في الجو ، فقد كان على ثقة هو ورجاله من أن المطارات البريطانية وصناعة الطائرات ، وقوة سلاح الطيران البريطاني المحاربة قد منيت بكوارث ساحقة ، وكانت هناك فترة خلال شهر أيلول تحسن فيها الطقس فازداد أمل السلاح الألماني في إحراز نتائج فاصلة ، وامتحتت المطارات حول لندن بغارة جوية عاتية ، وقامت ثمان وستون طائرة ليبة ٦ أيلول بالإغارة على لندن تبعها في

الليلة التالية هجوم آخر قامت به ثلاثمائة طائرة في وقت واحد، وفي ذلك اليوم كما حدث فيما تلا ذلك من أيام حيث أتممنا تعزيز المدفعية المضادة للطائرات . في ذلك اليوم دارت معارك شديدة ومتواصلة في سماء العاصمة، وكانت القوة الجوية الألمانية توفن بالتيهجة بسبب مغالاتها في تقدير خسائرنا .

وكان ميزان القتال الذي وقع بين ٢٤ آب و ٦ أيلول قدر جح ضد طائراتنا المحاربة، فقد اتخذ الألمان في تلك الأيام الفاصلة بصورة مستمرة قوات ضخمة لتشن غارات على مطاراتنا في جنوب إنكلترا والجنوب الشرقي، وكانوا يهدفون إلى تدمير الجهاز الدفاعي عن العاصمة في أثناء النهار التي استبدت بهم اللفتة لهاجتها، وكان العمل المتواصل في هذه المطارات ودوام تحركات أسرابنا منها، أكثر أهمية لنا من حماية العاصمة التي منيت بحملات من القصف الجوي، غرضها الأول نشر الرعب وإثارة الفزع . وكانت هذه المرحلة فاصلة في الصراع بين الحياة والموت بالنسبة لكلا الفريقين المتنازعين، ولم تكن نفكر حينذاك بالدفاع عن لندن أو غيرها من المدن بقدر ما كنا نتساءل لمن سيكون النصر؟ وقد ساد قيادة الطائرات المحاربة في (ستاجور) إحساس بالقلق وخاصة في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة في أوكسبريدج، إذ منيت خمسة من مطارات المجموعة الأمامية وستة من مراكز الجبهة بأضرار جسيمة وكذلك محطة قطار بجين هيل إلى الجنوب من لندن، حتى إن مربتا واحدا هو الذي استطاع العمل وحده مدة أسبوع كامل، ولو استمر العدو في هجماته الثقيلة على الأماكن القريبة وهدم غرف العمليات فيها، وقطع اتصالاتها الهاتفية لأضحت جميع تنظيماتنا الدقيقة في القيادة الجوية معرضة لأشد الأخطار، ولم يكن دليلاً على مجرد توجيه الإساءة إلى لندن بل على وهن إشرافنا على سمائنا في هذا المكان الحيوي الحساس. وقد فرضت زيادة عدد من هذه المحطات في الثامن والعشرين من آب وخصوصاً مانستون وبجين هيل القريبة من منزلي، كانت المحطتان متلدعتين وطرقهما مملوءة بالحفر، وعندما غير العدو هجومه في السابع من أيلول إلى لندن، أدركت قيادة الطائرات المحاربة هذا التغير واستشعرت قيادتنا الكثير من الراحة لذلك، وكان على غورنغ أن يستمر في هجماته على مطاراتنا التي تعتمد عليها قوتنا الجوية المحاربة في ذلك الوقت، لكن بتخليه عن قواعد

الحرب المألوفة ، وما تمليه الروح الإنسانية من قواعد مقررة ، ارتكب أجسم الأخطاء وأبشعها . وكانت هذه الفترة الواقعة ما بين ٢٤ آب و٦ أيلول من الأيام التي شقت على قيادة طائرتنا المقاتلة إلى أقصى حد ، وكانت القيادة قد منيت بخسارة ما يقرب من مائة وثلاثة من الطيارين خلال أسبوعين بالإضافة إلى مائة وثمانية وعشرين أصيبوا بجراح خطيرة ، كما تحطمت حوالي ٤٦٦ طائرة من طراز الهاريكين والسييتفاير أو أصيبت بأضرار جسيمة ، وإذا اعتبرنا أن عدد الطيارين في قوتنا المحاربة كان في هذه الأونة ألف طيار ، بدلنا أن سلاحنا الجوي قد فقد ربع رجاله تقريباً .

ولم يكن في وسعنا ملء هذا الفراغ الذي نشأ عن فقدانهم ، إلا باستحضار مائتين وستين طياراً جديداً ينقصهم التدريب وإن لم تنقصهم الحماسة ، نقلوا من وحدات التدريب قبل أن يستكملوا مدتهم الدراسية في كثير من الأحيان ، وتسببت الهجمات الليلية على لندن خلال عشرة أيام بعد السابع من أيلول والتي استهدفت الأرصفة ومراكز السكك الحديدية في قتل عدد كبير من المدنيين وإصابة الكثير بجراح ، لكنها برغم ذلك اعتبرت بمثابة نعمة هبطت علينا من السماء ، أرسلت إلينا على حين كنا في أشد الحاجة إليها لنأخذ أنفاسنا .

وعلى أن نعتبر الحرب الجوية قد بلغت ذروتها في الخامس عشر من أيلول ، فقد شن سلاح الطيران الألماني - بعد غارتين متواليتين في ١٤ من الشهر نفسه - أكبر هجوم جوي مركز في رابعة النهار على مدينة لندن . لقد صارت إحدى المعارك الفاصلة في الحرب ، وقد حدثت في يوم من أيام الأحد كمعركة «واترلو» تماماً ، وكنت في ذلك اليوم في تشيكرز ، وطالما قمت - قبل هذا اليوم - بزيارة لمقر المجموعة الحادية عشرة من الطائرات المقاتلة لأرى بنفسى سير إحدى المعارك الجوية التي لا يحدث فيها الكثير ، وأحسست في ذلك النهار أن الطقس مناسب لعدونا ، ولذلك فقد ركبت سيارتي إلى أوكسبردج حيث زرت مقر الجمعية التي تتكون من حوالي خمسة وعشرين سرباً تختص بالدفاع عن أيسكس وكنت وساكس وهامشاير وجميع المداخل المؤدية إلى لندن ، وكان نائب مارشال الجوابارك يقوم بقيادة هذه المجموعة منذ حوالي ستة أشهر ، وكان عليها يتوقف مصيرنا إلى درجة عظيمة ، ومنذ أن ابتدأت معركة دنكرك أسند إلى بارك إدارة كافة أعمال الطيران في النهار في جنوب

إنكثرا وقد بلغت استعداداته حد الكمال ، وتسللت مع زوجتي إلى غرفة العمليات الحربية المحصنة ضد القنابل والواقعة على بعد خمسين قدماً تحت الأرض ، ومن المعلوم أن تفوق طائرات السييتاغير والهاريكين إنهما يرجع إلى وجود هذا الجهاز الدقيق من الأشراف ، وامتداد شبكة أسلاك التليفون تحت الأرض قبل الحرب بفضل توجيه وزارة الطيران ونصيحة المارشال داودنج . وكانت القيادة العامة توجه التعليمات والأوامر من مقر القيادة العليا للطائرات المحاربة في ستاجور ، لكن القيادة الفعلية لأسراب الطائرات قد عهد بها إلى المجموعة الحادية عشرة التي كانت تتولى الإشراف على سائر الوحدات الموزعة في شتى محطات الطائرات المحاربة في مختلف أنحاء البلاد . وكانت غرفة عمليات المجموعة تشبه المسرح الصغير ، وطولها يبلغ مستين قدماً ، وتتكون من طابقين ، وقد اخترنا مقاعدنا في الحلقة الوسطي وأمانا على المائدة أفردت الخريطة الضخمة وقد التف حولنا حوالي عشرين شاباً وفئة تم تدريبهم ومعهم مساعدوهم من موظفي التليفونات وأمانا يقع لوح أسود كبير بطول الجدار كله ، وقد قسمته المصابيح الكهربائية إلى ستة أعمدة يمثل كل منها محطة من المحطات الست ، ولكل منها أيضاً عمود إضافي مقسم بخطوط أفقية . وهكذا كانت المصابيح المنخفضة تكشف عن الأسراب الواقعة على أهبة الاستعداد والمستعدة للطيران خلال دقيقتين ، ثم تعلوها المصابيح التي توضح الأسراب المتأهبة للعمل خلال خمس دقائق ، ثم تعلوها تلك التي يتم استعدادها في عشرين دقيقة ، وهكذا بالنسبة إلى تلك التي تقوم بالطيران أو التي شاهدت العدو أو الشبكة معه في هذه اللحظة أو تلك التي في طريقها إلى قاعدتها ، وهناك غرفة صغيرة على الجانب الأيسر تشبه المقصورة في المسرح يجلس فيها أربعة أو خمسة ضباط من فرقة المراقبة التي كان عددها قد بلغ حينذاك حوالي خمسين ألف رجل وامرأة وشاب ، وقد كان الرادار آنذاك في بدايته ، ومع ذلك فقد كان كافياً لتوجيه الإنذار بالغارات حين تقترب من السواحل ، وكان المراقبون من خلال مناظيرهم وتليفوناتهم المثقلة ، مصدر كل المعلومات عن الطائرات المغيرة ، وهكذا كانت القيادة تنهال عليها ألوف الرسائل والإشارات في أثناء وقوع الغارة . وكان يجلس عند كبير من الرجال المدرين في غرف تمتلئ بهم في مقر القيادة الكاشن تحت الأرض ، يحلون رموز تلك الرسائل

ويكثفونها بأقصى سرعة وينقلون من دقيقة إلى أخرى النتائج التي يصلون إليها إلى الذين يضعون ويخططون للمعركة وهم جالسون حول المائدة الرئيسية ، وإلى الضباط المشرفين على سير العملية من مقصورتهم التي أشرنا إليها .

وفي الناحية المقابلة (مقصورة) ثانية يحتلها عدد من ضباط الجيش الذين يقومون بنقل أعمال المدفعية المضادة للطائرات وقد كان لدينا منها تحت إشراف هذه القيادة مائة مدفع ، وكان من الضروري جداً أن توقف هذه المدفعية عن العمل لبضع ساعات أثناء الليل في بعض المناطق ، إذ أن طائراتنا المقاتلة تكون في ذلك الوقت قد اشتبكت في القتال مع العدو ، وكنت على علم بهذا النظام ، فقد أطلعني داودنج على عمل الجهاز كله قبل أن تبدأ الحرب بعام عندما زرته في ستاغور ، ولقد مر النظام بمراحل من التحسين والإصلاح منذ تلك الزيارة وصار الآن أداة حيوية من أدوات الحرب لا نظير لها في أي بلد من بلاد العالم . وقال لي بارك عندما نزلنا إلى المقر في الطابق الأسفل : « لا أستطيع التخمين عما يحدث اليوم ، كل شيء هادئ » .

ولم يكدمضي ربع ساعة على هذا الكلام ، حتى كان منظمو الخطة قد بدأ تحركهم ، إذ أبلغوا أنه حوالي أربعين طائرة تحركت للإغارة من المحطات الألمانية في منطقة ديب ، وأخذت المصاييح تضيء في الصف الأدنى مشيرة إلى الأسراب التي وقفت على أهبة الاستعداد ، ثم وصل خبر آخر يقول أن عشرين طائرة مغيرة أخرى تستعد ، ولم تمض عشر دقائق أخرى حتى صار من البين أن معركة قاسية في طريق الوقوع وبدأ الجو يحترق بطائرات من الجانبين . وتتابعت الإشارات ، أربعون طائرة ، ستون طائرة ، وكان اتجاه سير الطائرات المغيرة يبدو أمامنا على الخريطة من وقت إلى آخر في علامات توضح اتجاهاتها ، بينما كانت على اللوحة المواجهة تضيء المصاييح ، مشيرة إلى طيران أسرابنا بصورة متتابعة حتى لم يبق منها على الأرض على أهبة الاستعداد أكثر من عدد قليل ، وقد ظلت هذه المعارك الجوية التي يعلق عليها الكثير . أكثر من ساعة بعد وقوعها . وقد كان عدونا ما تزال لديه القوة التي مكنته من إرسال هذه الدفعات المتوالية من الطائرات إلى قلب الهجوم ، وكان على أسرابنا التي تم طيرانها كلها لتكون لها السيادة على الجو أن تعود إلى قواعدنا بعد سبعين أو

ثانين دقيقة من طيرانها لتزود بالوقود أو الذخائر ، ولو تمكن العدو في أثناء ذلك من حشد طائرات جديدة في حومة القتال لاستطاع تدمير العديد من طائراتنا وهي على الأرض ولذا فقد كان هدفنا الرئيسي دائماً أن نوجه أسرابنا بحيث لا يتجمع عدد كبير منها على الأرض في وقت واحد .

وسرعان ما أوضحت الأعضاء الحمراء أن معظم أسرابنا ملتحمة مع العدو ، وكنت أسمع همساً متصلاً بين القائمين بالتخطيط ، وهو يقلون الإشارات من مكان لآخر ليوضحوا تطور المعركة وتغير الأوضاع . وكان نائب مارشال الجو يصدر التعليمات العامة موجهاً طائرتة المقاتلة التي تترجم فوراً إلى تعليمات تفصيلية يوجهها ضابط شاب يجلس في وسط الغرفة إلى كل محطة من المحطات .

وكنت أجلس بجواره ، وسألت عن اسمه بعد سنوات ، فقيل لي : إنه اللورد ويلوي دي بروك . وقد التقيت به لثاني مرة في عام ١٩٤٧ عندما استجبت لدعوة من نادي الفرسان ، وكان عضواً في مجلس إدارته لمشاهدة حفلة سباق الدربي . وقد استغرب كثيراً لأنني لم أنس لقائي الأول به . وكان في ذلك الحين يصدر التعليمات والأوامر للأسراب الفردية بالتحليق في الجو والقيام بأعمال دورية على هدى من النتائج الظاهرة على الخريطة .

وكان مارشال الجو آنذاك يسير في الغرفة جيئة وذهاباً وهو يلحظ بعين حذره متنبهة كل حركة وخطوة في اللعبة ، مراقباً بنفسه رجال جهازه التنفيذي ومتدخللاً إذا اقتضى الأمر بكلمة حاسمة لتعزيز نقطة مهددة . ولم تمر لحظات حتى صارت جميع أسرابنا ملتحمة في المعركة ، ولم يبق سرب واحد في الاحتياطي ، وتحدث بارك في تلك الأثناء تلفوئياً إلى داودنج في ستاغور ، فطلب منه أن يضع ثلاثة أسراب من المجموعة الثانية عشرة تحت تصرفه احتياطاً للطوارئ ، وفيما إذا وقع هجوم رئيسي آخر ، خلال قيام أسرابه بالتزود بالسلح والذخائر ، وقد تم فعلاً هذا ، وكانت الأسراب ألزم ما تكون لحاية لندن ومطارات الطائرات المحاربة حيث إن المجموعة الحادية عشرة كانت قد استفذت كل قواها .

واستمر الضابط الشاب الذي اتخذ من هذه الأمور مسألة روتين في أعداد أوامره المنسقة مع تعليمات قائده العام، بلهجة هادئة، وسرعان ما انطلقت الأمراب الإضافية الثلاثة إلى ميدان المعركة مرة أخرى، وشعرت بقلق القائد الذي كان يصطنع الهدوء في وقته وراء مقعد مساعده، وكنت حتى هذه الأثناء أشهد التطورات صامتاً، فسألته: «هل تملك قوات أخرى احتياطية؟» فأجابني نائب المارشال: «كلا... لم يبق لدينا في الاحتياطي أي شيء». وقد كتب في تقريره فيما بعد أنني ظهرت حينذاك بمظهر المتجهم العبوس، وربما أكون حقاً قد قطبت جبينني، وعبس وجهي، إذ ماذا يكون الأمر لو فاجأت أربعون طائرة جديدة أو خمسون أسرابنا وهي على الأرض تتزود بالوقود لتعود إلى التحليق من جديد. إن الميزان حينذاك كان في كفة القدر، وكانت قدراتنا محدودة، والأخطار التي تتعرض لها جد كبيرة... ومرت خمس دقائق أخرى، وأغلب طائراتنا المحاربة تعود إلى الأرض لتزود بالوقود، ولم يكن في وسع مواردنا الحالية أن تضمن لها الحماية الجوية الكافية، وعرفنا أن طائرات العدو قد أخذت تعود من حيث أتت، وبدأت العلامات على الخريطة تظهر اتجاه الطائرات الألمانية نحو الشرق ولم يبد أثر لأي هجوم جديد، وبعد عشر دقائق من انتهاء المعركة بدأنا نرتقي السلم نحو سطح الأرض، وحينها وصلنا كانت صفارات الأمان تنوي في الأسماع منبهة بانتهاء الغارة.

وقال بارك: «أسعدنا يا سيدي، إنك رأيت المعركة، للحقيقة لقد كنا في الدقائق العشرين الأخيرة نكاد نخنق من المعلومات التي عجزنا أمامها، ولعلك يا سيدي شهدت القيود المفروضة على مواردنا الحالية، وقد تحملت الموارد اليوم أكثر مما نستطيع».

وسألته عما إذا كان شيء من نتائج المعركة قد وصل إليه، وذكرت أن الهجوم قد رد بصورة رائعة وفعالة، فأجاب بارك بأنه غير راض وأن طائراته لم تستطع أن تسقط العدد الذي كان يتوقعه، وكان من المستبعد أن يكون العدو قد اجتاح خطوطنا الدفاعية في كل مكان تقريباً، وقد سرت الأنباء بأن عشرات من القاذائف الألمانية قد استطاعت تحت حراسة المحاربات من التسلل إلى لندن، ولكن الصورة الصادقة عن النتائج لم تتضح تماماً، كما لم تصل إلينا أية أرقام نهائية عن الخسائر أو الأضرار.

وكانت الساعة قد شارفت على الرابعة والنصف من بعد الظهر، عندما رجعت إلى تشيكورز، فمضيت بعد ذلك إلى فيلوني، ويبدو أن المسرحية التي عايتها في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة قد أنهكت قواي حتى أنني لم أصبح من نومي إلا في الثامنة مساءً، وحينما دقت الجرس حضر لي جون مارتن رئيس أمناء ميري ومعه موجز أخبار المساء من جميع أنحاء العالم... كانت أخباره تدعو إلى القلق، فقد سار هذا الأمر سيرًا خاطئًا هنا، وتأخر ذاك هناك، والرد غير مقنع عن آخره، أو أن الأطلنطي قد ابتلع قطعة من قطعنا البحرية، ومضى جون مارتن يقول: «لإننا قد حققنا في الجو ما نهدف إليه، فقد أسقطنا مائة وثلاثًا وثمانين طائرة عدوة مقابل خسارتنا التي لم تبلغ الأربعين».

وبالرغم من أن المعلومات التي بلغتنا من العدو بعد الحرب تشير إلى أن خسائره في هذه المعركة لم تزد عن ست وخمسين طائرة، إلا أن الخامس عشر من أيلول كان قمة معركة بريطانيا حقًا، وبدأت قيادة طائراتنا القاذفة في تلك الليلة القيام بهجمات مركزة على كافة موانئ العدو من مولون إلى انتويرب، وقد أنزلت بالميناء الأخير خسائر بالغة، وهانحن نعلم الآن أن الفوهرر قد قرر في السابع عشر من أيلول تأجيل عملية «أسد البحر» إلى أجل غير مسمى، وتم أخيرًا في الثاني عشر من تشرين الأول تأجيل هذا الغزو نهائيًا إلى الربيع التالي.

وقرر هتلر في تموز عام ١٩٤١ تأجيل الغزو مرة أخرى حتى ربيع عام ١٩٤٢ عندما تكون الإغارة على روسيا قد انتهت... وكان هذا الحلم ضروريًا مع كل ما فيه من عبث واستحالة. وفي الثالث عشر من شباط عام ١٩٤٢ اجتمع الأميرال رايدر بهتلر للمرة الأخيرة للبحث في عملية «أسد البحر» واضطره أن يقرر العدول عنها نهائيًا، ومن ذلك يتضح أن الخامس عشر من أيلول عام ١٩٤٠ كان نقطة تطور هامة. ولاشك في أننا كنا متهوين في تقدير خسائر العدو، وفي الحقيقة كنا نسقط طائرتين أو ثلاثًا للعدو مقابل طائرة واحدة تهوى من طائراتنا، وفي هذا ما يكفيننا. وقد استطاعت قواتنا الجوية أن تحقق النصر، بدلاً من أن يحيق بها الدمار على يد العدو. وكان هناك عدد من الطيارين الجدد لا ينقطع، وبالرغم من الإصابات التي لحقت بمصانع طائراتنا. وهي العامل الفعال في قدرتنا على شن

حرب طويلة الأجل ، إلا مجرد إمدادنا بحاجاتنا العاجلة فحسب ، بالرغم من ذلك فلم تشل حركتها نهائياً ، وبقي عمالها من فنيين وغير فنيين وراء مخارطهم تزدحم بهم المصانع غير مبالين بالنيران التي توهج من حولهم ، فكانوا أشبه ما يكونون بالمدافع التي تواصل عملها دون انقطاع . وكان هوبرت موريسون في وزارة التموين يشجع الجميع على مواصلة الجهد ، كل في حدود عمله ، وكان يحفزهم بكلمة : « هيا ، إلى العمل » فلا يتمتع أحد عن الإسراع بتلبية ندائه ، وقامت قيادة مقاومة الطائرات المغيرة برئاسة الجنرال بايل ، ببذل كل عون مستطاع إلى معركة الدفاع الجوي ، لكن اشتراكها الرئيسي كان متأخراً ، أما فرقة المراقبة فكانت تواصل عملها ليل نهار لا تعرف التعب ويدون أن يتأثر إخلاصها . أما قيادة الطائرات المقاتلة التي تعتمد عليها المقاومة كل الاعتماد ، وقد أفنعتنا بقدرتها على الصمود المتواصل أشهراً عديدة أمام الإجهاد المستمر ، حقاً لقد أدى كل فريق واجبه أحسن الأداء .

واستمرت أرواح طيارينا وشجاعتهم ، وهم يخوضون غمار المعركة في منتهى القوة والروعة ، وهكذا أنقذت بريطانيا ، وأصبح على أن أقف في مجلس العموم وأقول : « لم يسبق قط في تاريخ الصراع الإنساني أن أحسن مثل هذا العدد الضخم من الناس ما في أعناقهم من دين جسيم نحو عدد قليل من الناس مثلما نحس به جميعاً اليوم نحو طيارينا » .

الفصل التاسع

الحرب الخاطفة



لاشك في أن الآراء التي تروى عن الهجوم الجوي الألماني على بريطانيا هي آراء متناقضة ذات أهداف متباينة ، وخطط مبتورة ، ففي خلال هذه الأشهر كلها ، كان يقلق راحتنا ، ليتخذ أسلوبًا جديدًا ، ولكن هذه المراحل جميعها متداخلة وليس في المستطاع الفصل بينها بتواريخ دقيقة محددة. فالمرحلة الواحدة منها تسلم إلى المرحلة الثانية وتتداخل فيها ، وكانت العمليات الأولى تهدف إلى الانتحام مع قواتنا الجوية في معارك فوق المانش والساحل الجنوبي ثم تحول القتال إلى سماء المقاطعات الجنوبية وخصوصًا في كنت وساسكس حيث أراد العدوان يحطم جهاز قوتنا الجوية ، ثم أخذ يتجه نحو لندن قليلاً قليلاً حتى أصبح أخيراً يخلق في قلب سمائها حيث أضحت المدينة هدفه الرئيسي ، وأخيراً عندما أحرزت لندن النصر ، انتقل القتال إلى سماء المدن في الأقاليم وإلى شريان الحياة البريطاني خلال الأطلنطي عن طريق ميرس وكلايد .

وقد شهدنا الهجمات الألمانية العنيفة على مطارات الساحل الجنوبي في الأسبوع الأخير من شهر آب . والأسبوع الأول من شهر أيلول ، وفي السابع منه تسلم غورنغ قيادة المعركة الجوية وجعل الغارات ليلية ، ونقل مكان المعركة من مطارات «كنت وساسكس» إلى عمارات لندن وأبنيتها ، أما الغارات النهارية فلم تنقطع وإن كانت ثانوية ، حدث هذا باستثناء غارة نهارية ضخمة أخرى ، لكن الطابع العام للهجوم الألماني قد تغير تمامًا ، وقصفت لندن بصفة متواصلة لمدة سبع وخمسين ليلة دون انقطاع مما جعل أكبر مدن العالم تواجه تجربة خطيرة بل محنة قاسية ، ولم يكن في مقدور أي إنسان أن يتنبأ بالتأثير ، ولم يسبق قط أن تعرضت هذه البلدان لمثل هذا القصف الجوي الراعد ، كما لم يسبق أبدًا أن واجه العدد الضخم من الأسراب والمشكلات والمصاعب التي أحدثها هذا القصف الرهيب ونكباته .

وقد قمنا بغارة على برلين ردًا على هذه الغارات المتواصلة على لندن في نهاية شهر آب ، بالرغم من المسافات الشاسعة التي كان على طائراتنا أن تتجاوزها ، ولم تكن مثل هذه الغارة شيئًا مذكورًا بالنسبة للغارات الألمانية المركزة على لندن والمطارات القريبة الفرنسية والبلجيكية . ولكن وزارة الحرب رأت نفسها في وضع يحتم عليها التآثر ورفعًا للروح المعنوية ، وتأكيذاً لتحدينا للعدو ، وكنت على ثقة من صحة هذا الرأي وجدواه ، إذ أي أعلم أن هتلر

يثر اضطرابه صمود بريطانيا وإظهار قوتها ، وإن كان هتلر في أعماق نفسه يعجب بشعبنا ، وبالطبع وافته الفرصة حين قمنا بغارتنا الثأرية على برلين فأعلن ما انطوت عليه نفسه من رغبة في تحويل لندن وغيرها من المدن البريطانية إلى أطلال ورسوم حين صرح في الرابع من أيلول قائلاً: «إن هجومهم على مدنا سيدفعنا إلى إزالة مدنها من الوجود» .

وقد بذل هتلر أقصى ما يستطيع من جهد .

وأسهم في الغارات الليلية المتواصلة على لندن بين ٧ أيلول و٣ تشرين الأول أكثر من مائتي طائرة في كل غارة ، وكانت الهجمات التمهيذية العديدة التي نزلت بمدنا الإقليمية في الأسابيع الثلاثة الماضية قد فرضت علينا أن نوزع مدفعيتنا المضادة للطائرات بصورة فعلية ، وعندما أصبحت لندن الهدف الرئيسي للمرة الأولى لم تكن تحتوي على أكثر من اثنين وتسعين مدفعاً ، وأبنا أن الأجدى ترك الجو حراً لطائراتنا الليلية المقاتلة تحت قيادة المجموعة الحادية عشرة ، وكان من بين تلك الطائرات ستة أسراب من طراز «بلنهايم» وطراز «دينايانت» وكان الاشتباك الليلي ما يزال في بدايته ولذلك فإن خسائر العدو كانت طفيفة ومحدودة ...

وهكذا استمرت مدافعنا المضادة متوقفة عن العمل في الليالي الثلاث الأولى ، وبالرغم من عدم دقة الوسائل التي تستخدمها المدافع المضادة ، فقد اضطرننا ضعف طائراتنا الليلية المحاربة ومدى ما نواجهه من مشاكل في حاجة إلى الحل ، اضطرننا كل أولئك إلى أن نعطي لرجال هذه المدفعية الحرية التامة في إطلاق نيرانهم على أهداف غير واضحة متخذين أي أسلوب يختارونه لتحديد الهدف ودقته ... وبعد ثمان وأربعين ساعة ، تمكن الجنرال بايل ، المشرف على قيادة المدافع المضادة من زيادة عددها في العاصمة بجلب عدد من مدن الأقاليم ، وهكذا أخلت السماء من طائراتنا المقاتلة ، وقامت المدافع المضادة بمهمة الدفاع . ومكث أهل لندن ، ثلاث ليال متعاقبة ، ملازمين مساكنهم أو معسكراتهم غير المعدة ، محتملين أعنف الغارات حتى كانت ليلة العاشر من أيلول حين انطلقت مدافعنا المضادة فجأة تضيء لها السبيل المصابيح الكاشفة المتوهجة ، وبالرغم من دويها العظيم فلم تنزل بالعلو أضراراً جسيمة إلا أنها أعلنت الروح المعنوية بين أبناء العاصمة ، وتمشت الحماسة في

صدر كل إنسان لمجرد الإحساس بأننا نرد الصاع صاعين، واستمرت المدافع المضادة منذ ذلك الوقت تتابع إطلاق نيرانها بصفة منتظمة ومتواصلة، ومهد التمرين والاختراع والحاح الحاجة إلى زيادة التصويب دقة، وأخذ عدد الطائرات المصابة من سلاح العدو يتكاثر ليلة بعد أخرى، وكانت المدفعية تلوذ بالصمت أحياناً حين تنطلق الطائرات الليلية المقاتلة لتخوض غمار المعركة، بعد أن تحسنت أساليبها، وظلت الغارات الليلية بل النهارية متواصلة إلى الحد الذي كانت تشن فيه هذه الغارات مجموعات صغيرة من الطائرات بل طائرة واحدة أحياناً، وطالما أطلقت صفارات الإنذار، ودوي صوتهما فترات متلاحقة طيلة ساعات اليوم بأكمله، ولكن أهل لندن الذين يبلغون في ذلك الوقت سبعة ملايين قد رتبوا حياتهم على وضع يلائم تلك الأحوال الشاذة.



ولتنوير القراء ورغبة مني في الترفيه قليلاً عنهم، والتخفيف من وقع هذه التجربة القاسية على مشاعرهم، أورد هنا بعض ملاحظاتي الشخصية عن غارات لندن، متيقناً أن لدى الآلاف من أبناء العاصمة كثيراً من الحكايات التي تفوق في إثارتها هذه الملاحظات.

فعندما أخذت طائرات العدو في قصف جو العاصمة كنا نرى أن نواجه هذه الغارات بالتهوين وعدم الاكتراث، فاستمر كل إنسان في حيي «الوست أند» يعمل ويلهو، يتام ويأكل كما تعود، دون أن يغير شيئاً من مجرى حياته العادية، فالمسرح مزدحم بالمشاهدين والشوارع المظلمة تموج بالمارة، ولعل هذا الموقف كان رد فعل صائب للرعب الذي بدأ في العناصر الانهزامية في باريس، عندما تعرضت المدينة لأول هجوم جوي في شهر أيار. وأذكر أنني كنت على مائدة العشاء ذات ليلة مع صحبة خيرة، عندما حدثت غارات مستمرة قوية، وكانت نوافذ قصر «ستورانواي» - حيث كنا نجلس - تطل على -جرين بارك- الذي أنارته أضواء المدافع المضادة وانفجار القذائف المضادة، وهبى لي أننا كنا نغامر بأرواحنا، دون ما ضرورة أو مبرر. وبعد أن تناولنا العشاء انتقلنا إلى عمارة شركة الصناعات الكيميائية الإمبراطورية وهي تطل على الجسر، وكان منظر النهر يأخذ بنفوسنا ونحن نطل عليه من الشرفات العالية ورأينا على الأقل عشر حرائق تشتعل في الجانب الجنوبي، وبينما كنا نقف

تساقط عدد من القنابل الثقيلة ، انفجرت إحداها بالقرب مني فدفعتني صديق إلى وراء عمود حجري راسخ القواعد ، وأكدت لي هذه الحادثة الفكرة التي خطرت ببالي وهي أن نكيف حياتنا مع الوضع الجديد ، وأن نفرض على متع حياتنا كثيرًا من القيود .

وسقطت القنابل مرات عديدة على مجموعة من الأبنية الحكومية المحيطة بالبيت الأبيض ، على أن دور الحكومة في «داوننج ستريت» قام ببنائها قبل مائتين وخمسين عامًا المتعهد الاستغالي الذي مازال اسمه محفورًا على أسس ضعيفة واهنة ، وخلال أزمة ميونيخ أقيمت المخابى لسكان رقيم (١٠ و ١١) من هذا الشارع ، كما دعمت الأسقف بأعمدة جديدة قوية ، وأنشئت سقوف أخرى داخلية ، وكان الظن أن هذه الأسقف الجديدة تستطيع أن تصعد فيما إذا نسفت الأبنية أو انهارت ، لكنها لا تحتمل على أية حال الإصابة المباشرة ، وقد تم في الأسبوعين الأخيرين من أيلول نقل مقر رئاسة الوزارة إلى مكاتب جديدة أكثر تحملاً وصلابة ، مطلة على ميدان «سانت جيمس» وكنا ندعو هذه الأبنية باسم (الملحق) وقد ظللت مع زوجتي خلال الأيام الباقية من الحرب في هذا البناء ، نعم بالهدوء والراحة ، وكنا نوقن أن هذه الأبنية القوية المشيدة من الأسمنت في وسعها أن تصد الحديد والفولاذ وعلقت زوجتي عددًا من صورنا في غرفة الاستقبال التي كنت أقترح عليها أن تظل بلا صور ، ولكنها نفذت فكرتها ، وتغلبت علي بالطبع ، وساعدتها الأحداث ، وكان منظر لندن رائع الجمال حين نراها من سطح (الملحق) على مقربة من القبة في الليالي الساجية ، وقد هيؤوا لي مكانًا على السطح ، فوقه سقف متين ، كي أتمكن في ضوء القمر من مراقبة الغارات الجوية ، وتحت هذا المكان أقيمت غرفة الحرب حيث زودت ببعض الأثاث الصالح للنوم ، وحيث لا تجد القنابل إليها منفذًا . وكانت القنابل في تلك الأيام أصغر بالطبع من القنابل التي طالعنا في المراحل الأخرى من الحرب ، وبالرغم من ذلك كانت حياتنا في داوننج ستريت في الفترة التي سبقت بناء هذا المسكن الجديد مثيرة للغاية ، إذ كان كل منا يحس وكأنه قد دفع به إلى مركز قيادة إحدى الفرق في ميدان القتال .

ولست أنسى مساء يوم السابع عشر من تشرين الأول حيث كنا نتناول عشاءنا في غرفة الحديقة في داوننج ستريت رقم ١٠ عندما انطلقت الغارة الليلية المألوفة ، وكان

يشار كني العشاء أرشي سنكلير وأوليفر ليتلتون . وكانت النوافذ القولاذية مغلقة ، وحدثت بعض الانفجارات المدوية بالقرب منا ، وسقطت قبلة على مكان استعراض حرس الفرسان ، وهو لا يبعد عنا بأكثر من مائة ياردة ، وكان دويها هائلاً ، وعلى حين غرة شعرت بهاتف سماوي ... ينهني إلى الخطر المماثل . فالمطبخ عال ومكشوف وبه نافذة زجاجية يبلغ طولها خمسة وعشرين متراً ، والساقى والفتاة يقدمان لنا العشاء دون تأثر بدوي الانفجارات ، وخلف النافذة توجد السيدة لاندمير الطباخة وسائر الخدم أن يسرعوا إلى المخبأ ، ثم عدت إلى مكاني بالمائدة ، وأمرت الساقى أن يحمل العشاء إلى غرفة المائدة مباشرة ، وطلبت إلى الطباخة وسائر الخدم أن يسرعوا إلى المخبأ ، ثم عدت إلى مكاني بالمائدة ، فلم تمر ثلاث دقائق حتى فوجئنا بدوي هائل وأصوات دمار جد قريبة وشعرنا بهزة عنيفة مما يؤكد أن البيت نفسه قد أصيب وجاء مفتش المباحث الملحق بخدمتي ليخبرني بفداحة الخسائر ، فقد أصيب المطبخ ، ومخزن التموين ومكاتب القسم المالي ...

وذهبنا إلى المطبخ لنشاهد ما جرى ، فلم نر إلا أنقاضاً ! فقد سقطت القبلة على بعد خمسين ياردة على القسم المالي ، فدمرت كل ما في المطبخ ، وتحول إلى أنقاض ، وطمشت النافذة الزجاجية الكبيرة وتطايرت شظاياها في كل جوانب المطبخ ، ولو ظل به أحد إلى أن حدث الانفجار لغدا أشلاء مبعثرة ، ولا شك في أن الهاتف السعيد الذي خطرت لي جاء في وقته المناسب . أما مخبأ القسم المالي في الساحة فقد أصابته قذيفة مباشرة فتناثرت أجزاؤه ، واستشهد تحت أنقاضه أربعة حراس كانوا يقومون ليلاً بأعمال الحراسة ، وعلى أية حال فلم يكن في مقدورنا أن نحدد عدد المفقودين ، فقد دفن الجميع تحت ركام الأنقاض .. ولما كانت الغارة متواصلة ، فقد لبسنا خوذنا وارتقينا الدرج إلى سطح الملحق لنشاهد المنظر كاملاً ، وقبل ذهابي لم أستطع مقاومة الرغبة في أن أغري الطباخة والخدم بالتوجه إلى المطبخ ، وبالطبع أصيبوا بالهلع من رؤية مكانهم وقد استحال إلى ركام . وصحبت أرشي إلى سطح الملحق ، وكان المساء ساكناً والجو صافياً ، وكانت لندن بكاملها تجاهنا ، ورأيت معظم حي (بال مال) تأتي عليه النيران ، وعلى أية حال كانت ثمة خمسة حرائق مضطربة في الجانب المقابل من المدينة على طول النهر ، لكن (بال مال) كان طعمة للنيران ... ثم أخذت الغارة

تتراح غمتها شيئاً فشيئاً إلى أن دويت صفارة الأمان ، وإن ظلت الحرائق مشبوبة في المدينة ... ونزلت إلى مسكني الجديد في الطابق الأول من الملحق فوجدت الضابط دايفيد فارجسون ، رئيس مراقبي مجلس العموم ، والذي يقطن في نادي كارلتون ، وقد أخبرنا أن دار النادي قد تهدمت ، وكنا قد تخيلنا ذلك بأنفسنا بمجرد أن شاهدنا اندلاع النيران ، وكان فارجسون في النادي عندما دوي الانفجار ، وحوالي مائتين وخمسين من الأعضاء والموظفين ، وقد أحدث الانفجار قذيفة ضخمة مباشرة ، أطاحت بواجهة المدخل من جهة شارع (بال مال). وكان الأعضاء يزدحمون في قاعة التدخين ، فهماوى السقف عليهم ، وعندما شاهدت الانقراض في اليوم التالي أخذتني الدهشة لأن أحداً من كانوا في القاعة لم يقتل ، وإنما نجا الجميع رغم الانقراض والدخان وكأنها حدثت معجزة ، ولئن أصيب بعضهم بجروح إلا أنهم نجوا من الموت جميعاً. وعندما سعت بالحقائق مفصلة إلى مجلس العموم ، قال زملاؤنا الوزراء من حزب العمال مازحين: «إن الشيطان لا يمس أنصاره بسوء». وقد انتشل المستر كانتان هونغ والده ، وهو وزير مالية سابق ، انتشله من بين الركاب ، كما حمل إيناس والده انخيزاس في حرب طروادة . ولم يجد فارجسون مسكناً يأوي إليه في تلك الليلة ، فأعدنا له سريراً في الطابق الأرضي من الملحق ، لقد كانت هذه الليلة بصورة عامة مثيرة للفرح ، وكان من الغريب حقاً بالنظر إلى إصابات المباني ألا يزيد عدد القتلى عن خمسمائة شخص وعدد الجرحى عن ألفين أو ثلاثة آلاف .

ومضيت للمرة الثانية إلى زيارة رامسغيت ، وشن علينا الهجوم فمضوا بي إلى النفق الكبير الذي يقيم فيه عدد كبير من الناس بصفة مستمرة ، وعندما غادرنا النفق بعد ربع ساعة تقريباً ، بدأنا نتأمل الحرائب التي ما زال يتصاعد الدخان من جوانبها ، وقد تهدم فندق صغير دون أن يصاب أحد من نزلائه بأذى على الرغم من تحوله إلى تل من الركاب والحجارة تتناثر خلالها قطع الأثاث المحطم ، وأدوات المطبخ ، وراعنا صاحب الفندق وزوجته والطباخون والخدم ، وهم يولولون حول فجيعتهم في مصدر رزقهم وماوى حياتهم ... وعندئذ قررت بكل مالي من نفوذ وإمكانيات أن أصدر أمراً بالتعويض الفوري الكامل ، وعندما عدت بالقطار أملت على وزير المالية كنغزلي وود الرسالة التي توضح هذا المبدأ الهام

وهو أن كافة الخسائر التي تحدثها الغارات يجب أن تكون على مسؤولية الدولة ، وأن الحكومة تلزم بتعويضها حتى لا يقع عبؤها على كاهل الذين يصابون في بيوتهم أو أعمالهم ، بل على كاهل الشعب كله تحقيقاً للعدالة فقد أثار هذا القرار فزع كنگزلي وود بيا ينطوي عليه من التزام لا نهائي . ولكني أكدت له ضرورة القيام بهذا الإجراء ، ولم يمض أسبوعان على ذلك حتى كانت وزارة المالية قد جهزت مشروع التأمين الذي قدر له أن يقوم بدور فعال في حياتنا . . . وقد واجهت وزارة الخزانة مشاعر مضطربة ومقاومة إزاء هذا المشروع ، فقد ظنت في بادئ الأمر أنه سيستنزف الخزانة حتى الإفلاس ، ولكن بعد أيار عام ١٩٤١ ، حيث توقفت الغارات الجوية أكثر من ثلاث سنين ، أخذت المكاسب تنهال على خزانة الوزارة بفضل هذا المشروع الذي اعتبرته أنا في حينه عملاً من أعمال التوفير والبراعة السياسية ، وفي أواخر مراحل الحرب عندما أخذنا بغارات الصواريخ والقذائف الموجهة صعدت الأرقام ثانية إلى جانب الخسارة وتكبنا ما لا يقل عن ثمانمائة وتسعين مليوناً من الجنيهات في شؤون التعويض وبالرغم من كل ذلك فقد كنت غير مستاء لما يحدث .



وأصبح من المحتم في هذه الفترة الجديدة من الحرب ، أن نستفيد بغاية ما نستطيع من العمل ، ليس في المصانع فقط بل في الدوائر الحكومية بلندن كذلك ، بالنسبة لتعرضها لهجوم جوي مستمر ليل نهار ، فكان الموظفون في البداية عندما تدوي صفارات الإنذار يسرعون إلى الطوابق الأرضية حيث تستخدم كملاجئ للوقاية ، وكان يثير زهوياً أن تتم هذه العملية في هدوء ونجاح ، وفي أحوال كثيرة لم تكن الغارة تعني أكثر من هجوم من بضعة طائرات أو حتى طائرة واحدة ، وطالما عوقت هذه الطائرات فلم تصل إلى العاصمة ، وهكذا يتوقف العمل في جميع المصالح الحكومية الإدارية والتنفيذية بسبب غارة صغيرة نافهة . لذلك فقد فكرت في أن يستخدم الإنذار على مرحلتين . مرحلة التنبيه المبدئي ومرحلة الخطر الفعلي الذي لا تطلق صفاراته إلا حين يحل الخطر ويصبح في حالة مداومة فعلية ، فقبل اقتراحني ونسقت الخطة على أساسه .

وكان البرلمان أيضاً في أشد الحاجة إلى الإرشاد بالنظر إلى مواصلة عمله في تلك الأيام

المليئة بالخطر، وكان أعضاء المجلس يوقنون بأن واجبهم يحتم عليهم أن يكونوا مثلاً للشعب، ولا شك في أن الحق كان بجانبهم في هذا اليقين، ولكن كان على أن أوجه انتباههم إلى ضرورة اتخاذ الحيلة والحذر نظرًا إلى الأخطار المحدقة، واستطعت إقناعهم في جلسة سرية بوجوب اتخاذ الإجراءات الوقائية الضرورية، فانفقوا على كتمان مواعيد الجلسات، وإيقاف النقاش حين تدوي صفارات الإنذار، وصاروا يخفون بنظام إلى المخاييم المفعمة والتي لم تكن معلقة كما يجب.

ولا شك في أن مواصلة البرلمان البريطاني أداء مهمته وتصريف الشؤون في تلك الآونة يعتبر صفحة مشرقة في تاريخه وذيوع شهرته، والنواب عادة أكثر الناس حساسية بالنسبة لمهامهم في هذه الظروف، فكان من اليسير على أي إنسان ألا يحسن الحكم على حقيقة تصرفاتهم، فعندما تنزل الأضرار بإحدى القاعات كانوا يتقلون إلى قاعة أخرى، وكنت أواجه صعوبات جمع في إقناعهم بضرورة الأخذ بوسائل الحكمة والموعظة الحسنة لكن جميع النواب في هذه الفترة قد نهجوا نهجًا ينم عن التعقل ووزن الأمور والحرص على الكرامة. ومن حسن الطالع أن الانفجار الذي حدث بعد عدة شهور وأطاح بقاعة مجلس الشيوخ، حدث ليلاً حينما كانت القاعة خالية من أي إنسان.

ولقد أعطانا تفوقنا على الغارات النهارية إحساسًا بالراحة والهدوء النفسي، أما في خلال الشهور الأولى فقد سيطر على الشعور بالقلق الذي يتمتع بحقوق السيادة، والذي انتخب بطريقة عادلة ونزيهة وهي الاقتراع العام، وفي يده دائمًا القدرة على إسقاط الحكومة، ولكنه الآن في أقصى الظروف كان يدعمها ويسند مركزها، وهكذا كتب النصر لبرلماننا.

وإني لا أعتقد أن أي دكتاتور قد حاز من السلطات الفعلية في بلاده مثل تلك التي خولت لوزارة الحرية البريطانية، وكنا عندما نعبر عما نريده يعطينا نواب الشعب تأييدهم فيطيع الناس رغباتنا بسعة أفق وحرية، وعلى الرغم من ذلك لم نحاول مرة مصادرة الحريات وإن ظل الناقدون بأنفسهم يرجحون المصلحة القومية على أي شيء آخر. وإذا تحدانا التقاد رأينا المجلسين يصوتان ضدهم بأغلبية ساحقة، وإذا ما قورن هذا بأساليب الدول الجماعية، بدا لنا أن برلماننا كان يخولنا هذه السلطة ضد الناقدين بلا أدنى اضطهاد أو

كبت أو إحياء أو استعمال للشرطة وأجهزة الأمن السرية، ولا شك في أن هذا كان يثير زهونا واعتزازنا، ويؤكد لنا أن الديمقراطية البرلمانية أو على الأصح ما يحق أن نسميه السلوك البريطاني في الحياة العامة قد استطاع الصمود والانتصار والبقاء بالرغم من كل المحن القاسية، ولم يستطع التهديد بالإبادة وإفناء أعضاء برلماننا أن يهرب أحدًا، وكان من حسن الحظ أن هذا التهديد لم يتخذ ولم تحدث الإبادة.



وحل منتصف شهر أيلول، ففاجأنا العدو باستعمال نوع جديد ومدمر من وسائل الحرب علينا، فقد بدأت الطائرات تلقي بقذائف تفجر بعد مرور بعض الوقت مما وضعنا أمام مشكلة حساسة وغريبة، وكثيرًا ما سارت في وجوهنا مسافات شاسعة من السلك الحديدية، فنخترق الطرقات الهامة، والسيل الموصلة للمصانع الخيرية والمطارات والمؤسسات، وحظر علينا دخولها في أوقات احتياجنا إليها، إذ فرض علينا أولاً أن نتعقب هذه القنابل لنفجرها أو نلتفها، وكانت هذه عملية خطيرة وخاصة في بداية الأمر، عندما اضطررنا إلى أن نتعلم الوسائل والأساليب بواسطة عمليات من التجارب الموضحة.

وقد تكلمت سابقًا عن حكاية الألكام الممغنطة، أما هذه القذائف المتفجرة من تلقائها فقد أصبحت متشرة، وصارت مشكلة تحتاج إلى التفكير، وقد وجهت اهتمامي إلى القنابل المؤقتة منذ عام ١٩١٨ عندما استعملها الألمان لأول مرة ضدنا بصورة شاملة ليرغمونا على عدم استخدام القطارات في زحفنا على ألمانيا، وكنت قد اقترحت أن نستخدمها في النزوح وقناة كيل «منطقة الراين»، ولا شك في أن هذا السلاح من أكثر أسلحة الحرب فعالية بالنسبة إلى ما يشيعه من التوجس والقلق والارتباب، وهكذا دار الزمن لنذوق نحن طعم هذا السلاح، فأنشأنا هيئة خاصة للتصرف في شأنه، وعهدنا إلى مجموعات خاصة شكلت في كل مدينة وبلدة ومقاطعة لتتبعه، وسارع المتطوعون يبذلون جهودهم لمكافحة هذه القنابل، وتكونت فرق كان بعض منها حسن الحظ وكان للآخرى سوء المصير، وقد استطاع رجال من هذه الفرق النجاة من العاقبة الويلة لهذا السلاح، والعيش إلى نهاية الحرب، بينما نج البعض الآخر من التجربة العاشرة أو العشرين أو الثلاثين أو الأربعين قبل أن يلقوا حتفهم،

و كنت حين أشاهد أعضاء هذه الفرق أينما ذهبت في رحلاتي وتجولاتي ، أرى وجوههم مغيرة تمامًا لكل الوجوه التي أعرفها أو رأيتها ، بالرغم مما يتحلون به من شجاعة وتفان وصبر ، فعلى هذه الوجوه تبدو واضحة ظلال الشحوب ، ومعالم الإجهاد ، وسماته الضخمة والجهد ، فضلاً عن بريق العيون وزرقة الوجوه وجفاف الشفاه ، فإذا ما تذكرنا الأيام المضنية التي عشناها ، فيجب ألا نستعمل كثيراً كلمة (أوقات كئيبة) إذ تكاد الكآبة كلها تخص أفراد هذه الفرق وحدهم .

و واجب علي أن أسرد هنا ما حدث لإحدى هذه المجموعات كمثال لما كانت تواجهه سائر المجموعات ، كانت هذه المجموعة تضم اللورد ساقولك وسكرتيرته وسائقه العجوز ، وكانوا يسمون أنفسهم «الثالوث المقدس» وقد شاعت أخبار جرأتهم ، وذاع الكثير عن شجاعتهم ، وقد استطاعوا أن يتخلصوا من أربع وثلاثين قبلة لم تفجر ، بروح طيبة مرحة ، لكن القبلة الخامسة والعشرين قد ثارت لزملائها ، فانفجر معها اللورد وسكرتيرته وسائقه وثالوثه المقدس ولكن الإيمان يملأ نفوسنا بأن أرواحهم عرفت مستودعها الأمين في دار الخلود ...

وقد توصلنا بفضل كل فرد في هذه المجموعات ، وبالتضحيات النبيلة التي بذلوها إلى أن نتحكم في هذا الخطر الجديد .



من الشاق علينا أن نعقد مقارنة بين الاختبار القاسي الذي مر به سكان لندن في شتاء عام ١٩٤٠ - ١٩٤١ ، وبين الاختبارات التي عاناها الألمان في سنوات الحرب الثلاث الأخيرة ، فقد غدت القنابل أشد هولاً والغارات أكثر قسوة ، ولكن من ناحية ثانية - كان الإعداد الطويل ، وما اشتهر عن الألمان من دقة قد ساعدهم على إنشاء وحدات كاملة من الملاجئ المحصنة ضد القنابل ، وكان يفرض على كل ألماني الالتجاء عند قيام الغارات كعمل عادي رتيب ، وعندما اجتزنا ألمانيا في النهاية شاهدنا أنها قد أصبحت بكاملها خرائب وأطلالاً ، ولكتنا شاهدنا أيضاً عمارات مشيدة ما تزال صامدة على الأرض وملاجئ حصينة كان السكان ينامون فيها كل ليلة بالرغم من تساقط دورهم وخراب كل ما يملكونه

على سطح الأرض، أما في لندن، فعلى الرغم من أن الغارات كانت أقل قسوة، إلا أن وسائل التأمين والوقاية كانت أبداً تطوراً فإذا استثنينا الأقيسة لم نجد عندنا أماكن للوقاية والتأمين. حقاً لقد كان ثمة طوابق أرضية، وطوابق تحت الأرض تستطيع أن تحجبه الضربات المباشرة، ولكن عددها كان قليلاً للدرجة ملحوظة وكانت الغالبية من سكان لندن يمضون الليل في الخنادق الخاصة ببيوتهم تحت سبل من قذائف العدو، مستمتعين بما اشتهر عن الإنكليز من حبههم للاسترخاء بعد يوم من العمل المثمر الجاد، ولم تكن ثمة أية وسائل للوقاية إلا من شظايا القذائف لكن الانهيار النفسي لم يكن شيئاً بجانب الاحتمال البدني، وحقيقة لو كانت قذائف عام ١٩٤٣ قد أسقطت على لندن في عام ١٩٤٠ لانهينا إلى وضع قد دمر فيه كل تنظيم بشري، ولكن لكل شيء وقته المعين، ونسبه المحدودة، ولا يملك إنسان القول بأن لندن التي لم تجرب الخضوع قط، كانت محصنة ضد الاستسلام.

ولم تكن الحكومة قد شيدت قبل الحرب أو في الفترة السلبية الأولى التي مرت في مطلعها، أية أماكن محصنة ضد القنابل تستطيع هيتها المركزية أن تلجأ إليها لمواصلة الأعمال، فقد درست خطط لتحويل العاصمة عن مدينة لندن، وفعلاً انتقلت فروع بأكملها من جميع الوزارات والدوائر إلى هاروغيت وشبلتيفهام وغيرها، واستولت السلطات على المساكن الكافية في مناطق شاسعة لسكني جميع الوزراء وكبار الموظفين حين الانسحاب من لندن، أما في هذه الآونة وطائرات العدو تواصل عدوانها فقد انعقد عزم الحكومة والبرلمان ورغبتها الأكيدة على البقاء في لندن دون مناقشة، وكنت أشاركهما نفس هذه المشاعر، وكنت مثل غيري يخيل لي أن الدمار سيكون عاقماً، بحيث يصير الانتقال وتوزيع الأعمال أمراً محتتماً، ولكن بالنسبة إلى ما حدث بالفعل، فقد امتلأ بعكس هذا الإحساس، وظللنا في تلك الأشهر نعقد اجتماعاتنا الوزارية ليلاً في غرفة الحرب في الطابق الأسفل. ولم أكن أتخيل مدى ما يتحملة المستر تشمبرلين من عناء هذا السير بالنظر إلى العملية الجراحية التي أجريت له، ولكن لم يستطع أي شيء أن يقعد به عن هذه الاجتماعات التي كان يتسم فيها بكثير من الهدوء البارد والتصميم الأكيد، والتي كانت آخر ما شهده من اجتماعات.

ونظرت ذات مساء في أواخر شهر أيلول عام ١٩٤٠ من باب داوننغ ستريت الذي

يطل على الطريق ، فشاهدت العمال يقومون بوضع أكياس من الرمال تجاه النوافذ المنخفضة من بناء وزارة الخارجية المواجهة لنا ، وسألتهم عما يقومون به ، فقبل لي أن المستر نقيل تشمبرلين في أمس الحاجة إلى العلاج من حين لآخر بعد العملية التي أجريت له ، وكان من غير الميسور أن يقوم بهذا العلاج في ملجأ داوونج ستريت رقم ١١ لأن عشرين شخصاً على الأقل يتجمعون فيه أثناء قيام الغارات ، ولذلك فقد تم تهيئة ملجأ صغير خاص به وظل حريصاً على عاداته اليومية ، لا بساً خير ثيابه ، بادياً غاية في الأناقة وانسجام الهندام . وكان هنا كله أكثر مما في طوقه ، ولذلك قررت أن استخدم سلطاتي فذهبت إلى الطريق الممتدين رقيم ١٠ و ١١ وحين رأيت السيدة تشمبرلين قلت لها : « ينبغي ألا يوجد هنا في هذه الظروف ، ويجب أن تتبعتدي به حتى تعاوده الصحة وسأرسل إليه يومياً بالأبناء » . وذهبت السيدة للقاء زوجها ، وبعد ساعة أرسلت لي تقول : « لقد أبدى استعداده لتنفيذ مشيتك .. سرحل الليلة » ولم ألتق به ثانية ، ولكنني على يقين أنه كان يرغب في الموت أثناء قيامه بواجبه ولكن القدر شاء غير ذلك .

ونتيجة لوفاة المستر تشمبرلين حدثت بعض التغيرات الوزارية الهامة ، فقد أظهر المستر هربرت موريسون نشاطاً ملموساً كوزير للتأمين ، كما قابل السير جون أندرسن الهجمات على لندن بإدارة في منتهى الصمود والكفافية ، وتبين لي في مطلع تشرين الأول أن الهجوم المتواصل على أعظم مدن العالم كان من القسوة والعنف بحيث خلف الكثير من المشاكل السياسية والاجتماعية لدى أهل المدينة الذين واجهوا أقسى الظروف ، مما يفرض علينا أن نعهد إلى برلاني حازم صاحب خبرة وتجربة في شؤون وزارة الداخلية التي أصبحت في تلك الأونة وزارة الأمن الداخلي كذلك ، فلندن هي التي تعاني قسوة الغارات ، وهوبرت موريسون واحد من أهلها ، وهو ملم بكل جانب من جوانب إدارتها ، وكانت له خبرة لا تبارى في حكم مدينة لندن . إذ كان رئيساً فيما سبق لمجلس مقاطعتها . وكان الشخصية البارزة في كافة أمورها وكننت في ذات الوقت في احتياج للسير جون أندرسن ليمثل الحكومة في مجلس الملك الخاص ، ليقوم كما يعمل عليه منصبه الجديد بالإشراف على الكثير من الأمور الداخلية في مجال أوسع باعتباره رئيساً للجنة الشؤون الداخلية التي يعهد إليها بالكثير

من المشاكل تخفيفاً لأعباء مجلس الوزراء . وأتاحت لي هذه التغيرات التي خففت العبء عن كاهلي أن أحشد اهتمامي لتصريف شؤون الحرب ، التي تبين لي أن زملائي يميلون إلى توسيع مسؤولياتي بشأنها وزيادة اختصاصاتي ولذلك فقد رغبت إلى هذين الوزيرين اللامعين أن يحل كل منهما محل الآخر ، ولم يكن ما قدمته لهربرت موريسون طريقاً مفروشا بالورود وليس في مقدور هذه الصفحات بحال ما أن توضح المصاعب الجمة في إدارة لندن وحكومتها في ذلك الوقت الذي كان يضحي فيه عشرة آلاف مواطن أو عشرون ألفاً كل ليلة بدون مأوى نتيجة للهجوم الجوي المستمر ، عندما كان حذر السكان وحرصهم وحله بمثابة حرس أولي يقاوم حدوث الحرائق على أسطح المنازل التي قد يتعذر القضاء عليها ، وعندما اكتظت المستشفيات بمشوهي القنابل من الرجال والنساء ، وعندما ظهر مئات الآلاف من البشر المنهكين يكذبون كل ليلة في هذه الخنادق التي تحتاج إلى الأمان والوسائل الصحية ، وعندما كانت طرق المواصلات بالقاطرات وغيرها تغلق باستمرار ، وعندما كانت المجاري والقوة الكهربائية والغاز تدمر تدميراً ، وعندما يجب أن نظل بصرف النظر عن ذلك - روح لندن المناضلة صامدة عالية . وأن يتيسر نقل حوالي مليون مواطن في كل يوم ليلاً ونهاراً من مساكنهم إلى المصانع وبالعكس ، كان يجب علينا كل هذا ، ولم يكن في مقدورنا أن نعرف مدى هذه المحنة ومتى تنتهي ، ولم يكن لدينا ما يشير إلى أنه لن تستمر أولن تزداد سوءاً . وعندما حدثت المستر موريسون عن رغبتني بالنسبة للمهمة الجديدة كان يدرك جيداً ما ينطوي عليه هذا العرض من خطورة ومشاكل ، فاستمهلني بضع ساعات ليفكر ، ولم يلبث أن جاءني قائلاً أنه سيكون فخوراً بالقيام بكل هذه المهمات ، وهزني إعجاباً به هذا القرار الذي يدل على كل صفات الرجولة .

وبعد أن تمت هذه التعديلات الوزارية أدى تغيير العدو لوسائله إلى أن تتأثر سياستنا العامة ، فقد كانت الغارات حتى الآن تستخدم القنابل الشديدة الانفجار ، لكن في ليلة ١٥ تشرين الأول وكان القمر بدرًا ، نزلت بنا أقسى غارات جوية في ذلك الشهر ، وأسقطت الطائرات الألمانية فضلاً عن حمولتها المعروفة من القذائف المتفجرة حوالي سبعين ألف قذيفة حارقة وكنا حتى هذه الأثناء نبث الشجاعة في سكان العاصمة ونحثهم على اللجوء

للخنادق وقت حدوث الهجوم، وكنا نفتش عن كل وسيلة ممكنة لتأمين وقايتهم. ولكن بعد هذه الليلة اضطررنا أن نطلب إليهم الصعود إلى سطوح المساكن بدلاً من اللجوء إلى الخنادق أثناء الهجوم. وكان على وزير الداخلية الجديد أن ينفذ هذه السياسة، فأعد على الفور تشكيلاً هائلاً لمراقبي الحرائق، ومقاومتها على مدى واسع يكفي مدينة لندن بكاملها، فضلاً عن إجراءات أخرى اتخذت من المدن الإقليمية في أقصر مدة ممكنة. وكانت مراقبة الحرائق عملاً اختيارياً في أول الأمر، ولكن اشتداد الحاجة لمزيد من الأفراد والإحساس بحتمية قيام كل إنسان بواجبه في مثل هذه المحنة القاسية ليشترك في الالامها، فرض علينا أن نلزم المواطنين بالمشاركة في أعمال المكافحة، وقد أدى ذلك إلى مزيد من نشاط كافة المواطنين على جميع ألوأنهم ومستوياتهم. وصممت النساء على المساهمة بقدر حيوي في هذه الخدمة واتخذت التدابير على نطاق واسع للقيام بتدريبات عامة، ولتعزيز مراقبي الحرائق مكافحة كل أنواع القذائف المحرقة التي يسقطها الأعداء وقد تفوق الكثيرون في أداء هذه الخدمة حتى استطاعوا أن يخمّدوا ألاف الحرائق قبل شوبها، وسرعان ما صارت تجربة الصعود إلى أسطح المنازل ليلة أثر أخرى تحت وطأة النيران المشتعلة ودون أدنى إجراء وقائي آخر سوى الخوذة النحاسية أمراً مألوفاً.

ورأى المستر موريسون أن يجمع الفرق المحلية للإطفاء التي يبلغ عددها حوالي ألف وأربعمائة فرقة في تشكيل قومي موحد لمقاومة الحرائق، وأن يزود هذا التنظيم بحرس شعبي كبير للحرائق من المدنيين المدربين المتطوعين للعمل في أوقات فراغهم، وكان حرس الحرائق أول الأمر يتألف من المتطوعين أيضاً. ولكن ما لبث أن تقرر بالإجماع تحويله إلى خدمة إلزامية، وقد استطعنا بواسطة الجهاز القومي لمكافحة الحرائق من استخدام النقص الآلي، وأحدث الأجهزة وأدق التدريبات في أعمال رسمية تشرف عليها مجموعة من العسكريين. أما أسلحة الدفاع المدني الأخرى فقد كانت تتضمن وجود مجموعات على استعداد للتوجيه إلى أي مكان في خلال دقيقة واحدة، وقد اكتفى باسم سلاح الدفاع المدني عن الاسم القديم الذي عرف قبل الحرب بقوات الاحتياط من الغارات الجوية وزود رجال السلاح الجديد بملابس عسكرية خاصة تبث الشعور في نفوسهم بأنهم يؤلفون

السلاح الرابع من قوات التاج المسلحة .

وقد اغتبطت لأن لندن قد صمدت أمام الموجات المتتالية من الغارات الجوية على مدنها. أن لندن تشبه فيما أرى حيوانًا هائلًا من حيوانات ما قبل التاريخ في وسعها أن تتحمل الأذى المخيف، ثم تظل رغم جراحها النازفة عتبة الصمود تموج بالحياة والحركة . وقد كثرت خنادق أندرسن في إحياء الطبقات العاملة المكونة من بيوت ذات طابقين . وقد بذلنا كل ما في وسعنا لتكون هذه الخنادق صالحة للإقامة والحياة ، مع الحرص على تخفيفها من الرطوبة أثناء الأمطار .



وللمرة الأولى منذ حوالي شهرين لم تدو في الجو صفارة الإنذار ليلة الثالث من تشرين الآخر في لندن ، فاستغرب الكثيرون جو الهدوء السائد وبدؤوا يتساءلون ما الخبر ؟ وفي الليلة التالية شنت الغارات على نطاق واسع حتى عمت أكثر الجزر البريطانية ، وظل هذا بصفة مستمرة إلى بعض الوقت واتضح أن الألمان قد جددوا وسائلهم الهجومية ، وبالرغم من أن لندن استمرت كهدف أساسي إلا أن جهودًا ملحوظة كانت تبذل لتشمل العمل في المراكز الصناعية البريطانية . وقد أرسل العدو أسرابًا جديدة مدربة على ابتكارات جديدة في الملاحة الجوية لتهاجم مراكز حساسة في الجزيرة ، فمثلاً تمرنت فرقة خاصة من الطائرات الألمانية على تحطيم مصانع آلات الطائرات «رولز رويس» في («هلينجتون» قرب غلاسكو ، ولا شك في أن هذه الخطة الجديدة لم تكن تعني مجرد التغيير ، فقد قرر العدو تأجيل غزو بريطانيا إلى حين ، ولم يكن قد انتهى من تدبير هجومه على روسيا بعد ، كما لم يفكر فيه أحد غير هتلر والمقرين إليه . وهكذا كانت أشهر الشتاء الباقية مجرد فترة تمرينات بالنسبة لسلاح الجو الألماني على التكتيكات الجديدة في الهجوم الليلي والإغارة على التجارة البحرية في بريطانيا . أما الغاية من ذلك فهي تدمير إنتاجنا العسكري . وكان أجدى للألمان لو ظلوا على هجومهم في ناحية واحدة حتى آخر الشوط فربما وصلوا إلى نتيجة حاسمة ، ولكن الحيرة والتردد كنا طابعهم في ذلك الوقت ؛ لأن ثقتهم بأنفسهم كانت غير كاملة .

وبدأت هذه الوسائل الجديلة في الهجوم بغارة جوية عارمة على كوفتري ليلة الرابع عشر من تشرين الآخر، وقد اتضح لغورنغ أن مدينة لندن شاسعة الأبعاد إلى الدرجة التي لا تتيح له نتائج فاصلة، بينما كان في مقدوره أن يزيل من الوجود مدن الأقاليم ومراكز إنتاج الذخيرة، وقد بدأ الهجوم في الساعات الأولى من الليل وتواصل حتى الفجر واشترك فيه حوالي خمسمائة طائرة ألمانية أسقطت حوالي ستمائة طن من القذائف الشديدة الانفجار عدا ألوف القنابل المحرقة. وكانت تلك الغارة أقسى ما دهنا من غارات ثقيلة مدمرة بصورة عامة، فقد تحطم قلب كوفتري، وأصيبت الحياة بالشلل التام في المدينة، وقد قتل حوالي أربعمائة شخص كما أصيب بجراح عدد أضخم من هذا بكثير. وأذاعت ألمانيا أن جميع مدنا ستلقى نفس المصير، ومع هذا فلم يعطل العمل بمصانع الطائرات أو قطع الماكينات الأخرى، كما لم تمت حركة أهل المدينة بالرغم من عدم مجابتهم قبل ذلك لمثل هذه الغارات. ولم يمر أسبوع حتى كانت لجنة تجليد الأبنية قد قامت بأعمال رائعة تيسر عودة الحياة إلى طبيعتها في المدينة.

وشن العدو ليلة ١٥ تشرين الآخر هجوماً آخر على لندن استخدم فيه عدداً ضخماً من الطائرات في ضوء القمر الساطع فأصيبت العاصمة بكثير من الخسائر وخاصة في كنائسها ونصبها التذكارية، وكانت بيرمنجهام هدف العدو الثالث، فشن عليها هجومه لثلاث ليال متتابعين ١٩ و ٢٢ تشرين الآخر فأصيبت المدينة بخسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، ووصل عدد القتلى إلى حوالي ثمانمائة والجرحى أكثر من ألفين، ولكن روح بيرمنجهام وحياتها قاومتا المحنة، وارتفع المليون من أهلها بتنظيمهم ووعيهم وفهمهم إلى أعلى مما نزل بهم من آلام. وتحولت وجهة الغارات في آخر أسبوع من الشهر نفسه ومطلع شهر كانون الأول إلى الموانئ فتمرضت برستول وساوثهامبتون وليفربول لهجمات قاسية، ومرت بلايموت وشفيلد ومانشستر وليفز وجلاسكو بالمحنة ذاتها بشجاعة نادرة ولم يعد يعيننا أن يوجه العدو ضربه فإن الشعب كله واجهها بإيمان وصبر وعزيمة.

وبلغت الغارات فروتها مرة ثانية حين شن العدو هجومه على مدينة لندن يوم الأحد في ٢٩ كانون الأول، فقد جمع الألمان فيها كل ما حصلوه من خبرات، فكان الهجوم مفعماً

بالقذائف المحرقة التي ركزت قسوة نيرانها على حي «السيتي». وكانت هذه الغارة مدبرة لتقع حين ينحسر الماء عن النهر بسبب الجزر، فتهدمت سدود المياه في بداية الأمر بسبب ألغام شديدة الانفجار أسقطتها المظلات، وكان الضرر الذي أصيبت به محطات السكة الحديدية والأرصعة فادحاً، وهدمت ثمانى كنائس وشبت الحرائق في «غيلدهول» وفي كاتدرائية القديس بولس، ولم تنج من الدمار إلا بجهود خارقة تفوق حد الوصف، وأخذنا نرى الخراب يحتاج العالم البريطاني، ولكن عندما زار الملك والمملكة هذه الأماكن المصابة قوبلا بحماس بالغ أشد مما كنا يقابلان به في أية زيارات أخرى.

وظل الملك صامداً في غضون هذه الأشهر الطويلة من التجربة القاسية والتي لم تنته بعد في قصر باكنجهام، وقد شيدنا خنادق ملائمة في الطابق الأسفل من القصر، ولكن أعمال البناء استلزمت الكثير من الوقت، وكثيراً ما حضر الملك خلال اشتداد الغارة من قصر باكنجهام. وقد أنفذ جلالتة والمملكة بأعجوبة من الموت ذات مرة. ففي حديقة القصر أنشئ ميدان خاص للرماية، كان جلالتة وغيره من أفراد الأسرة المالكة، وكبار رجال الحاشية يتدربون على الرماية فيه بالمسدسات ومدافع التومي، وقد قدمت للملك غدارة أميركية قصيرة المدى، كانت واحدة من مجموعة وصلتني وكان سلاحاً قوياً.

وبدل الملك في تلك الأثناء موعد لقائي الرسمي بجلالتة من الساعة الخامسة مساء كل يوم ثلاثاء كما جرت عادته في خلال الشهرين الأولين منذ توليت الحكم، إلى أن أتناول الغذاء معه في نفس اليوم من كل أسبوع. وكنت في هذه الزيارات التي قد تحضرها الملكة، أعرض على جلالتة شؤون الحكم، وكثيراً ما اضطررنا إلى حمل صحاف الطعام وأقداح الشراب إلى الخندق الذي كان لا يزال في حالة الإعداد فنستكمل طعامنا فيه، وأصبحت هذه الزيارات الأسبوعية عادة رتيبة، وبعد مرور الأشهر الأولى، أمر جلالتة أن يبعد الخدم جميعاً من هذه الاجتماعات وأن نمارس نحن خدمة أنفسنا بأنفسنا، وقد تكشف لي خلال السنوات الأربع والنصف التالية من الحرب أن جلالتة كان يطلع بكثير من الاهتمام على جميع البرقيات والوثائق الرسمية التي أقدمها إليه، ويقرر العرف الدستوري البريطاني أن من حق الملك أن يطلع على كل شيء يقع تحت اختصاصات وزرائه، وأن يقدم المشورة إلى

حكومته بدون قيد ولا شرط ، وكنت حريصًا جدًا على أن أطلع على كل شيء ، وكثيرًا ما بدائي خلال اجتماعاتنا الرسمية الأسبوعية أنه قد قام بدراسة كافة الوثائق التي لم أكن قد درست بعضها بعد ، وأنتي لأقول أن من حسن الطالع لبريطانيا أنه كان على عرشها في مثل هذه السنوات المصيرية ملكان خيران كملكنا وملكنا ، وأني كواحد من الذين يؤمنون بالملكية الدستورية ، نظرت ببالح التقدير إلى الشرف الذي أسبغه على صاحب الجلالة بهذه الصلات التي وثق عراها معي كوزيره الأول ، وأنتي لا أرى لذلك نظيرًا في تاريخنا إلا في أيام الملكة آن ورئيس حكومتها مارلبورو .

وهكذا أبلغ بنا العام إلى نهايته ... ، وأن كنت قد استطردت - راعيًا - بعيدًا عن شؤون القتال الخاصة ، وسيري القارئ أن كل هذا الدوي وتلك الزعازع لم تكن إلا رقيقًا على الطريق يسير مع إجراءاتنا الهادئة التي حرصنا عليها في إدارة جهودنا الحربية ، وتوحيد سياستنا ودبلوماسيتنا ، وعلى أن أقر هنا أن هذه الخسائر التي منيها بها والتي لم تكن عميقة ، كانت في اعتبارنا نحن المقيمين في قمة الموقف دافعًا فعالًا للتعبير عن آرائنا ، وتوطيد زمالة بارة بيننا وتدعيم أسس أعمالنا الجهورية الواعية ، وربما يكون من غير الحكمة على كل حال أن أفترض بأن الغارات التي شنت علينا لو تزايدت إلى عشرة أو عشرين ضعفًا أو حتى بنسبة ضعفين أو ثلاثة فإن هذه الانطباعات السليمة التي فصلتها ، كانت ستوجد بصورة مؤكدة ، وعلى النحو الذي أوضحت .



الفصل العاشر

الإعارة والتأجير



أطل علينا فجر جديد، وصليل الأسلحة يملأ الجو، لكن مصدره هذه المرة كان مختلفاً عما سبق. فقد دارت الانتخابات الأميركية للرئاسة في الخامس من تشرين الثاني، وبالرغم مما تتسم به من حيوية وصلابة تميز بها هذه المصارعة الحادة التي تحدث مرة كل أربع سنوات، وعلى الرغم من الخلافات التي تثار حول الشؤون الداخلية بين الحزبين الرئيسيين، إلا أن كبار الزعماء في كل من الحزبين الديمقراطي والجمهوري كانوا يجتمعون على تقدير قضيتنا العظمى والاهتمام بها، فأعلن المستر روزفلت في ٢ تشرين الثاني بمدينة كليفلاند أن سياسته تؤمن ببذل كل مساعدة فعالة للشعوب التي ما زالت تكافح العدوان عبر المحيطين الأطلنطي والهادي. كما صرح منافسه المستر ويندل ويلكي في نفس اليوم في خطاب ألقاه بحديقة ماديسون بأنهم جميعاً جمهوريين وديمقراطيين ومستقلين مصممون على مؤازرة المقاومة البريطانية الباسلة وأنهم يتعهدون للشعب البريطاني بأن يستخدم متى شاء ثمار صناعتهم. ولا شك في أن هذا الشعور الوطني النبيل كان الطريق المخلص لحياة الولايات المتحدة وحياتنا نحن أيضاً.

ومع ذلك فقد كنت أحس بالقلق العظيم، وأنا أترقب النتيجة، فليس في مقدور كل من يتولى الرئاسة، أن يكون مسلحاً بالخبرة والمعرفة كما يتمتع بها فرانكلين روزفلت، وليس في مقدور أي شخص سواه أن يحوز نفس المواهب والكفايات، وكنت قد وثقت علاقتي الشخصية به، وحافظت على تسميتها ورأيت أنها قد بلغت أسمى مراتب الثقة والصدقة إلى الدرجة التي أصبحت بها ذات أهمية في تفكيري، وكنت لهذا أحس بالقلق إزاء كل ما يهدد هذه الزمالة، وقد تم توطيدها بعناية وعلى مهل، وأنقر من فكرة قطع هذا الاتصال في أحاديثنا ومباحثاتنا لأبدأ من جديد مع شخص آخر صاحب عقلية وشخصية مختلفتين، ولم أحس منذ أيام يمثل ما أحس به الآن من قلق، ولذلك فقد كانت غبطتي عظيمة عندما علمت أن الرئيس روزفلت قد أعيد انتخابه.



وكنا حتى تلك الساعة نلجأ فيما نحتاجه من الذخيرة للمصانع الأميركية بحرية وحيوية، وإن كان ذلك يتم بعد التفاوض معها.

وأدت زيادة رغباتنا وتعدد مطالبنا إلى التناقض أحياناً، مزاحمة الرغبات الأمريكية ذاتها، مما كان ينذر بحدوث اصطدام على المستويات الخفيفة بالرغم من توافر حسن النية لدى الطرفين. وكتب المستر ستيتينيوس يقول:

«إن في إمكان سياسة موحدة من أجل تحقيق غايات المقاومة أن تؤدي أغراض هذه المهمة التي تواجهنا الآن». ومعنى هذا أن لحكومة أميركا أن توصي وحدها بصنع الأسلحة التي نحتاجها من أميركا. وخرج الرئيس روزفلت بعد توليه الرئاسة بثلاثة أيام بنظرية جديدة تقرر الأفضلية في توزيع إنتاج الأسلحة الأميركية، على أن يكون خمسون في المائة من إنتاج أميركا للأسلحة مخصصاً لاحتياجات أميركا الدفاعية، وخمسون في المائة للقوات البريطانية والكندية. وأصدر مجلس الأفضلية الأميركي في نفس اليوم موافقته على رغبة بريطانيا في إعداد اثني عشر ألف طائرة في الولايات المتحدة فضلاً عن رغبتنا السابقة في أحد عشر ألف طائرة أخرى، ولكن من أين تأتي بالأموال الضرورية لتغطي ثمن الأسلحة التي نحتاجها من المصانع الأميركية؟

وأضى اللورد لوثيران في أواسط تشرين الأخير يومين في ديتشلي معي، وكان قد ركب الطائرة من مقر عمله في واشنطن إلى الوطن، وكنت قد استمعت إلى نصيحة بالألمضي في تشيكرز جميع نهايات الأسابيع، خصوصاً عندما يكون القمر بدرًا، خشية أن يعطف على العدو بلطفه الخاص، وكان السيد رونالد تري وزوجته قد استقبلاني أحسن استقبال، أنا وموظفي، في بيتها الكبير الجميل الذي يقع على مقربة من أكسفورد ولا تزيد المسافة على أربعة أو خمسة أميال بين ديتشلي وبلنهايم، وهكذا التقيت بسفيرنا في واشنطن في هذا الجو الآمن، وكان يعرف شتى جوانب الموقف الأميركي ولم يكن قد حصل على شيء سنوي النية والثقة من واشنطن، وكان قد اتصل منذ قليل بالرئيس الذي توثقت بينهما أطيب العلاقات، وكان فكره مشغولاً بمسألة الدولار، وهي مسألة كتيبة بلا شك.

فعندما خاضت بريطانيا غمار الحرب، كان في حوزتها حوالي ٤٥٠٠ مليون دولار أما على صورة دولار بالفعل، أو ذهب أو استثمارات أميركية من المستطاع أن تتحول إلى الدولارات، وكانت الوسيلة الوحيدة المستطاعة لتزويد هذه الموجودات، هي التوسع في

استخراج الذهب في الإمبراطورية البريطانية وخاصة في جنوب إفريقيا . وبذل كافة السبل لزيادة الصادرات إلى أميركا وخاصة الكماليات كالويسكي والمنسوجات الصوفية الرائعة والخزف . وقد استطعنا بهذه الوسيلة زيادة حصيلتنا بحوالي ألفي مليون دولار في خلال ستة عشر شهراً منذ بداية الحرب ، وكنا في السابق نتجاذبنا الحيرة بين حاجة ملحة إلى العتاد من أميركا ، وبين فرغنا من نقصان دولاراتنا الموجودة لدى أميركا ، وكان السير جون سيمون وزير المالية في حكومة المستر تشمبرلين يتحدث كثيراً عن المصير المؤسف لأرصدتنا الدولارية ، ويوجه أنظارنا إلى ضرورة الحرص عليها ، وكنا على أية حال متفقين على ضرورة الحد من مشترياتنا الأميركية بقدر المستطاع ، وكنا نبدو كما قال مرة المستر بوفيز ، رئيس لجنة المشتريات للمستر ستينينوس « وكأننا نحيا في جزيرة منقطعة بكمية محدودة من الطعام الذي نحاول الإبقاء عليه أطول مدة ممكنة » .

وكان يقصد بهذا إعداد ترتيبات واسعة المدى لزيادة أموالنا ، وكنا قبل الحرب نمارس حريتنا في الاستيراد ، وندفع بالعملة التي نريد ، وعندما قامت الحرب اضطررنا أن نوجد هيئة لتعبئة الرصيد الخاص من الذهب والدولار والنقد الأجنبي ، وأن نقف دون تحقيق رغبات ذوي التوايا المنحرفة في تحويل رأسسأهم إلى البلاد التي يحسون أنها أكثر أمناً من بلادهم ، وأن نقلل من قيمة الواردات إلى البلاد التي يحسون أنها أكثر أمناً من بلادهم ، وأن نقلل من قيمة الواردات غير الضرورية وغير ذلك من وسائل الأنفاق الأخرى ، وفضلاً عن عزمنا على الإبقاء على أموالنا ، كان علينا أن نضمن استمرار الآخرين في قبول عملتنا ، وكانت بلاد الكتلة الإسترلينية معنا ، فهي تحتم سياسة الإشراف ذاتها على النقد التي تحتمها ، وهي تريد التعامل الدائم بالإسترليني ، وقمنا بإبرام عقود خاصة مع الآخرين تلزم بأن ندفع لهم بالإسترليني الذي يقدر على التعامل به في أي مكان داخل حدود الكتلة الإسترلينية ، كما ضمنوا الإبقاء على فائض الإسترليني لديهم ، وأن يحرصوا في مبادلاتهم على هذه الشروط مع السويد والأرجنتين ، ثم ما لبثت أن اتسع نطاقها فشملت بلاداً أخرى في القارة وفي جنوب أميركا . وقد تم تسبيق هذه الخطة بعد ربيع عام ١٩٤٠ ، ولا شك في أن مما هو جدير بالثناء وإطراء الإسترليني نفسه أننا استطعنا الإبقاء عليه في مثل هذه الظروف

القاسية، وقد قدرنا بهذه الوسيلة على الاستمرار في معاملتنا التجارية مع غالبية البلاد في العالم بالإسترليني، وأن يبقى على ما لدينا من دولار وذهب ثمين لمعاملتنا الحيوية مع أميركا.

وعندما أصبحت الحرب واقعاً مرعباً في أيار ١٩٤٠، أدركنا على الفور أننا نشيد ميلاد حياة جديدة للعلاقات الإنكليزية الأمريكية، فمنذ أن توليت تأليف الوزارة، وعهد لي السير كنغزلي بوزارة المالية، بدأنا نسير في طرق أكثر يسراً، وهي أن توصي باحتياجاتنا ورغباتنا بغض النظر عن المصاعب المالية المقبلة، تاركين للآلهة الخالدة أن تتولاها بعنايتها، ولقد كان من الزيف في شؤون الاقتصاد ومن الخداع بالنظر للرؤية والعقل أن تترك الفرصة للقلق ونحن نواجه معركة حياة أو موت، منفردين، لا نصير لنا ولا معين ونقع تحت وطأة هجوم جوي مستمر، ونعرض لأهوال غزو يذيقنا من ويلاته، أن نترك الفرصة للقلق يستولي علينا من جراء نفاد أرصدتنا الدولارية لدى أميركا. وكنا قد شعرنا بالتحول الكبير في الرأي العام الأميركي وشعرنا بالإدراك الجديد الذي سرى لافي واشنطن وحدها بل في جميع أرجاء الولايات المتحدة، بأن مصير أميركا وثيق الصلة بمصيرنا نحن، وفضلاً عن هذا فقد سرى تيار من العطف والإعجاب ببريطانيا بين صفوف الشعب الأميركي ووصلتنا بركات مودة من واشنطن مباشرة، وعن طريق كندا، لمسنا في غضونها التشجيع والموازرة، والإحساس بأن شيئاً ما في الأفق سيتحقق عن قريب. ولقيت قضية الحلفاء في المستر مورغنتا ووزير الخزانة الأميركية نصيرها وحاميها الذي لا يكل من الذود عنها، وبسبب ورود الطلبات الفرنسية إلينا في شهر حزيران تضاعف معدل إنفاقنا في النقد الأجنبي. زيادة على ذلك أننا رغبتنا من جديد في صنع طائرات ودبابات وسفن تجارية من مختلف الأنواع، وحثنا على إنشاء مصانع ضخمة جديدة في أميركا وكندا.

ولم شهر تشرين الآخر قد قمنا بدفع الثمن لكل ما وصلنا من أميركا وكنا قد بعنا ما قيمته (٣٣٥) مليون دولار من السندات والأسهم الأميركية التي قمنا بمصادرتها من ذوبها في لندن مقابل الدفع بالإسترليني، وكنا قد قمنا أيضاً بدفع ما يزيد على (٤٥٠٠) مليون دولار نقداً، وأصبح كل ما لدينا ألفي مليون معظمها في صورة استثمارات غير قابلة للبيع

الفوري في الأسواق، وظهر أن ليس في وسعنا أن نسير على هذا النوال، لأننا أنفقنا كل ما في حوزتنا من الذهب والنقد الأجنبي فلن نستطيع أن ندفع الثمن لنصف احتياجاتنا من المصانع الأمريكية، فكيف يكون الأمر والحقيقة أن امتداد من الحرب وشمولها يضطرنا إلى أن نحتاج من المصانع الأمريكية عشرة أضعاف ما احتجنا إليه الآن. وعلينا فضلاً عن كل هذا أن نبقى على كل شيء في أيدينا لنواجه به مطالبات اليومية المتجددة.

وكان لوثيان واثق من أن الرئيس ومستشاريه يفكرون جدياً في خير الوسائل لمعاونتنا، أما وقد انتهت المعركة الانتخابية، فقد دقت ساعة العمل، وكانت المباحثات دائمة في واشنطن بين ممثل لوزارة حربنا هناك - السير فريدريك فيليبس - وبين المستر مورغنتاو، ورغب إلى سفيرنا في أن أحرر رسالة مفصلة للرئيس توضح كل أوضاعنا، وهكذا كتبت بالمشاورة معه في ذلك اليوم، الأحد في ديتشلي، رسالة خاصة إلى الرئيس روزفلت، ولما كان ينبغي عرض هذه الرسالة على رؤساء أركان الحرب، ووزارة الخزانة لدراستها، ثم توافق عليها وزارة الحرب فإنها لم تكن معدة للإرسال قبل رجوع لوثيان إلى واشنطن. وتمت الرسالة في صورتها الأخيرة، ثم أرسلت بتاريخ ٨ كانون الأول إلى المستر روزفلت فوراً، فالتفت. وهي من أهم ما أحرزته في حياتي.

إلى صديقنا العظيم وهو يمحخر عباب البحر الكاريبي على ظهر البارجة الأميركية «توسكالوزا» مع أصدقائه وخاصته، وأبلغني هاري هوبكنز، بعد ذلك وكنت لم أعرف به بعد أن الرئيس قرأ الرسالة مراراً على ظهر البارجة وهو جالس على مقعده، وأنه أمضى يومين في دراستها، إلى أن وضحت أمامه مراميها. لقد ظل في أحضان تفكير عميق، ينتمى لنفسه في صمت.

ونج عن كل هذا قرار عظيم، فالقضية لم تكن عدم معرفة من الرئيس لحقيقة ما نريد، وإنما كانت في أي الوسائل يجب أن يسلكها لتؤمن بلاده بالمسير معنا، وليقتنع الكونجرس بضرورة ما يرى. ويقول ستيتنروس أن الرئيس كان في أخريات الصيف الماضي قد رأى في إحدى جلسات لجنة الدفاع الاستشارية في موضوع الموارد الملاحية أن ليس من المحتم أن يذل البريطانيون أمواهم. وليس من المحتم أيضاً أن يستدينوا منا هذا الغرض، ولكن مع

أنه لا يوجد ما يحول دون تنفيذ كل ذلك - في مقدورنا أن نأخذ الباخرة التي تم صنعها ، وأن نؤجرها لهم أثناء استخدامها لهم .

ويظهر أنه كان هناك قانون صدر في عام ١٨٩٢ ، يدع لوزير الحرية حرية تأجير ممتلكات الجيش ما دام يرى في ذلك مصلحة عامة بشرط ألا يكون الجيش في احتياج إليها مدة خمس سنوات . وكانت هناك حالات طبق الجيش فيها هذا القانون . وأجر بعض ممتلكاته من حين لآخر .

وهكذا انبثقت فكرة «التأجير» في ذهن الرئيس روزفلت لتلبية احتياجات بريطانيا . بدلاً من تقديم قروض غير محدودة ، ربما قد يؤدي ذلك إلى درجة يصعب معها الدفع والتسديد ، وسرعان ما انتقلنا من المجال النظري إلى المجال العملي ، وظهرت في هذا الزمن الذي أعلن فوراً وهو الإعارة والتأجير .

وعاد الرئيس من رحلته في البحر الكاريبي في ١٦ كانون الأول بمشروعه العميق في مؤتمر صحفي عقد في اليوم التالي ، وقد أوضحه في بساطة عندما قال : «لنفرض أن منزل جاري قد شب فيه حريق ، وكنت أملك في حديقتي خرطومًا طويلًا يبلغ أربعمئة قدم أو خمسمئة ، وكان في استطاعة جاري إذا منحته خرطومي أن يوصله بصنبور مياهه ويتغلب على النار المشبوبة ، فماذا ترون واجبي في ذلك الحين ؟ إنني لن أخاطبه قائلاً في مثل هذه الظروف : أسمع يا جاري ، لقد كلفني هذا الخرطوم خمسة عشر دولارًا وعليك أن تدفع ثمنه أولاً ... كلا .. إنني لن أفعل ذلك ، وإنما سأقول له : أنا لا أريد الخمسة عشر دولارًا ولكنني أريد خرطومي بعد أن تحمد الحريق .. واستطرد قائلاً : «لاريب عند أي أميركي يرى أن أفضل سبل الدفاع العاجل عن أميركا ، هي أن تنصر بريطانيا في الدفاع عن نفسها ، ولذلك - فضلاً عن مصلحتنا التاريخية والحاضرة في المحافظة على الديمقراطية كشيء جوهري - فإن في غاية الأهمية - من الناحية الذاتية أيضًا - وبالنسبة للدفاع الأميركي أن نبذل كل ما نستطيع لمعاونة بريطانيا في الدفاع عن نفسها .. » ثم ختم كلمته قائلاً : «أنني أحاول أن أحوّل حواجز الدولار» .

وعلى هذه الأضواء، ثم إعداد مشروع الإعارة والتأجير عاجلاً ليعرض على الكونغرس، وقد وصفت هذا الجهد فيما بعد أمام البرلمان في أحد البيانات قائلاً: «أكرم عمل قام به أي شعب في التاريخ» وفي الوقت الذي تمت فيه موافقة الكونغرس على هذا القانون، تغير الوضع كاملاً بصورة عاجلة، فقد أعطانا القانون الحرية في أن نبرم الصفقات الضخمة بكافة احتياجاتنا تحت رعاية اتفاق الإعارة والتأجير. ولم ينص على إعادة الدفع، كما لم يكن ثمة حساب رسمي يسجل بالدولار أو الإسترليني، فكل ما نحتاج إليه يأتينا بالإجارة أو الإعارة، لأن مقاومتنا المتصلة لجبروت هتلر، اعتبرت أعمالاً دفاعية من مصالح الولايات المتحدة، فقد قال الرئيس روزفلت أن الدفاع عن أميركا لا الدولار هو الذي سيعين منذ الآن المكان الذي ستوجه إليه الأسلحة الأميركية.

وامتدت يد الموت في تلك الساعة الحاسمة إلى اللورد فيليب لوتيان، فانزعته من بين جماعتنا، بعد رجوعه إلى واشنطن حيث تسلط عليه المرض بصورة غير متوقعة، ولكنه أدى واجبه حتى النهاية وبدون أدنى توقف، وتوفي في ١٢ كانون الأول وهو كدبلوماسي مرموق في قمة نجاحه. فكان موته خسارة لوطنه وللقضية كلها، ودمعت عليه عيون الأصدقاء في جانبي المحيط، أما أنا وكنت قبل أسبوعين وثيق الصلة به، كما ذكرت قبل ذلك بقليل، فقد كانت وفاته صدمة شخصية لي، وقد أبت به بخطاب في مجلس العموم أعظم تأيين ذاكرًا له بثناء جم جهوده ومسيرته.

وكان على أن أوجه اهتمامي فوراً لمن يخلفه، وأدركت أن علاقاتنا بأميركا في تلك الفترة في حاجة إلى أن يكون سفيرنا إليها شخصية بارزة متمتعة بسمعة قوية خاصة، فضلاً عن الكفاءات التي ينبغي أن يكون حائزاً لها سياسي مطلع على كافة شؤون العالم. وبعد أن ضمنت موافقة الرئيس روزفلت على وجهة نظري رغبت إلى المستر لويد جورج في أن يقوم بمهام هذا المنصب، وكان المستر لويد جورج قد اعتلر عن تولي منصب في وزارة الحرب في تموز الماضي كما كانت الظروف السيئة في السياسة البريطانية الداخلية، وكانت آراؤه في الحرب والأحداث التي أدت إليها تخالف ما أراه، وبالرغم من ذلك لم يكن هناك شك في أنه ألمع رجل في وطننا، وفي أن كفاياته وخبراته التي لا نظير لها ستساعده كلها على حمل أعبائه. وقد

تحدثت إليه طويلاً في غرفة الحرب في اليوم التالي حول مائدة الغداء ، واستخفه السرور بهذا التكليف فقال : «إنني سأخبر أصدقائي بأن رئيس الوزراء عرض على عروضاً مشرفة ، ولكنه كان على ثقة من أن رجلاً في السابعة والسبعين مثله ، ليس في وسعه القيام بالتبعات الجسام التي يعينها هذا المنصب » وبعد محادثات متواصلة معه انتصح لي أن الرجل قد أوهته الشيخوخة لا سيما في الأشهر الأخيرة منذ دعوته للاشتراك في وزارة الحرب ، لذلك تنحيت عن اختياري الأول .

وتنهدت إلى اللورد هاليفاكس ، صاحب المقام الرفيع في حزب المحافظين والمكانة التي دعمتها أعماله في وزارة الخارجية ، ولا شك في أن توجه وزير الخارجية إلى منصب سفاري يعني أهمية خاصة لهذه البعثة الدبلوماسية التي تحظى برئاسته ، وبالإضافة إلى هذا المغزى فإن أعماله في سنوات ما قبل الحرب ، والأسلوب الذي سارت به الأحداث في تلك الفترة قد وضعه موضع عدم الاستلطاف بل العداء أحياناً من جانب العمال في حكومتنا القومية ، وكنت أعرف أن اللورد يدرك هذا جيداً . وعندما عرضت الأمر عليه ، الذي لم يكن بالطبع يعني أي ترقية ذاتية ، اكتفى بكلمة بسيطة متعالية تعبر عن استعداده للخدمة حيث تكون خدماته نافعة ومحتمة . وتأكيذاً مني لأهمية بعثته وواجباته رتبت الأمور على أن يباشر عمله كعضو في وزارة الحرب عندما يعود في أي إجازة إلى الوطن . وقد نجحت في هذا دون صعوبات بفضل ما تنطوي عليه نفوس الشخصيات التي تناولها هذا الترتيب من ذكاء وخبرة وكفاية .

ومكث اللورد هاليفاكس يعمل في ظل الحكومة القومية الائتلافية وخليفته الحكومة العمالية الاشتراكية كسفير في واشنطن مدى ست سنوات في نجاح مستمر لما يقوم به من أعمال ونفوذ تتضاعف يوماً بعد يوم . وقد اغتبط الرئيس روزفلت والمستر هل ، وغيرهما من شخصيات واشنطن البارزة ، بتعيين اللورد هاليفاكس ، وسرعان ما عرفت أن الرئيس قد استحسنته عن اختياري الأول ، وبذلك صادف التعيين الجلديدرضا وترحيباً في كل من أمريكا وبريطانيا ، واعتبر منسجماً مع روح الأحداث الجارية .

ولم أكن على حيرة من أمري في الشخص الذي سيخلف اللورد هاليفاكس في وزارة

الخارجية، فقد ظلت طيلة السنوات الأربع الماضية متفقا تماما بالنسبة للقضايا الرئيسية مع أنتوني إيدن . وقد بينت مشاعر القلق في نفسي عندما تنحى عن صحبة المستر تشرشلين في ربيع عام ١٩٣٨ وكنا قد امتنعنا معًا عن التصويت على اتفاق ميونخ ، ووقفنا معًا نقاوم الضغط الحزبي الذي تعرض له كل منا في دائرته الانتخابية في شتاء تلك السنة المؤسفة، وقد التقينا معًا عقلاً ووجدنا عند إعلان الحرب وفي خلال مسيرها ، كزميلين ، وكان إيدن قد خصص الجزء الأكبر من حياته العامة لدراسة الشؤون العالمية ، وتولى منصب وزير الخارجية المرموق فملاؤه عن كفاية ومقدرة ، واستقال منه وهو في الثانية والأربعين من عمره لأسباب إذا نظرنا إليها الآن بمنظار الحقيقة فسوف تنال تأييد جميع الأحزاب . وقد قام بدور فعال كوزير للحرية في تلك السنة الرهيبة ، وكان نصريفه لشؤون الجيش ، قد قرب كلانا للآخر ، فكنا نتشابه في التفكير ، حتى بدون استشارة أو عرض لوجهات النظر ، في كثير من المسائل العملية ، التي تقابلها يوميًا ، وكنت بلدوري أطمح في زمالة فياضة بالانسجام والتوافق بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وقد جنيت ثمار هذه الرغبة ، في خلال السنوات الأربع والنصف التالية ، المليئة بأعمال الحرب والسياسة ، وقد أسف إيدن حينما ترك وزارة الحرية التي كان قد دار في دوامة متاعبها واستثاراتها ، ولكنه عاد إلى وزارة الخارجية ، وكأنه رجل يعود إلى بيته .

ونكتفي بهذا القدر من مذكرات تشرشل والتي أسهب فيها الكثير من التفاصيل التي قد لا تفيد القارئ كثيرًا . متمنيًا أن نستفيد ونتعلم من تلك الشخصية ورويتها للأحداث .



الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
ونستون تشرشل السياسي والرسام	٥
من المدرسة إلى المعسكرات	٦
من المعسكرات إلى العمل الحزبي	٧
بين الحربين العالميتين الأولى والثانية	٨
بعيداً عن السياسة والحروب	٨
وفاته	٩
من أقواله	١٠
مذكرات الداهية ونستون تشرشل السياسي الذي أذهل العالم بدهائه	١١
الفصل الأول	١٣
الفصل الثاني : ظهور هتلر	٢٥
الفصل الثالث : المنظر القائم وفكرة احتلال النمسا	٣٣
الفصل الرابع : فقدان التوازن الجوي والعقوبات ضد إيطاليا	٤٣
الفصل الخامس: هتلر يضرب بعض فرق الخدمة الإجبارية في الجيش	٥١
الفصل السادس: المستر إيدن في وزارة الخارجية - واستقالته	٦١

الموضوع	الصفحة
الفصل السابع : اغتصاب النمسا	٧١
الفصل الثامن : تشيكوسلوفاكيا	٨١
الفصل التاسع : براغ، البانيا ، وضماتة بولندا وأحداث عام ١٩٣٩	٨٩
الفصل العاشر : على حافة الحرب «وتدهور العلاقات مع ألمانيا»	٩٧
الفصل الحادي عشر : الحرب وبيان هتلر الأول	١٠٥
الفصل الثاني عشر : الجبهة في فرنسا والحملة البريطانية	١١٧
الفصل الثالث عشر : إسكندنافيا وفنلندا شبه جزيرة البلطيق أهميتها العسكرية	١٢٥
الفصل الرابع عشر : الهجوم على النرويج	١٣١
الجزء الثاني من مذكرات تشرشل	١٣٧
الفصل الأول : معركة فرنسا وهجوم ١٢٦ فرقة ألمانية عليها	١٣٩
الفصل الثاني : المسير نحو البحر	١٤٩
الفصل الثالث : إنقاذ دنكرك	١٦١
الفصل الرابع : التسابق نحو المغام	١٦٧
الفصل الخامس : مأساة فرنسا	١٧٥
الفصل السادس : مشاكل الدفاع	١٨١
الفصل السابع : عملية أسد البحر	١٩٩
الفصل الثامن : معركة بريطانيا	٢١٣
الفصل التاسع : الحرب الخاطفة	٢٢٩
الفصل العاشر : الإغارة والتأجير	٢٤٩
الفهرس	٢٦١